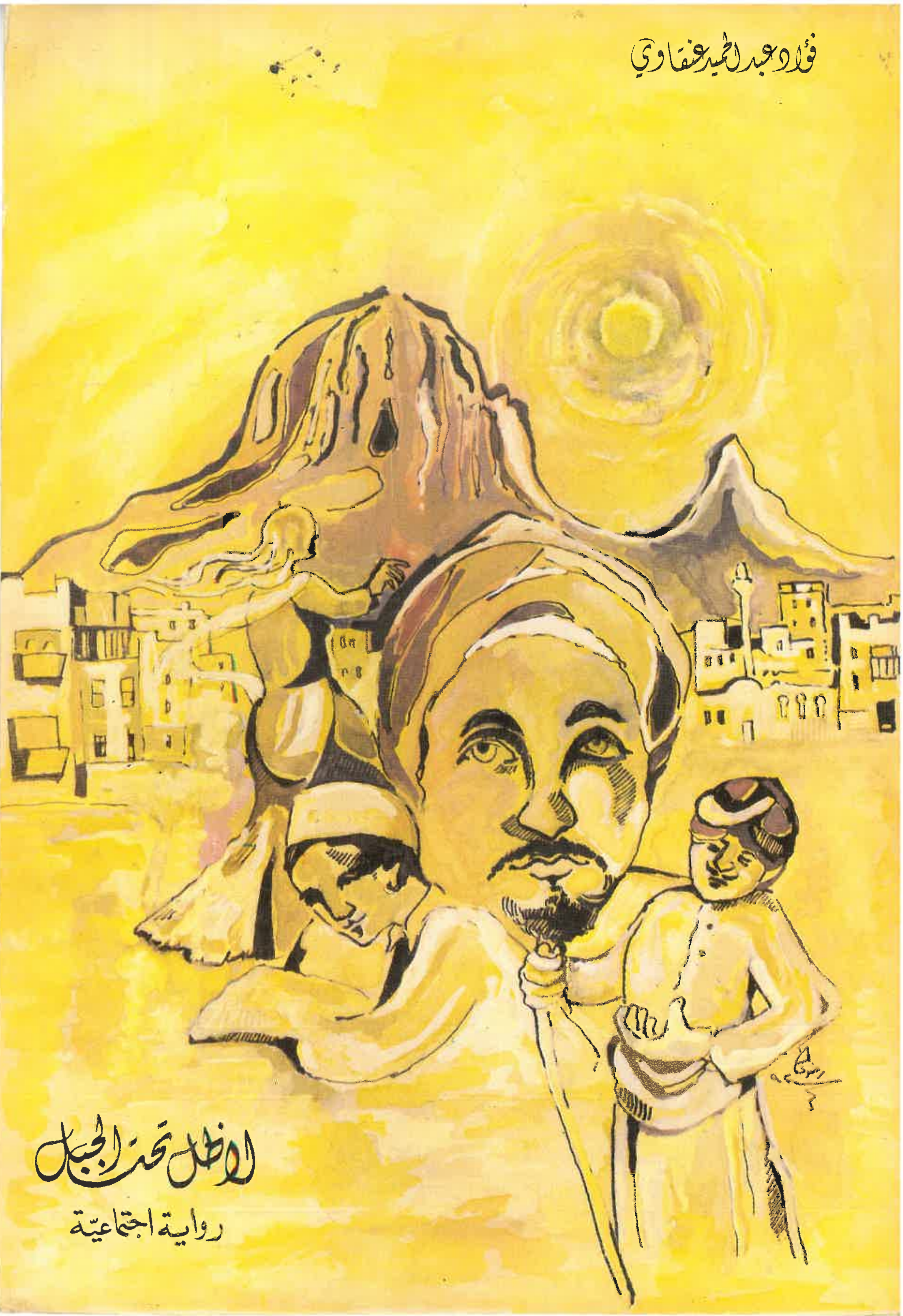
فؤاد عبد الحميد عنقاوي



لا ظل تحت الجبل

رواية اجتماعيّة

بسم الله الرحمن الرحيم

مَكَّةُ المُكَرَّمَةُ

١٣٣٠هـ ـ ١٣٧٠هـ

الإهداء

الى من علمني ...

– ماهية الحرف –

– ورعشة الكلمة –

– ورصانة الأسلوب –

الى والدي – رحمه الله –

كلمة المؤلف

تراءى لي – وأنا الذي عشت أيام الطفولة ، وقضيت صدر أيام الصبا والشباب في ربوع مكة . . . ونشأت بين جبالها ، وجريت في وديانها ، ولعبت في حواريها وأزقتها – تراءى لي أن أنقل صورة من الواقع والوقائع الانسانية ، وأن أسجل شريطاً من الأحداث الاجتماعية التي وقعت في أوائل قرننا الحالي – وأن أرسم – ما استطعت – لوحة من العادات والشخصيات والعقليات التي كانت تزخو بها مكة المكرمة كمدينة " وكرابطة " ترتبط فيها الوشائج البشرية بعضها ببعض .. يسيطر على بعض منها المد الفكري والغزو التقدمي ، ويكبح جماح الجزء الآخر بحر من المعتقدات ، وجبال من الرواسب الاجتماعيـــة والتخلف الحضاري . . . لينشأ بين هذا وذاك جيل يتيه في الحيرة ويسبح في عالم الضياع ، ولينشب بعد ذلك صراع بين القديم والجديد .. والماضي والحاضر .

فترة الحيرة والضياع هذه هي التي بقيت دون تسجيل . . ووقف التاريخ أمامها منتظراً كاتباً يكتبه وقلما يصيغه ، وفرشاة ترسمه .

ولما قيض الله أديباً أراد أن يبرز تلك الجوانب الفنية والأحداث الاجتماعية . . لم يمهل القدر (حامد دمنهوري) وانتزعته المنون والصورة بعد . . لم تكتمل .

ومن قبله حاول (السباعي الشيخ أحمد) أن ينقل صوراً حية ورسومات

متحركة لفترة عاشها صدر شبابه . . إلا أنه سرعان ما طغت النزعة التاريخية عليه ، وسار في درب المؤرخين ، وفي ركاب الباحثين . . وترك النافذة مفتوحة لمن يريد أن يطل منها على الماضي ليسترجع أحداثه ويسجل وقائعه . . .

ولما كان التاريخ — يعيد نفسه — فقد رجوت الشيخ السباعي أن يطل من نافذة الغد . . وأن يبدأ بالخطو الوئيد على هذا الطريق الطويل الذي سأمشي عليه . . مزوداً بالذكريات ، ومستعيناً بالأحداث القريبة والبعيدة . . أسجلها للتاريخ . خوفاً من أن يطغى عليها النسيان أو يعفو عليها الزمان .

ولقد حرصت أول ذي بدء على وحدة البناء — وهي خصيصة ضرورية في الرواية الاجتماعية التي تعتمد على تصوير البيئة المحلية والجو التاريخي وانتقاء الحوادث .

كما كان الاهتمام منصباً على الوحدة القصصية وما تقتضيه من رسم خطوط درامية متعرجة متطورة . . . وتحليل نفسي تغوص الأحداث في أعماقه ، وتبحث في طيات مكنونه عن الحل . . .

كذلك الحال في رسم الشخصيات ، وخلق الصراع في نفوسهم ، ثم ترسّم ذلك الصراع في أخلاقهم ، وسلوكهم ، وعادلتهم ، وطباعهم .

ولقد حاولت أن أركز على تعرّف مواطن الخير والجمال والقوة في هذا الكائن البشري المليء بالانفعال والشعور والأحاسيس .. [ذلك الانسان] ... وأن أولي الطبيعة البشرية جل الاهتمام ، وهو الجانب الخالد الذي لايتأثر بالسقطات التاريخية أو بتغير الزمان والمكان . . تلك الطبيعة البشرية الدائمة السرمدية في حبها وبغضها . . . في أنانيتها وأثرتها . . في ميلها للصفح أو حبها للانتقام . . . في تحديها وبطشها .. في خنوعها واستسلامها .. في آمالها وأمانيّها .. في شقائها وآلامها .

ولقد أردت من وراء ذلك أن أكتب قصة متحركة . . متطورة تقوم على ركائز متعددة . . وعواطف مشبوبة . . وشخصيات متباينة . . . ولحظات كشف مفاجئة . . وأفكار وآراء مترجمة الى مواقف وتصرفات . .

فالى الذين سيعيشون معنا في هذه الرواية . أهدي تحياتي .

فؤاد عبد الحميد عنقاوي
مكة المكرمة

* * *

مقدمة

بقلم الاستاذ أحمد سباعي

عم يتساءلون ؟؟؟

عن القصة في بلادنا ؟

عن مدى انطلاقها ؟

عن مبلغ نجاحها ؟

لقد قالوا كثيراً ، وتفاءلوا أكثر ...

أما أنا فلا أتشاءم ..

ولكن لي رأياً قديماً .

أرى أن القصة إذا مضت إلى غايتها في بلادنا ، فستمضي في خطوات جد هينة .. وذلك لأنها إذا مشت فستمشي على استحياء .

أتفهمني ... ؟؟؟

لاتقل : لا

لأنك لاتستطيع أن تنسى أن بلادنا محافظة ...

ولا تستطيع أن تنسى أن القصة (أوالرواية) في أوجه فنها لاتعرف الحياء .. لا ولا تتورع أن تقول الواقع دون أن تبالي في سياقها بأي معنى نرى نحن فيه ما يخدش حياء العذراء .

لاتستطيع أن تنسى أن المرأة عنصر هام في بناء أكثر القصص . وهي تصاحب القصة إذا صاحبتها بكل مافي المرأة من فنون .. لايرى القاص أي غضاضة في أن يقدمها سافرة على أي وجه شاء .

وهو أسلوب لايرضاه القاص لبيئتنا ، لأن بيئتنا لايرضيها الفن المكشوف . لابد له إذاً أن يحاور ليداور ... لابد له أن يصانع ... والفن لايعرف المداراة وهو إذا غشيته المصانعة هبط من أوجه العالي .

لقد مرت بنا عهود كان جميل بثينة يكشف القناع عن علاقته ببثينة .. كان يسميها وينسبها إلى قومها ، ويقص علينا من حوادث غرامها الشيء الكثير الذي لا ترضاه اليوم بيئتنا سيما إذا نحن سميناها وأهلها ... وكان كثيّر يناجي عزّة بعد أن يسميها ويسمي قومها ... يناجيها بالكثير على غرار ما كان يفعل جميل ، وعلى غرار ما فعل قيس بن الملوح أو فعلت قصته – إذا صحت شكوك المرتابين في حقيقته – .

وفعل فعلتهم ابن أبي ربيعة وعشرات من أمثاله عاشوا في بيئات ربما كانت تستنكر ولكنها فيما يبدو لاتلبث أن ترضى فتضحك ، وأن تطرب بدليل أنها عنيت بأشعارهم وحفظتها وغنت بها وأسلمتها مسجلة الى عشرات الأجيال بعدها

قل : حمدك اللهم أن هديتنا لنعيش في بيئة محافظة لاترضينا مباذل الكلمات فيما نذيع أو نكتب .

وبعد : أتسألني لم لانميل بالقصة عن الترهات المكشوفة في سياق المرأة الى شتى مناحي الحياة لنفرغ الفن صافياً لاتشوبه صناعة أو مداراة ؟ .

هو ذاك ياصاحبي ، على أن لاتنسى أنّ القصة في أوجه فنها كما رأيتها لاتداري في سياق المرأة ، ستجدها في أكثر فنون الحياة لاتقبل المداراة ، فهي تفلسف الحياة على أي نحو يختاره القاص دون أن يتقيد بتقاليد البيئة دينية كانت أو أدبية

وبعد : فما موقف كاتبنا من – روايتنا – التي نُقدم اليوم لها ... لقد كانت الرواية حافلة بحديث المرأة في أكثر مجرياتها ، ولكنه الحديث الذي لا يخدش سمع المحافظين .

وحتى عندما انساق الحديث الى حب خالد بنت الجيران كان حباً مهذباً صانعَ الكاتب فيه الى قدر حاول ألا يزعج فيه تقاليد البيئة .

وعندما عنّ له أن يكتب اليها يبثها لواعجه ، كان أسلوبه ينتقي الألفاظ التي ترضي البيئة أكثر مما ترضي الفن في أوجه الداعر .

ونادية .. نادية زوجة الأب التي ظلموها بزواج رجل ناهز عمر أبيها فمالت بكل عواطفها الى ابنه الشاب . ما استطاعت القصة فيها أن تكشف كل مخبآت القلب ، فتلك مباذل لاتليق بقلم نشأ بين المحافظين .

ولكنه قلم استطاع تصوير الحياة التي عاشت فيها الرواية في جيل مضى بأروع مايصورها قلم أمين .

ففي حركة ركب المسافرين الى المدينة ترى قهوة الشهداء مزدحمة بالمسافرين – « كانت الأصوات عالية ، ونهيق الحمير يدوي في سماء الشهداء ، وكان صوت (الكُشَحْ) والقلائد يصدح في موسيقى عذبة .. وكان منظر « البرادع » وهي مزينة بالألوان المختلفة جميلاً أخاذاً كما كان مرأى الحمير وقد صُبغت بالحنّاء وقُصّ شعرها يبدو بديعاً . »

ويقول عن أسلوب الرحلة : – « لكل حارة من حواري مكة ركب ، وفي كل ركب أكثر من عزبة ، ولكل عزبة مقدم ، ثم تنضوي جميع العزب تحت لواء شيخ واحد يرأس الركب ويقرر خطواته وتحركاته . وتتبارى كل حارة في إظهار ما عندها من ألعاب مسلية كما تتناوب الحراسة والخدمة . ويخضع الجميع لروح

التعاون والمحبة والوئام ، فاذا ما داهم أحد أفراد الركب مرض أقعده فان الركب لايتخلى عن مساعدته . »

وبهبوطهم الى الوادي في أول مرحلة من رحلتهم وقد سجا الليل تسمع منشدهم :

سائق الأظعان يطوي البيد طيْ
منعماً عرّج على كثبان طيْ
وبذات الشح أنّى قد مررت
بعريب من عريب الجذع حي
قلت خذ روحي ، فقال الروح لي
وهـات من عندك شيْ
أنـا والله محب لكم
صدقوني ليس بعد الله شيْ

وفي عرضه القَيْس في أيام منى وقد خلت مكة من سكانها وحجاجها تتابع الرواية تمثيلية القيس بأمانة وصدق .. وهي تمثيلية يقوم بأدوارها نساء مكة مغتنمين فرصة خلوها من الرجال فتتنكر إحداهن في ثياب عمدة الحارة ، وأخرى في ثياب أحد أشرافها ، وثالثة في ثياب ضابط يحفظ الأمن ، تتبعه أخريات في ثياب عسكرية يأتمرن بأمره .. عندها يحتدم اللعب ويحلو الرقص وتسمع المنشدات يتغنين :

يا قيسنا يا قيسنا — هيا معانا بيتنا

وترد عليهم جوقة أخرى :

والليلة والله مانروح والليلة عند أبو صلوح
والليلة عند أبو علي والليلة .. ندبح الطلي

الى آخر مايهزجن . . . بينما ترى مجموعات تتوزع الملعب تتجاوب بأصواتها

أهازيج المنشدات ، وترى شيخ الحارة بصوته الأجش يقطع بانشاده أصوات المتمادين في ساحة الملعب بصورة مضحكة .

وتسجل الرواية تقاليد بيوتنا القديمة في الزواج وأحياء الفرح ببشكة (الصهبا ، والأدوار اليماني ، والموال الحجازي ، والسيكا ، والبنجكا) ... ثم تعرج على حفلات النساء في ليالي (الملِكَة ، والغُمْرة وزفة الخروط ، والدُخْلة ، والصُبْحة) ... وتسمعهن على دقات الطبول ينشدن :

ويلا ، عروستي ياجوهرة يامتحيصة
ويلا ، يحلف أبوها بالفين ماهي رخيصة

ويلا عروستي ياشمعدان فوق دَكّه
ويلانورك يكشح على أهل المدينة ومكة

ويلا عريسنا ويش ادعيت في صلاتك
ويلا جاتك عروسة من الحور جاتك

والى جانب هذا تفلسف الرواية بعض مناحي الحياة ... وتلاحظ أو تنتقد في براعة بعض تقاليدنا ...

ففي فلسفتها جانب من جوانب الحياة تقول . « نحن نتصارع في هذه الحياة ونتطاحن . . . يقاتل بعضنا بعضا في سبيل مانجمع لمتع الحياة . . . تنتفخ أوداجنا ونمشي مختالين بما كنزنا ... حتى إذا فاجأنا هادم اللذات هزأ منا الذي ادخرنا ... وعند ذاك يكفينا مما جمعنا ثوب من نسيج وقطعة من قطن وتركنا أولادنا بعدنا ينعمون بما كنزنا . . »

كما تفلسف الرواية شأنا من شئون الحياة عندما تقول :

« نحن وحدنا المسؤولون عن سعادتنا . . . فالسعادة ليست نجماً بعيداً يتلألأ في السماء نراه بأعيننا ولانلمسه بأيدينا . . إنها في داخلنا . . في قرارة أنفسنا . . . نستطيع أن نوجدها متى شئنا وكيفما أردنا . . ولكن لماذا يمتلىء هذا الكون بالسعداء ويزخر بالتعساء ، لماذا يستمتع أولئك بأيامهم وحياتهم بينما يقاسي هؤلاء صنوف الشقاء ولا يجدون للسعادة منفذاً . . . ألأنهم ضلوا الطريق وتاهوا في دروب الحياة المتعرجة ؟! أم لأنهم لم يستطيعوا اكتشاف أنفسهم ومعرفة مايريدون . . . ؟؟ »

وتمضي الرواية على هـذا النحو تفلسف بعض ما يصادفهـا من مقدرات الحياة وتسجل مايمر بسياقها من مظاهر كانت تعيش فيها أجيال باتت في ذمة التاريخ تسجيلاً أميناً بارعاً .

لا أريد أن أستأثر بسرد جميع ما جاء في روايتنا هذه أو أشير الى كل ما تهدف . . .

حسبي أن أترك القارىء يمضي إلى طيته بين صفحاتها ليرى أن كاتبنا قد شرع يضع لبنته فيما نبنيه لفنون القصص والروايات .

أحمد السباعي

مكة المكرمة

- ١ -

« شعب على »

هنا ولد رسول الهدى ، وفي هذا الوادي نشأ وترعرع . . ، . . وتحت سماء أظلت نفرا من المسلمين ، وفوق ارض احتضنتهم عندما ضيق المشركون الخناق على الفئة المؤمنة وشددوا عليهم الحصار . . ومن بين جبال ذلك السهل المتعرج علت صيحات نسوية مدوية جلجلت في سماء مكة ، وأظلت وجوه علتها سحابة من كآبة وطغت عليها موجات من حزن . . . . . مالبثت ان انخرطت في بكاء حاد عندما أخذت « الجنازة » طريقهـــا الى « الحرم الشريف » وتخاطفت الايدي « النعش » المسجى باللون الأخضر وفوقه توسط « قفص » صنع من جريد النخيل اشارة الى ان الميت انثى . . . وبعد الصلاة على الميتة سارعت الخطى تشق طريقها خروجاً من باب بني شيبة امـــام الكعبة المشرفة الى باب السلام الكبير مخترقة « المسعى والجودرية فالحريق » الى ان وصل الموكب الى « جنة المعلا . . . كان يمشي وراءه صف طويل في المؤخرة يحملون قلوباً عصفت بها الآلام ويرتدون مشالح « مقلوبة » . . فهؤلاء هم اقارب الفقيدة وذووها . . .

وهناك في « حوطة النور » وقف (القبورجي) بهامته الطويلة وجسمه العريض مرتدياً ثوبه الذي اكتسى بلون التراب متمنطقاً بحزام عريض منسوج من الصوف واخذ يردد بصوت أجش « . . . وحّدوه . . . لا اله الا الله . . . لايدوم الا

وجهه الكريم . . » وشق جموع الحاضرين صوت غليظ صائحاً : « ايش تشهدوا على المرحومة . . . » فيتلقى الاجابة من الواقفين : « من أهل الخير والصلاح . . إن شاء الله . . » وما هي إلا لحظات حتى تنقل الجثة برفق يتلقاها اثنان من أقاربها وهما داخل القبر يمسكان الرأس بكلتا يديهما ورجلاها لازالتا معلقتين في الهواء ممسكة بها الأيدي خارج القبر الى أن تستقر في مثواها الأخير . . ثم يقوم (القبورجي) بباقي المهمات فيضع « الطبقان » من الحجارة الكبيرة على حافتي القبر وينثر عليها بعضاً من الحشيش الأخضر والأزهار العشبية ، ثم يغطي تلك الطبقة بتراب رطب ويرش عليه قليلاً من الماء ، ثم يهيل عليه التراب . . . وبعد انتهاء مراسم الدفن وقراءة القرآن على القبر . وقف رهط من أهل الميتة وأقاربها عند باب القبور في « صف العزاء » يتلقون تعازي الحاضرين ومواساتهم . . .

وصكت مسامع الشيخ أحمد ياسين وهو في ذهول وشرود أصوات متداخلة :

-- رحم الله الفقيدة .. وأسكنها فسيح جناته .

— عظم الله أجرك .. وألهمك الصواب .

— البقية في حياتك .. ولا أراك الله مكروهاً بعدها .

كلمات رنانة ترددها أفواه — الله وحده يعلم مصدرها وفحواها — ، إن كانت تدل على شعور نبيل وعزاء صادق ، أو هي كلمات تقال بدافع من متابعة الكلام وحب الظهور ، أو المشاركة في تقديم التعازي ليس إلا ؟؟ !!!

لم يك قادراً على تمييز الأشياء ، ولم تساعده حالته النفسية أن يتفرس في الوجوه — كعادته — لسبر غورها . . بل كان في درجة من الذهول أفقدته القدرة حتى على الجواب وتقديم الشكر الى المعزين ، واكتفى بهمهمات بسيطة لم يفهمها ولم يسمعها أو يلحظها أحد ، فقد كان وقع المصاب عليه قاسياً . . أكبر مما يتحمله قلبه الطيب ،

وفؤاده الرقيق . . . كان فقدان زوجته صدمة عنيفة أزاغت بصره وشلت تفكيره . . لم يعد يسمع إلا همساً ، ولم ير في الوجوه إلا أعيناً تحدق فيه دون معنى .

وأخذت عيناه تبحث في خضم البشر عن ولديه الصغيرين .. حتى إذا ما استقرتا عليهما رق لهما قلبه وحبس في مقلتيه دمعة أبت إلا أن تترقرق في محجريها إشفاقاً على هذين الطفلين اللذين ودعا أمهما وهما لا يدركان أن هذا الوداع سيكون وداعاً أبدياً لا عودة بعده ، وشعر بقلبه يضغط على جنبيه من شدة الألم ، وحاول جاهداً أن يقف بين الرجال كالطود حتى لا يبدو على مظاهره الضعف وهو الذي اشتهر بينهم بالقوة والصلابة . . وتمالك نفسه حتى إذا انتهت المراسم ، قفل راجعاً إلى البيت تحيط به الصفوة القليلة من الأصحاب . . وقد تعلق في كل يد ولداه .. خالد وسعد .

* * *

— ٢ —

تقبل الدنيا . . فتجد كل شيء يبتسم لك .

وعندما تدبر .. ترى الوجود عابساً قاتماً . . حتى الأفكار .. تجد في تسلسلها وتنظيمها عنتاً وصعوبة ، ولكم كانت الأفكار تتراقص أمام ناظري أحمد ياسين نشوى وطرباً وكأنما تشهد الكون على ذكائه وعبقريته . . تخضع له وتلين دون معاناة أو إجهاد .

ولقد مرت ساعات طويلة من الليلة الأولى التي تفارقه فيها زوجته وهو يحاول أن يسكن وحدته ، وأن يوقف ضجيج أفكاره المبعثرة في رأسه ، وأن يرتاح من

ضيقه .. ولكن كل شيء أمامه يزيده عذاباً ويمزقه ألماً ... «هنا .. وفي هذا البيت عاشت .. وفي هذا الركن كانت تفضل الجلوس ساهمة حالمة كأنما تتوسل الى الأيام أن تحنو عليها، أو تستعطف القدر أن يكون رفيقاً بولدها ... في هذه الغرفة التي شهدت مولد عاطفة وتدفق شعور كانت هدى تقضي ساعات عمرها القليلة تتزين، وتتهادى بحسنها ورقتها انتظاراً لقدوم زوجها ولكأنما كانت تقطف ثمار النضج قبل قدوم الخريف أو تزرع البذور قبل سقوط المطر».

وعندما اختلى بنفسه بعد أن ودع الحاضرين، طاف بذهنه شريط الماضي — لاليس الماضي — فلم تمض على خروجها من بيته سوى سويعات ... ولكنها بمقياس العمر أمدٌ طويلٌ ... وبمفهوم الحيـــاة تحولٌ من السعادة الى الألم، وانتقالٌ من المشاركة الى الوحــــدة ... وبميزان العائلة من العطاء والجود الى الجفاف والحرمان.

هاهو وحيد إلا من هواجسه،

ضائع إلا من مخاوفه،

تائه إلا من وساوسه،

وكان صراخاً عالياً يدوي في أذنيه .. ماتت،

وكان هناك سؤال صعب يضغط على مسامعه : كيف ماتت ؟؟

فصورتها لاتزال في مخيلته واضحة وان غابت عن الرؤيا ... وهي ممثلة أمام ناظريه دائماً أبداً :

كزهرة الصباح اليانعة المتفتحة.

كالبلبل الصادح يغرد على الغصون.

كالجدول يترقرق في عذوبة وطهر.

كاللحن الجميل ينساب هدوءاً وطمأنينة ...

والآن ... ثوى رفاتها التراب ، وفارقته الى بارئها دون رجعة .. اختطفهـــا منه قاهر اللذات ، ومفرق الجماعات ، الموت .. الموت القاسي الذي لا يمهل .. انه القدر النافذ ، والقضاء الواقع .. فلم يكن عمرها الوردي وهي في الثانية والثلاثين شفيعاً لها ، ولم تقف صحتها القوية وبنيتها المتينة حائلاً دون وقوعه ، ولم تكن طيبتها وحنانها وعنايتها بأطفالها .. لم يكن كل ذلك كافياً كي يبقي عليها رحمة بها وبولديها البريئين ..

ولم يستطع أن يبعد عن مخيلته نظراتها الأخيرة وهي على فراش الموت تلفظ أنفاسها النهائية .. كانت نظرات فيها توسل واستعطاف ورن صوتها في أذنيه ضعيفاً كشبح يمر في الظلام وهي تناديه باسمه وترجوه أن يذكرها دوماً بالخير وأن يسامحها وان ...

ولم يتمالك نفسه من البكاء ... وانفجرت الدموع من عينيه حارة متدفقة بعد أن استطاع حبسها طيلة النهار .. وسارع الى غرفة ولديه .. ينكفىء عليهما ويربت بحنان الأب و .. رقة الأمومة على خديهما وصوت هدي لايزال يتوسل اليه أن يكون بهما رحيماً عطوفاً ، فهما – كما قالت له – أمانة في عنقه ، تتركهما له لتنام نومتها الأبدية مرتاحة قريرة العين والفؤاد .. ولم تك تدري أن الحمل سيكون ثقيلاً ، وأن العبء سيكون أثقل .. لقدتركتهما أمانة عنده .. ولكن .. لمن تركته هو ؟؟ للدموع ؟؟ أم للقلق ؟؟ أم لكليهما معاً ؟؟!! ما أسهل أن تفارق الأحبة .. ولكن .. ماأصعب ذلك الفراق وآلمه .... « رباه .. كيف ستكون حياتنا بعدها ؟؟ ومن لي بصبر يقويني ، وعزاء يسليني ؟؟ » .

ورفع كفيه الى السماء ، وأغمض عينيه وأخذ يدعو :

« اللهم لامانع لما قضيت ، ولا معطي لما منعت . . فكن لي عوناً ومعيناً هب لى من لدنك نصيراً . . »

* * *

– ٣ –

كان أحمد ياسين رجلاً في الخامسة والثلاثين من عمره – تقريباً – قوي البنية مكتمل الرجولة ، نشأ وترعرع في عائلة محافظة معروفة ، نال حظاً قليلاً من التعليم إلا أن التجارب والسنين التي خاضتها عائلته (وهو بعد ذلك) كانت خير معين له على تفهم الحياة وتمرسه في خضمها ، وكان يتمتع بفضائل سمحة ونفس أبيّة ، تقياً ورعاً ؛ يحفظ القرآن ، كما يحفظ كثيراً من درر الشعر العربي . . . لذا فلم يكن بالرجل الذي يجزع من قضاء الله وقدره . . ولقد تقبل تلك الصدمة بإيمان القوي . . وإرادة المؤمن التي لا تعرف الضعف أو الهوان أمام مشيئة الله عز وجل . . . وكان يردد بينه وبين نفسه :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لاتنفع

وعندما كان يدلف الى بيت الله الحرام يجد راحة نفسية ، ويحس بطمأنينة زائدة فيقرأ ماتيسر له من آيات كريمة كثيراً ماخففت عنه عناء التفكير . . . إلا أنه لم يستطع أن ينسى واقعه . . . أو أن يتوقف عن التفكير في مستقبل هذين الطفلين . . وفي مصيره هو بوصفه رجلاً في عنفوان رجولته ،

وعندما أحس بالتعب والارهاق يزدادان عليه . . أوى الى فراشه علـّه ينال قسطاً من الراحة والنوم .

وامتدت يده بحركة لاإرادية الى حيث كانت زوجته تنام الى جواره ، فهوت يده في فراغ سحيق ، وقفزت الى مخيلته صورة هدى . .

هدى . . . الزوجة الطيبة الأمينة ، وأعادته ذكرياتها الى الماضي . . الماضي البعيد . . فمنذ عشر سنوات اقترن بها ، وكانت في ربيعها الثاني والعشرين فتاة تقطر عذوبة ورقة . . متفتحة كالزهرة ، ناضجة الفكر ، راجحة العقل ، عفة اللسان ، سمحة الوجه ، ذات عينين نجلاوين ومقلتين عسليتين تبدو لغزارة أهدابها مكحلتين . . . وكانت فوق هذا جميلة ، أنيقة ، جذابة ، عرفت بخفة الروح والدعابة اللطيفة والنادرة الحلوة . .

ترى ؟؟؟ ! !

كيف يستطيع نسيانها ؟ . . لا بل كيف يجرؤ على ذكر النسيان ؟ ألم تشاركه حقبة من عمره ؟؟ ألم تك ملتقى آماله ومستودع أسراره ؟ ! ! ساعدته في صدر شبابه بصبرها على المعيشة الضنك ، وآزرته برجاحة عقلها على تخطي صعوبات الحياة المرة ، ووقفت معه تبني مستقبله ومستقبل الأسرة بكاملها . . . لم تجأر بالشكوى يوماً ، ولم تتذمر من نزواته إبّان كان يشده طيش الشباب ويجذبه تيار الهوى . . . صبرت وتحلت بالايمان . . ثقة في نفسها ، وقوة في شخصيتها ، وآمنت أنه سيثوب الى رشده يوماً ، وسيعود الى صوابه كي يتفرغ لها ولبيته . . فلم يخب ظنها ، ولم يطل صبرها ، فكان الرجل المخلص المثابر الطموح . . . وماهي إلا سنوات قليلة حتى استطاع أن يكوّن لنفسه تجارة درت عليه الربح الكثير ، وحتى استقام أمره وعلا مركزه ، وصار معدوداً بين الرجال القلائل الذين يعدون للمهمات . . وازدادت هي ثقة وأملاً

وطموحاً .. تقوم بواجباته وتلبي كل رغباته .. وكثيراً ما كانت تقضي كل أوقاتها في تزيين دارتها وتجميلها حتى غدت آية في الروعة والجمال .. وكانت منظمة .. دقيقة في مواعيدها .. حريصة على إنجاز كل شيء بميزان ومعيار ... رحيمة بالصغار، كريمة متسامحة مع الكبار، تصل الرحم، وتتذكر الأقارب بالخير دوماً ... وكان لها ولع بالغناء والطرب . فكانت كلما وجدت فرصة مناسبة أخذت زينتها وتهيأت لذلك، وأعدت لزوجها مكاناً مريحاً يعلو صوتها الرخيم « بالدانة » والفرعى، والمجرور « ممسكة » بالرق والمصقع » ضاربة عليها بايقاعات منتظمة ...

هكذا كانت هدى الزوجة المخلصة الودود ... الزوجة التي افتقدها أحمد ياسين وافتقدها كل من عرفها، وبكاها .. وتبكيها كل عين رأتها .. « فالى رحمة الله تذهبين، وفي فسيح جناته تسكنين .. »

* * *

— ٤ —

تنازعت أحمد ياسين أفكار شتى وهو يرى أمه المتقدمة في السن ترعى شئون ولديه وتقوم على تأمين ما يحتاجان إليه من خدمة ورعاية مع ما في ذلك من اجهاد عليها ونفور بدأ مستتراً وظهر جلياً بمرور الأيام ... فبالرغم من حبها له مما دفعها الى القيام بدور الأم فهي لم تستطع أن تنسى أنها لم تكنّ لزوجته وداً في يوم من الأيام بعد أن استأثرت به وأنسته « الدنيا ومن فيها .. » على حد زعمها .. وهي لم تخف شعورها ذلك بل كانت تصرح به لولدها معلنة أن طريقة هذه المرأة في حياتها الخاصة، وفي

تربية الأطفال لاتروق لها ... » وأنها تدللهم كثيراً ، والتدليل يعقبه مساوىء ...» .

وحقاً .. فقد تطبّع الولدان على نوع معين من التربيـة وطريقة خاصة في التنشئة في كنف أمهما .. كانت تعاملهما كما لو كانا عصفورين بللتهما قطرات من مطر واحتاجا الى تدفئة تحت جناحي أمهما ... لم يعرفا سوى اللين في المعاملة ، والدقة في التخاطب .. لم ينهرهما صوت ، ولم يفزعهما غضب ، ولم تخوفهما المخاوف التي كان الأولون يلجأون اليها أمثال (البُعبُع ، والغول ، والدُّجّيرَة ، وأبو شلاضم ..) وما الى ذلك . كان كل شيء حولهما يوحي بالطمأنينة والسعادة المتناهية تعودا على الابتسام والدعة ، ونشآ في ظل من المحبة والتسامح ، وكانت أمهما تربي في نفسيهما الحب .. حب بعضهما ، وحب أبويهما ، وحب الناس أجمعين ..

وكانت تتباسط معهما ، وتلاعبهما ، وكثيراً ما افترشت معهما الأرض تغني لهما الأنشودة التي يعرفها كل طفل وأكفهم مبسوطة على الأرض

« حدارْجَة مَدارْجَة
يا كل عين سارجَة
يا فاطمة يابنت النّبي
خذي كتابك وانزلي
على شجرة النبي
فيها شُطَـبْ فيها رطب
يا رايحين الحضرة
خذوا معاكم بقرة
تحلب وتسقيني
صيني على صيني
والرب يعطيني

دخلت بيت الله
لقيت عم عبد الله
بيلقّم السكر
بيلقّم العنبر
ياليتني دقته
حتى النبي زرته
يا علي يا مغربي
شوف بناتك الملاح
يلعبو لك في القلايد والتفاح »

فكانا يطربان لها أيما طرب ، ويطلبان المزيد منها .

وكانت الجدة من ذلك الطراز من النساء اللائي تعودن على التربية القديمة التي لا تعرف الرحمة للطفل ، ولا تعطي له من مباهج الحياة ورقتها الا ما يضمن كف أذاه عنها . . كانت صارمة بطبعها عنيفة في مظهرها جافة الأخلاق ، خشنة النظرات . . سليطة اليد . . زلقة اللسان ، إن هي ابتسمت فللسخرية ، وان جاد عليها الزمن بضحكة صدر عنها صوت كفحيح الأفاعي ، أما اذا أرادت تدليل طفل — وهذا مالا يحدث إلا لأمر يستدعي الريبة — فانها تغني له الأغنية الوحيدة التي سمعت تتغنى بها .

يا الله ترقد يا الله تنام
واذبح لك جوزين حمام

فعسى أن « ينكفى وينام » وترتاح من عنائه .

كان أحمد ياسين يرى ذلك السلوك ينعكس على طفليه فيتألم لهما ، ويحاول أن يسبغ على ولديه الحنان الذي تعوداه منه ومن أمهما ولكن يخترق أذنيه صوت أمه

ينهره بشدة ويحجب عنه تدليلها حتى لايفسدا في النهاية ، فيضيق صدره وتتقبض نفسه وتسود الدنيا أمام ناظريه .. إلا أنه سرعان مايجد لها العذر ، فهي لاتستطيع أن تغير من طبعها شيئاً ، وهو أيضاً يعجز عن إقناعها بذلك ، ومن أين ؟ و كيف يتسنى له ذلك وهو لايقدر على مناقشتها أو جدالها فيفقد بذلك رضاها الذي يقوده الى الجنة ... أو يثير حنقها فتصاب بنوبة قد تقضي على قلبها الضعيف الذي تشكو من نوباته المتقطعة ..

ولم يجد أحمد ياسين وسيلة في تخفيف حدة عذابه وألمه من الحالة التي يراها أمام عينيه الا أن ينهمك في أعماله التجارية وأن يشغل نفسه بالتوسع فيها تاركا للقدر أن يتصرف بولديه بعد أن بلغ حداً من اليأس في مساعدتها ، وهو يؤمن بأن دور الأب في تنشئة الاطفال في سن ولديه سلبي بالنسبة لدور الأم أو من يقوم مقامها ...

وكان الله به رحيما .. فنمت تجارته وأصبح لايملك من الوقت مايسمح له بمرافقة ولديه .. تاركا لأمه الحرية في المعاملة ونوع التربية التي فطرت عليها .. ونشأ هو وآباؤه وأجداده عليها.

* * *

- ٥ -

كانت أعمال أحمد ياسين تضطره الى السفر خارج مكة سعياً وراء صفقة تجارية ، أو مراجعة حساباته مع عملائه .. ولكنه لايلبث أن يعود بلهفة المتشوق الى ولديه رغم معرفته أنهما تحت رعاية أمه التي يكن لها احتراماً كبيراً ، ويعترف لها بالفضل والجميل .. وكان يعود محملا بالهدايا واللعب لهما مما دفع ابنه الأكبر أن يقول له يوماً بعد أن طالت مدة بقائه معهم فترة :

— متى تسافر يا بابا ... أبغا « سمسمية » كبيرة أعزف عليها ...

كان خالد قد انتهى من عامه السادس الا أن شغفه بالموسيقى جعل منه طفلاً نابغاً ، وكان يقضي أوقاته يلهو بآلاته الموسيقية والايقاعية التي تمتلىء بها غرفته — .. كما أنه كان مولعاً بالصور الجميلة ، فلم يترك مساحة في الجدار إلا وتعلقت فيها صورة يكون قد اختارها لمنظر طبيعي أو حيوان أليف . وقد لقي من تشجيع والده على تنمية مواهبه وتوسعة إدراكه الشيء الكثير ...

وعندما وعده أبوه باحضار «السمسمية» .. التفت الى أخيه سعد يسأله عما يريد .. هز كتفيه ولم يجب ... كان هذا — على نقيض أخيه — لاتبدو عليه أية ميول فنية رغم أن الفارق بينهما لايتجاوز عاماً واحداً وكان أقرب في طبعه الجاف الى جدته .. إذ كان هو مقرباً اليها بعد أن لاحظت الشبه الكبير في صورة خالد ووالدته .

لم يكن سعد بالطفل الهيّن اللين ، ولم يشبه أخاه في هدوئه ورقته ، بل كان يلذ له أن يؤذيه ويعمل على مشاكسته وتخريب جميع ممايملكه .. وكان هذا يشتكي إلى جدته فلا يجد منها سوى الزجر والمعاملة القاسية حتى غـدا لايحفل بها ويلجأ الى أبيه الذي يطيب خاطره ويشتري له بديلاً عنها ... وكان يصحبه معه الى المتجر ، كما كان يأخذه الى الحرم ليصلي ويطوف بالكعبة .. وكان خالد يفرح لذلك ... أما سعد .. فقد ذهب مرة واكتفى بذلك ثم غدا يتهرب من أبيه عندما يهم بأخذه معه .. وكان دائم اللعب في البيت عندما كان صغيراً ، كثير التغيب في « الزقاق » عندما غدا فتى يانعاً يميل الى مضايقة من حوله من الصغار وأولاد الجيران ، وحتى الكبار لم ينجوا من أذاه .. والمتعة التي كان يسعى اليها كل يوم هي أن يجتمع بأطفال الحارة ومن هم في سنّه كل عصر تحت « روشان » البيت ، وهناك يقف بينهم بقامته الطويلة وجسمه الفارع يفكرون في لعبة اليوم .. أو معاكسة « السقايين » الذين يحملون

الماء في « الزفة » المصنوعة من الصفيح أو « القربة » المدبوغة من جلد الماعز ..
وكثيراً ما كانوا يهجمون على بياع « الضّره والحـَبَش » أو يتبارون في أكل البليلة بالليمون والطرشي . . . كان سعد هو الذي يتقدم الدّشكة في جميع الألعاب ، وإذا بدا لأحد من الاولاد أن يلعب لعبة « الكـُبُوش » مثلا فانه سرعان ما يعارض بشدة ويصيح «ويُهَو ّش» بالضرب ويقرر لعبة « البَارَاجُوه » أو « شَرعَت دِنْدِنْ » أو « الزعْغزُوغيه » وكانت لعبة « على أول يَقَت » ـ بالكرة الشراب تستهويه اذ كان بارعاً فيها . . وكان طبيعياً عندما يقررون لعبة (الكَبَت أو لعبة حرامي عَسّه) ـ وهي من الالعاب التي تتطلب فريقين متقابلين ـ أن يأخذ دور رئيس الفريق على أن يعين هو رئيس الفريق المقابل ثم تجري عملية القرعة وذلك بأن تنقسم المجموعة الى قسمين متساويين عددا ثم يتفق كل اثنين فيما بينهما سراً على أن يأخذ كل واحد منهما مسمى معيناً وغالباً ماتكون الأسماء لحيوانات أو فواكه او أسماء مدن او ألوان ، ثم يتقدمان الى الرئيسين اللذين يأخذان مكانا بعيدا عن المجموعات ويتكلم أحدهما مخاطباً سعد : هل تريد الاسد أو الذئب ؟ ؟ فيرد هذا في تعال : أريد الاسد ، فينضم الولد الاسد ، الى فريق سعد بينما ينضم الذئب الى الفريق الثاني وهكذا . . . ثم يبدأ كل فريق في نزال الفريق الآخر ، الى ان تنتهي اللعبة .

* * *

ـ ٦ ـ

سارت الأمور بالشيخ أحمد سيراً طبيعياً ، فتوسعت أعماله ، وربحت تجارته وتعود على الحياة التي يحياها هو وولداه مع أمه ـ والخدم من حولهم ـ بعد أن وفـّر لاسرته متطلبات الحياة السعيدة . .

وعلت محياه ابتسامة الرضى والامل عندما عاد ابنه خالد من المدرسة يبشره بنجاحه من الصف الاول الى الثاني . . .

وتيقظت مشاعره برؤية سعد يحمل حقيبته التي امتلأت كتباً وأقلاماً يجرجر قدميه في طريقه الى المدرسة

ورق لهما قلبه . . وطافت بمخيلته صورة زوجته هدى . . « ترى لو أنها رأتهما الآن كيف سيكون شعورها ؟ ؟ . . » وأي فرحة في العالم ستكون أوسع وأبهى من فرحتها ؟ ؟ ؟ الا . . كم هي قاسية تلك الحياة ؟ وكم هو ضعيف هذا البشر . . . الحياة . . . الموت . . . الفناء . . . والجنة . . . والنار . . . نحن نسير في درب لاندري إلى أين يقودنا ولا ندرك غايته او منتهاه . . وما تعبنا وسعينا وكدّنا وجرينا ولهاثنا في هذه الدنيا الا سراب زائل ووهم خادع ، نجمع الثروات ونتصارع عليها ونتطاحن من أجلها ، بل ويقاتل بعضنا بعضاً . ثم نكدسها في ظلمات ، وتنتفخ اوداجنا وتمتلىء زهواً ونمشي خيلاءً . . ثم . . . ثم يفاجئنا الموت ، ونودع الحياة فتهزأ منا تلك الكنوز التي أفنينا العمر في جمعها ونكتفي بقطعة نسيج بيضاء وقطنة صغيرة ، وننتهي الى رقعة ضيقة من هذا العالم الواسع .. وينعم بعدنا أولادنا ـ ومن يجيء بعدهم ـ بما خلفناه وراءنا . والسعيد فينا من يُذْكَر بشكر أو تُحمَد له عقباه. وهذه هي سنة الله : « ولن تجد لسنة الله تحويلا » .

وأخذ يد أمه يقبلها في أدب جم واحترام بالغ . . ورفع عينا ملئت بالدمع اعترافاً منه بفضلها عليه وعلى ولديه وصدرت منه كلمات رقيقة ترجمت عما في قلبه من حب وهو يدعو الله سراً أن يشفيها من مرضها الذي تعاني منه . . .

« أماه . . أماه اني ادين لك بكل شيء . . . انت سبب وجودي في هذه الدنيا، لقد كنت لي عوناً ومعيناً في دنياي ، وهاذان طفلاي من بعدي كنت لهما خير أم ،

صدرك الحنون لايزال يسعني ويسعها ، قلبك الرحيم لايزال فيه مكان للشفقة علينا . من أنا وما قيمة وجودي وما هي سعادتي بدون لمسة حنان منك ؟ ؟ ثم ما قيمة مالي وثروتي بدون رضاك ؟ ؟ ان قلبي ليتمزق كلما فكرت في فقد الناس امهم ، وأعصابي تحترق عندما أرى يتيما يائساً اختطفت المنون امه فتركته وحيداً يصارع هذا الكون بذل وانكسار ويتطاحن مع البشر بخنوع واندحار . . لا . . ليس الأب وحده كافياً لسعادة الطفل وعزه . . انه يستطيع ان يكفل له حياة مرفهة وعيشاً هنياً . . اما الحنان . . اما الطمأنينة في الحياة . . والثقة في النفس . . والعزة والتباهي . . فلا تتوافر الا بوجود الأم . وشعر ببرودة شديدة تسري في يد امه ، فجفف دمعه وضبط نفسه . . وما لبث ان شعر بثقل يدها يهوي الى الارض . . ونظر في عينيها فاذا هي بيضاء ، ووجهها شاحب بارد ، وصعق . . وركع على ركبتيها يولول . « أمي . . أمي . . » كانت قد فارقت الحياة وانتقلت روحها الى بارئها . . وكأنها قد اطمأنت على الطفلين الصغيرين . فهما قد خطوا اولى خطوات الحيـــاة الطويلة الممتدة أمامهما . . وانهار احمد ياسين وخارت اعصابه ، وتيبست عروقه ، وتصلبت شرايينه ، وشعر بضيق يخنق انفاسه ، وشيء ما يجثم على صدره فسقط من فرط إعيائه ومقاومته الى جوارهـــا فاقد الوعي . . . وعندما افاق . . قام في تثاقل وانكسار يواسي أختيه اللتين صارتا تولولان بشدة . . ثم اخذ يستعد لمراسم الموت والدفن

* * *

- ٧ -

مرة أخرى تحيط بالشيخ أحمد ياسين موجة من الشك ، وتنتابه نوبة من وسوسة الأفكار . . وهو أن أخلص الايمان لربه وآمن بسرمديته ، واعترف بقدرته ووحدانيته . إلا أنه لم يستطع التغلب على هذه الأفكار السوداء التي أخذت تطوقه من كل جانب . . تؤرق مضجعه . . وتنغص عليه حياته ، فلا ليل ينام . . ولا نهار يهدأ . . .

لماذا تتصيده الأقدار وحده ؟ ؟ ! !

لماذا تحل به المصائب ؟ ؟ ! !

ألا يكفي ان يفقد الطفلان امها وهما في أشد الحاجة الى رعايتها وعطفها وحنانها ؟ ؟ ! !

ألم يكن موت زوجته وهي في ريعان شبابها وزهرة عمرها صدمة شديدة لقلبه الذي امتلأ حباً بها كادت أن تودي به . . لولا تمسكه بالايمان والقدر ، وتذرعه بالصبر والجلد ؟ ؟ ! !

كيف يستطيع ان يقوى على تربية ولديه ، وهما لايزالان في مرحلة يحتاجان فيها الى يد ناعمة وصدر حنون ؟ ؟ ! !

لقد كان الله به وبهما رحيما عندما هيأ لهم هذه الجدة التي تحاملت على نفسها وأسبغت عليهما قدر جهدها اعوضهما عن حنان الام وعطفها . . لماذا ينتزع الموت هذه الجدة الحنون ايضاً ليخلف من ورائه طفلين ضائعين ، وقلباً يسبح في ظلام حالك ، وعقلاً يتيه في بحر لجي من الافكار والوساوس . . .

وضاق احمد ياسين بالحياة ذرعا ، وبالبيت مكاناً . . وكثر تردده على الحرم ، وطال جلوسه بالبيت العتيق يشكو حزنه الى ربه العلي المتعالي ويبثه نجواه فلعله يرأف به ويرحم حاله ويهيء له من أمره رشدا . .

وحارت المربية التي أحضرها الأب لولديه في ارضائهما وباءت محاولاتها بالخيبة ، بعد ان يئست من التقرب لهما أو التودد اليهما . . فكان خالد يعرض عنها بكبرياء وترفع وأدب وخجل . . لايطلب منها معروفاً ولا يسألها حاجة ، يقوم برعاية شؤونه ويختلي بنفسه دائماً ، ويصرف جل وقته في المطالعة واستذكار دروسه ، ويتلهى بما بقي له من وقت في العزف على الموسيقى ، أو التلهي بالصور.

أما سعد . . فقد كان يملأ البيت صراخاً وزعيقا ، واذا لم تلب طلباته ينهال على تلك المرأة المسكينة ضرباً . . فتتقبله منه باسمة على أمل ان يرضى او يرتاح قليلا من جراء التعب والارهاق الذي يكابده في الشارع والبيت ، او لعله يهـــدأ نفساً فيتناول شيئاً من الطعام او الفاكهة . . فهو لايأكل بانتظام ، واذا اكل قام يلعن ويشتم هذا النوع من الاكل الرديء والذي طبخه والذي يأكل منه . . . وكان يشير الى قوة بنيته قائلا :

— ايش هادا الاكل اللي زي وشك . . . ما تشوفي هادا الجسم وهادي العضلات ايش ابغالها . . .

وكانت المسكينة تجيب في خوف وهلع :

— اذا كان هادا الأكل ماينابسك ، وان كانت طريقتي في الطبيخ ماتعجبك . . قل لي . . إيش تبغى . قل لي كيف أطبخ لك . . قل لي بالله عليك . . آمرني تلقاني تحت طوعك . .

وكان الوالد عندما يسمعها (صدفـة) تحاول إرضاء سعد يردد فيما بينه وبين

نفسه .. « يالها من امرأة طيبة ، وياله من ولد مشاغب » . كانت هذه المربية امرأة صالحة ، عاشت صدر حياتها مملوكة .. ثم أعتقت ، وبدأ المشوار أمامها طويلا ، فعركتها الحياة وصقلتها التجارب وذاقت مر العيش وانكساره ، فوهبت نفسها إلى الله وإلى خدمة هذين الولدين في مقابل « لقمة العيش والستر » .

وكانت تحترم سيدها ، وترى فيه الخير والصلاح . كما كانت تعطف عليه وتخاف على صحته وتحرص على راحته ، اذ كثيراً مارأته سارحاً في أفكاره وتأملاته في صمت ، يسهر الليل ، ويعزف عن الطعام .

قالت له مرة : —

والله .. ياسيدي .. أمرك محيرني .. الحمد لله ربنا أعطاك الصحة والعافية والعقل الكبير . واللي زيك مايهزّهُ الموت ولا تهزه مصائب الزمان لأنك ياسيدي رجل مؤمن بالله وبقضائه . . وكمان ربنا أعطاك ذرية صالحة ، ومالاً ،وجاهاً . . فليش ياسيدي ليش تنكد على نفسك ، وتعكر دمك ..

— يادارة .. ان المال يروح ويجيء .. والصحة وحدها لاتعطي سعادة،كما أن الجاه لايمنع القدر .. ولقد فقدت شريكة عمري ، وزهرة آمالي وآمنت بأن الله في ذلك حكمة ، وان حكمته لابد أن يكون من ورائها قصد ، واستسلمت لقضاء الله وقدره ، ثم اختار المولى أمي الى جواره .. وتركت وراءها فراغاً كبيراً لاأستطيع مهما حاولت أن أملأه ... انني قلق بشأن خالد وسعد ، لا .. انني قلق أكثر من ناحية سعد، ان خالداً يبدولي فيما أرى وترين ولداً قد هداه الله وألهمه الطريق السوي، فهو لايتخلف عن مدرسته ،ولايهمل واجباته ، مطيع ، خجول لايغيب عن البيت إلا باذن ، يزور أهله وعمتيه ، ويتردد دوماً على بيت الله الحرام ، وفوق هذا فهو مجتهد مجد ويستغل وقته فيما ينفعه .. أما سعد .. هذا الولد العاصي المهمل الذي يتمتع بقوة في الجسم ونقص في العقل . إنه لايعرف سوى زرع الشر وحصده ، في البيت

مشاكس وفي المدرسة معاكس ، وفي الشارع يتعارك مع الآخرين .. كسول في دراسته ولا يحب أهله ، ولا يحترم أحداً ...

– ياسيدي .. سعد ولد صغير جاهل ومدلل ، واذا مايدّلع على أبيه يدّلع على مين .. وهادي سن الدّلع .

– ولكن ياسارة .. الذي يخيفني ويقلقني ، أن الأفعال والأعمال التي يرتكبها والأشياء التي يقوم بها أكبر من سنه .. ألا ليته يحفظ دروسه بالقدر والسرعة التي يحفظ بها تلك الأغاني التي يلتقطها من الشارع ومن أفواه أولاد الحارة .

– هون عليك ياسيدي . وادعى له بالهداية والتوفيق عندما تطوف بالكعبة المشرفة ليلة الجمعة .. وقالت في استحياء بصوت غير مسموع ، « انك لاتهدي من أحببت . ولكن الله يهدي من يشاء » .

* * *

– ٨ –

يشتغل أهل مكة بالتجارة عموماً ، وتقتصر أسرها الأساسية على مهنة تطويف الحجاج الذين يفدون الى بيت الله الحرام ورعايتهم . وبعضهم يعمل في الأجهزة الوظيفية للدولة ، وقليل منهم يزاول بعض الحرف والصناعات اليدوية .. أما نوعية التجارة التي يتعاطونها فكانت موزعة بحسب مركز الأسرة الاجتماعي والمالي ، وكانت تجـارة الذهب والمجوهرات وتجـارة القماش من الرقي بحيث لايقوم بها إلا ذوو الدخل الميسور .

وفي « خان سويقة » اصطفت دكاكين القماش المنوعة والمختلفة على جانبي الطريق الضيق والمسقوف « بصندقة » من خشب ورصفت أرضه بالحجر .

هناك أمضى أحمد ياسين سحابة يومه في صمت وتأمل ، لايقطع حبل تفكيره الازبون يريد شراء قطعة قماش ، أو امرأة ترغب في انتقاء ثوب جديد لها أو لابنتها . وكعادة المحل ، فان قاصديه كثيرون نظراً لما يتمتع به صاحبه من أمانة ونزاهة ، وعفة وحياء اشتهر بها في بطاح مكة وبين أهلها سيما النساء منهم ، وصار اسمه يتردد على ألسنتهن دوماً خاصة وأنه يواكب أحدث الأنسجة المستوردة وأجودها ... ورغم أن أي امرأة من اللواتي يشترين ، أو يرغبن في الشراء أو يقضين أكثر الأوقات في الأسواق تستهلك من الكلام ما يكفي لنشرة أخبار كاملة فان صاحبنا لاينطق إلا بمقدار ، ولا يتكلم الا في العمل ...

وازداد تجهمه بعد موت أمه .. وصار حاجباه معقودين دوماً ، واقتصر في دكانه ، فصار لايحضر جلسات « الضَّحَوِيَّة » « لشرب الشاي المنعنع » مع جيرانه من أصحاب الدكاكين ، حتى افتقده الجميع ..

إلا أن صديقه الحميم العم محمود كان أول من لاحظ تغيره واعتزاله عن الباقين ، فقدر فيما بينه وبين نفسه أنها فترة انتقال لابد أن تمر على من فقد عزيزاً لديه ، ووجد أمامه ولدين صغيرين لا أم تؤنس وحدتهما أو قريبة ترعى شؤونهما ... وعندما طالت غيبة صديقه وازدادانطوائية وعزلة . وجد أن واجب الصداقة بينهما يقضي بأن يتدخل بالقدر الذي يراه ضرورياً ، كما أن من حقه بوصفه زميلاً في التجارة وجاراً في السوق أن يخفف عنه ثقل الأيام ...

كان أحمد ياسين يحترم العم محمود احتراماً زائداً عن الجميع وكثيراً ما استشاره في أمور تتعلق بالتجارة ، وعندما يغيب عن الدكان أو يسافر خارج البلدة يترك محله تحت إشرافه .. كان يثق فيه وفي أمانته وإخلاصه ..

وكان هـذا رجلاً صالحاً توارث العلم « أباً عن جد » محافظاً على تقاليد البيئة والأسرة ... فكانت لحيته البيضاء تستدير مع استدارة وجهه وتنتهي عند ذقنه بزيادة تسمح للكف أن يقبض عليها ، وكانت هذه عادته عندما ينهمك في فكرة عميقة ، وكان لباس الأسرة التقليدي لايفارقـه ، فالثوب والكوت الأبيض « الشاش » « والكوفية البلدي » الطويلة تستدير عليها « عمامة » بإحرام . « والسروال البفته » الطويل المشغولة نهايته بشغل « السبع الابر » أو « السبع مويات » .

لم يكن المجال يتسع للحديث في الدكان ، فاقترح العم محمود على صديقه ان يتفضل بزيارته في البيت – بعد صلاة المغرب للتحدث في أمر خاص .. ولم يجد هذا بدأ من الاجابة بعد ان شكر له دعوته ..

عندما أخذ احمد ياسين مجلسه وارتاحت نفسه قليلاً بادره العم محمود بالحديث في صوت رصين :

– ياأخي احمد ان حالك لم يعد يعجبني ، فلقد تغيرت ، وما عهدتك إلا رجلاً ، والمصائب لاتغير الرجال ، انني مافتئت أرقبك عن قرب منذ وفاة المرحومة ، وكل لحظة تمر اراها تعود بك الى الوراء سنينا . . . إن عزلتك عن النـاس وبعدك عنهم لايفيدانك في شيء والتفكير المستمر في الذين ماتوا لايعيدهم الى الحياة بل يزيد في تعذيبك ويكثر همومك ، فلا تحمل نفسك مالا تطيق .. انك تؤمن بالله وتؤمن بمـا يكتبه لك أو عليك فلماذا لاتواجه الواقع وتبرأ من جرحك ، وتهتم بعملك .. وليس الله بعاجز ان يعوضك خيراً ...

أطرق سمعه مليا ، وتركزت عيناه على الأرض ، ودارت برأسه افكار كثيرة ، وما لبث ان قال وفي صوته رنة ألم :

– ياعم محمود ... انا لم اسمح لأحد ان يفاتحني في هذا الأمر من قبل لأن مصابي كبير وعبئي أكبر ، والكلام في هذا الموضوع لايعدو استهلاكا ، والحديث

فية مضيعة للوقت ... اني لم اجزع من قضاء الله ولن أجزع بحوله تعالى ، فالموت حق واستعجاله افضل ... ولكن .. هأنذا أعيش وحدي مع ظنوني وأوهامي ، ولا اقول أفكاري . . لانه لم يعد لي بصيرة تفكر او عقل يدبر ... سنوات مرت علي بعد وفاة زوجتي ذقت فيها أشد مايعانيه رجل مكتمل الرجولة . . وكان في امكاني أن البي صرخة الجسد في نفسي وان اطفىء لهيب الشهوة . . ولكن حاشا لله ان ارتكب خطيئة ونحن في جوار بيته ونسكن افضل بقعة في الأرض . . ولم أشأ أن اكون انانيا افضل سعادتي على سعادة طفلي وأتركها يعيشان مع امرأة غريبة عنهما ربما تذيقهما المر وتذلهما .... ولقد آثرت ان ابقى معهما احاول مااستطعت ان اجنبهما الهوان وان اعوضهما عن الحرمان .. وآثرت ان تعيش معنا امي ترعاهما ، والآن .. ماتت أمي ... ولاح في الافق خيط ضياع لولدي ...

– لعلك يابني ترى فيّ شيخاً من « الدّقّة القديمة » يعيش بعقلية رجعية ، ولكن سأقول لك رأيي ... فانه يتوجب عليك ان تفكر في نفسك وان تعوض مافاتك ، وتجد لنفسك حلا ...

وسكت برهة . . ثم أكمل :

والحل هو أن تتزوج ! !

– أتزوج ؟ ؟ ! !

– نعم . . نعم لاتقل انك لست في حاجة الى زواج ، بل أنت احوج مايكون وولداك ايضاً يحتاجان إلى زوجتك ... ومن يدري فلعل الله يرزقك زوجة طيبة ، تخاف الله في نفسها ، وفيك ، وفي ولديك .

– لا . . لا ياعم محمود . . لا ليس هذا هو الحل ... فانا ماصبرت على امري وكبت رغباتي وذقت مرارة الحرمان ، الا لكي اضمن ان ولدَيّ لايتعذبان تحت سمعي وبصري . . .

– انت متخوف ، والخوف هنا لامحل له ، ولن يستقيم لك أمر مالم تحصن نفسك : وتريح أولادك من عناء الوحدة وعنت الخدم .

– لا تحاول ان تؤثر فيّ ياعم محمود ، فهذا امر ابعدته عن فكري منذ زمن بعيد .

– ولكن لايزال عندي احساس وأمل بانك ستعيد النظر فيه ... وستجدني خير معين وخير صديق ان غيرت رأيك واستجبت لنداء العقل والمنطق . . و . . والعـــاطفة .

* * *

– ٩ –

ترك احمد ياسين دكانه عصر يوم قائظ – وهو لايزال يتخبط في افكاره – إثر حديثه مع الشيخ محمود ، وأخذ يمشي في بطحاء مكة دون هدف ، فلقد مرت عليه سنوات وهو لم يخرج عن طريق مرسوم يتكرر كل يوم بزمن محدد . من البيت الى الدكان الى الحرم . يعود بعدها الى البيت .

ومن سويقه اتجه الى « قاعة الشفا » ومنها الى « سوق الصغير » واخذ يمشي في الشارع الرئيس لمكة متجهاًنحو « جرول » فيالطرف الشمالي الغربي منها ماراً بالشبيكة وحارة الباب وعجب لهذا الازدحام والوجوه الغريبة التي يراها . . فهذا جاوي وذاك هندي ، وهذا اسود ، وذاك أبيض ... وأفاق على تذكر سريع بأن موسم الحج على الابواب وانه في الاشهر الحرم ، وأحس بحرارة الجو ووهج الشمس ينعكس من

الجبال المحيطة بمكة من كل صوب وجانب ، ورأى الناس ، يخففون من ملابسهم بالقدر الذي لايؤذي العين ، ووقعت رجلاه أكثر من مرة في أرض مبلة ، أو طين طري فلم تكن الشوارع (مسفلته أو مبلطة) وكان أصحاب الدكاكين التي اصطفت على جانبي الطريق يرشون الماء أمام محلاتهم بغية ترطيب الجو ، كما أن سيارة « رشاش البلدية » تداوم على رش الشارع العام مرتين أو ثلاثاً لتخفيف حدة الغبار الذي ينتشر في سماء البلدة ...

وفي ذهول وشرود ذهن ، حارت عيناه في « اللبس » المتعدد الأصناف ، والأزياء المختلفة التي يرتديها المارة أمامه وكأنه يراهم لأول مرة ... فاليماني والجاوي يلبسون « الفوطة والفلينه » ... والبخاري والتركي يرتدون البدلة الصوف والمكونة من « كوت وبنطلون » كما أن « الخُفّ والبابوج » لايفارق أرجلهم رغم حرارة الجو ولهيبه ... أما التكروني فلا يتقيد بزي خاص ، ... واسترعى انتباهه تلك النّعل التي يمتطيها الناس ، فوجدها خليطاً عجيباً من « الكُنْدَرَة الى المداس الشرقي ، الى الشبشب المستورد » ، ولاحظ أيضاً « التّاسومة المدني » و التلّيك المصري » «والنّعل اللّستيك » الذي يصنعه البُخاريه ...

وانتهى به المطاف الى جرول .. فأحس بنسمة من « الطّراوة » تصافح وجهه بعد أن أوشكت الشمس على المغيب وبردت حدتها وخف ازدحام الناس ، فشعر بأنفاسه تستنشق هواءً نقياً ...

وعندما أحس بالتعب أجال بصره فرأى « عربية كارو » تتهادى على وقع حوافر الحصان الذي يجرها . فأوقفها ، ورمى نفسه داخلها وأسدل ستائرها وقال « للعربجي » بصوت خافت وكأنه لايريد أن يكشف عن هويته : « باب الصفا .. أريد أن أدرك صلاة المغرب في الحرم . »

وعندما خلا الى نفسه في بيته ، وأغمض عينيه للنوم شعر بتعب بالغ اثر المشوار الطويل الذي مشاه ، وترددت في مسامعه كلمات صديقه الشيخ محمود ... « الحل هو أن تتزوج ... من يدري ، فلعل الله يرزقك زوجة طيبة .. تخاف الله .. في ولديك ... أنت متخوف ... ستجدني خير معين ... » وطرد هذا الوهم من نفسه ، وتقلب في فراشه يمنة ويسرة ، ولكنه وجد في هذه الافكار شداً ودفعاً ، سهولة وصعوبة ، قرباً وبعداً ، وصار كقطعة خشب على سيف البحر يقربها مد ويبعدها جزر ، واستحلى أن يواصل التفكير في ذلك ، وانتابه شعور لم يحس به من قبل ...

كيف يقدم على فكرة الزواج ؟؟ أنّى له ذلك ؟؟ سنين طويلة مرت دون أن يفكر في هذا الأمر ... هل كان متخوفاً حقاً ؟؟ هل ضن على نفسه وبخل عليها بالحياة السعيدة مع زوجة طيبة تخاف الله في نفسها ... وتخفف عنه وحدته ... وتنقذه من براثن الجسد .. وتريحه من عناء التفكير في ولديه ... ولكن ؟! كيف يستطيع أن ينسى المرحومة ... الزوجة الطيبة المخلصة ؟؟ كيف يسمح لغيرها بأن تأخذ محلها لديه ومنزلتها عند طفليه ؟؟ ...

« ثم .. ولكن ... غير أني لازلت رجلاً قوياً ، والحياة أمامي طويلة ، ودروبها متعرجة .. قد لا أجد مثل هدى في تكوينها وخلقها ، ولكن ؟! من يدري ؟؟ ان ولديّ قد كبرا الآن ، وفي استطاعتهما أن يتدبرا أمرهما بنفسهما ... أما أنا فلم أعد حقاً أقدر أن أعيش بدون زوجة : ولعل ذلك هو السبب في عزوفي عن الحياة ومباهجها ولعل ذلك هو مصدر ضيقي وعصبيتي .. »

« إني ولاشك في حاجة الى زوجة تؤنس وحدتي ورفيقة تحيى ليلتي ، وقلب يقاسمني مسرتي ، وفؤاد يشاركني بهجتي ... »

« إن الحياة بدون رفيق كالسفينة خلت من ربانها ، كجزيرة مهجورة ينعق فيها البوم ... »

« الا ما أقسا الوحدة على الرجل . . . وتباً لحياة العزوبيـــة ، وسنّي عمري الضائعة . . »

« الله أكبر . . الله أكبر . . الصلاة خير من النوم » وانتشل صوت آذان الفجر أحمد ياسين من بحر أفكاره الخضم ، وقام يصلي وهو يغالب النوم ويشد جفونه من الارهاق . . إلا أنه أحس بعد انتهائه من الصلاة بكفيه يرتفعان الى عنان السماء داعياً ربه « اللهم اختر لي مافيه الخير والصلاح وارزقني زوجة صالحة تحفظني في نفسي وديني ومالي . . »

* * *

— ١٠ —

في الوقت الذي كانت فكرة الزواج تداعب خيال احمد ياسين وتأرجحه بين اقدام واحجام . . . كان خالد يبدو ساهما حزينا غارقاً في أفكاره الصغيرة ، فلا أم يبثها همومه ، ولا جدة يتسلى معها بالكلام والحكايات القديمة ، وأبوه اصبح في شغل شاغل عنه يكتفي بالسؤال عنه وعن سيره في الدراسة ، وأخوه دائم التغيب عن البيت . . .

لم يجد خالد خيراً من صديقه حسن زميله في مقعد الدراسة ، ومنافسه التقليدي في « البرنجية » . . . فهما خصمان عنيدان داخل الفصل . وصديقان حميمان خارجه ، تربطهما علاقة قوية متينة ، وكانا على صغر سنهما يحرصان على احترام بعضهما ويتفانيان في تنمية تلك الروابط بينهما .

كان حسن من اسرة فقيرة ، وعائلة هاجرت من جاوا الى مكة ، واستوطنت فيها منذ زمن بعيد بقصد العبادة والعيش في أمان واطمئنان .

وفي الوقت الذي كان خالد يعامله معاملة الاخ والصديق . . كان حسن ينظر اليه بحذر شديد . . كمن يقارن بين العظيم والحقير ، والغني والفقير . . فكان لايخاطبه الا بأدب جم وصوت رقيق ، ويتفادى ان يقول شيئاً يعكر العلاقة بينهما مخافة أن يزدريه أو يعيره بفقره ، أو يضاهيه بحسبه ونسبه ، وكان خالد يعجب بزميله حسن بعقله وصواب رأيه ، و كثيراً مادعاه الى بيته للزيارة او المذاكرة معا ، الا ان هذا يعتذر بشدة عن تلبية الدعوة . . غير أنه لم يجد بداً من الذهاب الى بيته عندما ألح عليه مرات ومرات بعد موت جدته .

لقيه خالد بالترحاب ، وحياه بحرارة أنسته التخوف الذي ملأ نفسه وأذابت تلك الافكار التي جاشت بها نفسه وهزت مشاعره وهو يخطو اولى خطواته في ذلك البيت الكبير . . والذي لم يحلم قط بارتياد مثله ، فضلاً عن تملكه له يوماً ما .

وزادت الالفة بين الاثنين . وصارا لايفترقان عن بعضهما . . وكان سعد يرقب أخاه وصديقه من بعد ، يملؤ قلبه الحقد على ذلك الدخيل الذي احتل قلب اخيه وصرفه عنه ، فهما يستذكران ويلعبان معاً ، حتى غدا هو غريبا بينهما ، ومما زاد في غيظه وأوجد صدره انهما سيقدمان امتحان الشهادة الابتدائية . بينما هو يتعثر في الصف الرابع . ويوماً بعد يوم ازدادت كراهيته لهذا المتطفل الكريه ، وتقدم من اخيه ووجهه مكفهر متميز بالغيظ وصاح فيه . . بينما حسن ينظر في خوف .

— ظننت أنك تهتم بي أكثر مما تهتم بهذا ... القذر .. لعلك نسيت أني أخوك ... وكان أجدر بك ان تذاكر لي دروسي بدلاً منه .

أجابه خالد في هدوئه واتزانه :

— إن هذا الذي تتحدث عنه بازدراء هو صديقي فيجب ألا توجه اليه أية إهانة فضلاً على أنه في بيتك .. واحترامه من احترامك لنفسك .. ثم أين هي دروسك

لتذاكرها .. لم أرك في يوم تفتح كتاباً بعد أن تخلفت في العام الماضي وكل محاولاتي معك تلاقي منك أذناً صماء ..

— اني لا أريد لهذا .. أن يأتي هنا بعد اليوم .. واذا فعل فسوف أكسر رجله.

كان سعد يصيح بأعلى صوت .. وبينما كان حسن قابعاً في ركن قصي ، خائفاً من هذا الذي يقف أمامه كالجبل ، فقد كان صغيراً في سنه ، ضئيلاً في حجمه ، ولا يكاد يرى عراكاً أو خصاماً حتى تصطك رجلاه وترتعش أطرافه ...

نظر خالد اليه فرآه شاحباً ... فتحايل على نفسه وملك أعصابه وخاطب أخاه :

— عندما يعود أبي من الحرم سنسوي المسألة .. إنه ليس بيتك وحدك ..

(ثم اعتذر لصاحبه بكلمات رقيقة ..)

— هاها ... أنت وأبي ، .. لم يعد في الدنيا من أصحاب إلا هذا الدخيل ، صدق القائل .. « اذا صاحبت فصاحب رجلاً .. وإلا .. فلا .. » انظر الى أصحابي أنا وقارنهم بهذا الرعديد .. عباس الحمش .. ابراهيم الزاروق .. قاسم اسطى .. وغيرهم من أولاد الحارة الواحد منهم بعشرة ، وكل واحد منهم «يِنْدَقْ لُونُوبْ» ... حتى وان جار عليهم الزمان ، وطردوا من المدارس ، فالذنب ليس ذنبهم .. ومع ذلك فنحن رجال الحارة ، وصناديدها بالرغم من صغر سننا .. تكفينا شهادة « البابا » سعيد الذيب « مشكل المشاكل » بعد أن أثبتنا له رجولتنا ومنعنا أي (رجل غريبة) من أن تطأ حارتنا ...

— لعلك تسمي هذه بطولة .. بينما هي تشردٌ ، وكل انسان حر في اختيار أصحابه ورفقائه .. وقديماً قيل : « عن المرء لاتسل وسَلْ عن قرينه » « وكلا بعقله يعيش » .

* * *

- ١١ -

تلقت كل من جواهر وصالحة شقيقات احمد ياسين المتزوجتين دعوة اخيهن لحضور امر أسريّ هام ، مع التأكيد عليهما بعدم التأخر بعد صلاة المغرب متصلاً ، كما طلب من صهريه التشرف بالحضور .

واحتارت كل واحدة منهن في سبب تلك الدعوة المفاجئة ، فلم يسبق للأخ أن دعا احداهن في مناسبة مـــا . . اذ لم تكن هناك مناسبات بعد موت زوجته سوى مناسبة صبيحة يوم عيد رمضان عندما تجتمع الأسرة كلها « للفطور » بعد صلاة المشهد ويتبادل الجميع التهاني وأطيب التمنيات بالعيد السعيد .

كانت جواهر تتردد على أخيها من حين لآخر ، كذلك صالحة ، وان كانت اقل من اختها في الاتصال به والتقرب منه .

كانت كل واحدة غارقة في أعمال بيتها وتربية اولادها وبناتها ، فعند الاولى ستة أطفال . . والثانية خمسة .

ولم يكن حال هذه بأحسن من تلك ، اذ ان كلا من الزوجين يصارع الحياة ويضرب في خضمها ليعيش ويكفي نفسه وأهله القوت .

كما ان خروج النساء من بيوتهن للزيارة . . كان من الامور التي تحتاج الى بحث واعادة نظر ، ولابد له من ترتيب مسبق . . إذ يجب ألاّ يقع في احد الايام المخصصة « للغسيل أو (الكوي) او تعليم البنات « شغل المِنْسَجْ » او الخياطة والتطريز بالابرة او « لَقط المدَوَّرة وتركيب الأويَة » .

كان لدعوة كهذه مجال واسع للتخمين في مسبباتها . . وأخذت كل واحدة

تفكر وتتأمل . . الا أن ايا منها لم تصل الى نتيجة مرضية ، وما فتئت جواهر تردد على مسمع زوجها بأن « عينها الشمال ترف من ثلاثة ايام ولا شي ما وقّف حركتها لا حوقلة ولا بسملة .. ولا حتى الصلاة على النبي سبع مرات » ... وكررت القول « ان شاء الله اسمع خبراً مفرحاً . . » أما صالحة . . فلقد ورم انفها من كثرة حكته ، وكانت تقول وهي قائمة قاعدة .. « ياترى .. بدّي آكل هذه الذبيحة فين، ان خُشْمي مايكذبني . . . » .

وعندما جمعت هذه الدعوة الأختين . . كان قد مضى شهر أو يزيد على لقائها آخر مرة . . . لذا فقد كان العناق بينهما حاراً والقبلات لاحصر لها ، وأخذتا تتبادلان الاحاديث العائلية . . .

والحق . . ان العلاقة بين الاختين كانت قوية متينة قبل ان تتزوج كل منها ، وكانت جواهر تحب صالحة رغم معرفة هذه بأنها كانت تكره امها وتحقد عليها نتيجة سوء المعاملة التي لقيتها منها بعد موت امها واضطرارها الى العيش مع زوجة أبيها . .

سألت صالحة اختها عن سبب هذه الدعوة التي جمعتهما . . وعن هذه الحركة الغريبة في البيت ، ولما لم تجبها بما يطفىء غلتها من الفضول توجهت بالسؤال الى المربية سارة التي كانت « مُتَعنِّسة ومُدَخْدِخة » ولا تقوى على الحركة فأجابت بصوت ضعيف :

« والله ياستي ماادري ايش في فِكْر عند سيدي . . انا قلبي يدقني من زمان .. لكن سيدي مايقول ايش في قلبه . . بس ياستي . . شمس تطلع . . وخبرْ يبان .. »

حتى خالد وسعد لم يدركا شيئاً مما يجري حولهما ...

لذا فقد ترقب الجميع انتهاء صلاة المغرب ، وامتدت العيون نحو الباب في انتظار قدوم رب الأسرة .

سمعت أقدام أحمد ياسين تدك الارض في دهليز البيت ، وتسربت الى أنوفهم رائحة العود تضمخ أرجاء البيت ... فازداد الشوق الى معرفة ذلك السر الغامض ..

وعندما سلم على أختيه دار الحديث - كالعادة - عن الصحة والأحوال والأولاد .. وتلفت في المحل يسأل عن صهريه فاجابتاه أنهما سيصلان بعد قليل .

- إذاً هي فرصة طيبة لكي أحدثكما عن سبب هذه الدعوة وقال ذلك في صوت مغمغم ... بينما تطلعت جواهر الى اختها .. انني منذ وفاة المرحومة أعاني الوحدة وقسوة العيش ومره في هذا البيت الكبير ... كما أن خالداً وسعداً في حاجة الى من يرعى أمورهما ... وقد كانت أمي - غفر الله لها وتغشاها برحمته - تقوم بذلك ، وبموتها ضاقت بي الحيلة ، واشتدت بي الهواجس ، وصرت أخشى على نفسي وعلى ولدي ... لذا فقد قررت .. (وسكت هنيهة ، وتفرس في عيني أختيه ...) .. قررت أن أتزوج .. !!

- تتزوج ... تتزوج ؟!!

كلمتان سمعها في وقت واحد ، لابد أنهما صدرتا من الأختين في لحظة واحدة .. مليئتان بالدهشة والاستغراب ...

- نعم أتزوج .. هل تريان مايمنع ذلك !!!..

- بالعكس ياسيدي .. انني كنت أفكر في ذلك منذ زمن بعيد .. (أجابت صالحة ...)

أما جواهر .. فقد أطرقت الى الأرض برأس مثقل بالهموم ولم تجب .

- شكراً على كل حال .. بعد صلاة العشاء سيعقد القران ، وبعد شهر ستنتقل العروس الى البيت ...

- ولكن من هي هذه العروس ؟؟.. استدركت صالحة ..

– آه ... ان والدها هو الشيخ محمود ، صديقي ، وجاري في المحل والعروس هي زكية ابنته الكبرى ... ولابد أنك ياجواهر تعرفينها اذ هي في سنك ، وقال مستدركاً ، ولكن مالي أراك ساهمة واجمة وكأنك لاترغبين في مشاركة أخيك فرحته ...؟

– إنني ياسيدي أفرح لفرحك .. ولاشيء يسعدني سوى أن تكون سعيداً .. ولكن في القلب جرحاً لم يندمل .. والمصير الذي ينتظر ولديـــك يخيفني وينتزع البسمة من فمي .. وكان الله في عونهما ...

وقام أخوهما يستقبل زائريه .. فالتقت عينا الأختين .. وكان الصمت بينهما معبراً ... وكانت النظرات بينهما تعلن خوفاً ما ...

أما صالحة فكان الخبر مفرحاً لها .

أما بالنسبة الى جواهر ... فقدكان كالناقوس يدق في أذنيها يذكرها بالأيام التي قضتها معزوجة أبيها ، فمالبثت أن رددت بصوت باك : « مساكين هادول الولدين .. باين مكتوبة عليهم الشقاوة زي ما انكتبت على جبيني ..! »

* * *

– ١٢ –

كان الشيخ محمود لايطمع في مال صاحبه أحمد ياسين بقدر ما كان يبحث عن أزواج لبناته الثلاث .

فكانت زكية أكبرهن في السادسة أو السابعة والعشرين من عمرها ، وكانت هي التي تدير البيت بعد موت الأم منذ سنوات خلت ، قاست قبل موتها من جراء المرض ساعات عذاب طوال حتى أصبحت حياتها مصدر قلق وإزعاج .. وغدا موتها مترقباً من الجميع ...

وعاش البنات الثلاث مع أبيهن - في حياة رتيبة .. فهو رجل مسالم وديع في بيته ، يحب التنظيم – أو قل الرتابة – فهو يقوم لصلاة الصبح يصلي ويقرأ ماتيسر له من القرآن .. وتعد له زكية افطاره ، حتى اذا ما انتهى منه حمل نفسه وخرج الى دكانه ... يعود بعد صلاة الظهر حيث يجد غداءه معداً له ، ومن ثم يرتشف قدحين من الشاي بالليمون وينام نومة الظهيرة الى ما قبيل العصر .. فيتوضأ بعدها ويخرج الى الحرم والدكان .. حتى إذا ماصلى المغرب والعشاء في الصفوف الأمامية في صحن الكعبة عاد الى بيته ليجلس مع بناته ثم يتناول عشاءه الذي لايتغير على مدار السنة .. فعندما يبدأ قرطاس الحلاوة الطحينية يأخذ مكانه على « الصفرة » ، يبدأ الجميع في لبس الملابس الشتوية ... أما اذا حضر « الحربُزْ » – فان مقدمه يكون إعلاناً لدخول الصيف – فيقدم له مدقوقاً في « زبْدِيّة صيني » يغطي سطحه الهيل والسكر ، وتسبح في وسطه حبات الثلج ...

وغالباً مايفضل سهرة مع ابنته الصغرى تقرأ له قصة ، أو يُحكّيها هو حكايات الأولين .. ثم ينام .. ليقوم في الصباح الباكر . ومن ثم تدور عجلة حياته كما دارت بالأمس .

وكان متمسكاً بدينه ، متشدداً مع بناته في أداء الصلوات الخمس ولا يسمح لهن بمايراه منافياً لتعاليم الشريعة والسنة المحمدية ، وكان لايكره شيئاً في الدنيا قدر مايسمى « بالموضة » .. والراديو .. ومايقدمه من مفسدة للأخلاق وأغان خليعة ، وكلام يحث على الخنوع من جهة ، والعصيان من جهة أخرى في نفوس الشباب المتفتحة .. حتى الأخبار لايطيق سماعها وكان يقول : « نحن والحمد لله في حرم آمن ، وفي بلدة أطعمها من جوع وآمنها من خوف . »

عاشت زكية في هذا البيت طيلة عمرها لاتخرج منه إلافي المناسبات الاضطرارية

القليلة .. مسئولة عن كل صغيرة و كبيرة فيه ، قائمة بأعبائه من طبخ وتنظيف ، ورعاية أختيها ومراقبتها .. مما أكسبها صرامة وقسوة وقوة شخصية ، إلا أنها كانت ناقمة على نفسها وعلى أبيها وعلى من حولها وعلى المجتمع .. فلقد كانت تشعر بأنها لاتقل ذكاءً عن أختيها ، ولكنهما يفوقانها بالتعليم والقراءة والكتابة .

ومما يزيد في غيظها وحنقها ويوغر صدرها أن مسئولية البيت وما يحتاج اليه من جهد وعناء تلقى عليها بحجة أن أختيها مشغولتان بالقراءة .

وكان يؤلمها في قرارة نفسها أن « الخاطبين » يطلبون الزواج من أختها نوال التي تصغرها بخمس سنوات . حتى ليلى تلك الفتاة الطائشة والتي لم تبلغ العشرين من عمرها .. « جاءها أكثر من خطيب » .. بينما هي لم يتقدم اليها أحد ..

كان هذا الزواج فرجاً كبيراً بالنسبة إليها ، وأملا واسعاً أمامها تحقق فيه ما حرمت منه في سني عمرها.

كانت عقلية الشيخ محمود لاتسمح بان تقدم على تزويج أي من البنتين الصغيرتين قبل أختها الكبرى رغم المحاولات التي بذلت من أصحابه ، والاغراءات الشديدة من الراغبين .. إذ أن له فلسفة في ذلك يترجمها بالقول : « كيف أرضى بزواج الصغرى قبل الكبرى ؟؟ ماذا يقول الناس عنها وعماذا يهمسون عني ؟؟ لماذا أدع مجالاً للشك يطوف بعقول الآخرين ؟؟ « .. ثم ماذنب المسكينة ترى أختها في « بيت سعدها » وهي محرومة .. لا .. لا .. انني لا أوافق على ذلك مطلقاً . خير لهن ولي أن ، يبقين معاً أو يتزوجن بالترتيب بحسب سنهن .

لذا .. فان المساعي الحميدة ، والمجهودات الجبارة التي أقنع بها صديقه في الزواج تطلبت منه مهارة وحنكة .. وقد طار قلبه فرحاً عندما قبل أحمد الزواج من إحدى بناته .. الأمر الذي دعاه يناجي نفسه قائلا « أشد مايسعدني أن أرى كل واحدة من

بناتي وقد سترها الله في بيت بعلها في حياتي ، وعسى أن أوفق في اختيار أزواج من عائلات كريمة وأصل طيب ونسب معروف . ومن ثم أرتاح بعدها في نومتي . »

* * *

- ١٣ -

مرت دقائق عديدة ، وزكية لازالت تقف أمام المرآة الكبيرة التي تزين صدر « المجلس » تتأمل نفسها وتحدق في محاسن جسمها وكأنما ترى نفسها أول مرة . . ترفع حاجباً وتسبل عينا ملئت بالسحر والاعجاب ... كانت سمراء ، متوسطة القامة ، ممتلئة الجسم يأخذ وجهها تدويرة بيضاوية في نقاء وصفاء تزينه عينان دعجاوان ذات أهداب طويلة ويتوج ذلك الوجه الملائكي شعر اسود فاحم ترتمي جدائله على كومة من الارداف تأخذ شكل القبة عندما تجلس . . يصدم عين الناظر اليها صدر مكور مرفوع يكاد في وحشيته ان يقفز من سجنه . . .

لم يكن يسمح « لبنت البيت » ان تستعمل مساحيق الزينة ، او أدوات التجميل . . وكأنما سمعت صوتاً يصيح بداخلها : « اشد ما طال اشتياقك يافتاة الى قليل من بودرة تغير وجهك الاسمر الى بشرة بيضاء ، وكثيراً ماهفت نفسك الى ان يمس « قلم الحمرة » شفايفك الظامئة وفمك المتعطش . .

واستعذبت زكية في وقفتها امـــام المرآة ذلك النذير ، فأغمضت عينيها الكحيلتين . . واسترسلت في احلامها اللذيذة « . . تباً لك ايتها الايام السوداء التي مرت من حياتك هبـــاءً . : كنت سجينة هذا البيت . . لاتعرفين سوى الطبخ والغسيل والتنظيف وترتيب المنزل والعناية بالآخرين ، والجلوس الى البنات اترابك

والكلام معهن . . لم تعرفي السعادة ، ولم تتذوقي لذة الحياة . . غداً . . سيصبح لك بيت فيه ما تتمنين ، وفيه ماتحلمين . . تلبسين ما ترغبين ، لا أحد يمنعك ولا صوت أجش ينهرك . . ستتزينين بأحدث انواع الزينة ، وتستعملين مـا شئت من ادوات التجميل . . اوه . . كم يحلو لك بعد اليوم ان تلبسي « الكعب العالي » . . تصوري نفسك يازكية وانت في أحلى صورة ، مرتدية اجمل الفساتين . . القصير ، لا . . بل الضيق . . وشعرك في « تسريحة جديدة » وقد أقصه ، ولكن ربما يعجبه ان يكون طويلا . . ويجيء هو . . آه . . هو !!! من ؟؟ قالوا ان اسمه احمد ياسين ليتني استطيع رؤيته ؟! ليتني اسمع صوته ، أو أرى شكله . . ثم ماذا يازكية ؟؟.»
وأحست بدبيب عجيب يسري في اوصالها ، وشعور غريب يتسرب داخلها . . (آه ما أقساه ان هو حاول منعي من ذلك .. ! ! .. ولكن ! ! ؟ هيهات ان يمنعني وكيف ؟ ؟ وهذا الجسم اللدن الذي سيعصره . . والنهر العذب الذي سينهل منه . . وانا) .. ومرت اصابع مرتعشة على شفتيها .. وتحسست يدها ثقل نهدها المكتنز ، وأحست بسواط من نار يلهب جسدها ، وسمعت صرخة تعوي داخلها . . وأصابتها رجفة لم تتمالك نفسها على الوقوف . . فتهاوت على كرسي بجوارها وهي تحلم بالدفء الذي سيغمرها ، ورقت مشاعرها عندما عقدت يديها على صدرها في ضمة تخيلتها تعصر رئتها وتكسر اضلاعها ، وصاحت متأوهة . . وأفاقت على صوت اختهـا يناديها وكأنه آت من عالم آخر بعيد .

— « الله . . الله . . ماهـــذا . . صار لي ساعة وأنا انادي العاشقة الولهى فين كنتي ، ؟ ؟ وفين وصلتي ؟ ؟ ؟

— اخرسي ياقليلة الأدب . . كدا تخاطبي « إستيتـَه » .

— العفو . . العفو ياست الكل . . بس « أتيتك من سبأ بنبأ يقين » . .

سمعت ابويا يتكلم مع عمتي عن موعد الزواج ، وشراء « الدَّبَشْ » والملابس الجديدة .

وفي لهفة وتضرع صرخت زكية . .

ابوه ياليلى . . قولي . . تكلمي . . لاتكوني رزيله زي عادتك . . .

— ماسمعتِ شيء مايكفيكي الاحلام اللذيذة ، والتصورات الجميلة اللي كنتي فيها . . هوّا هاذا اللّي يسموه الحب . . والا العشق . . ؟ ؟ والا أيه ؟ ؟

وفي ضحكة متقطعة . . هزت كتفيها بلا مبالاة . . وغمزتها بطرف عينيها وتركت اختها .

جذبت زكية من اعماقها نفساً طويلاً . . وتنهدت في صمت مكتوم ، وخرجت وراء اختها لترى عمتها .

* * *

— ١٤ —

دبت الحياة مرة أخرى في نفس أحمد ياسين وازداد حيوية ونشاطاً وزالت من وجهه آثار التجهم والعبوس ، كما اختفت « تقطيبة الحواجب » على حد تعبير مخدومته سارة ، وصار أكثر مرحاً ، وانفتحت أساريره داخل البيت ، وكثرت مداعباته لولديه ، كما تنوعت هداياه لهما مما أثلج صدر خالد ، وأثار تساؤلات سعد .

أما دكانه فقد تحولت معالمه وتغيرت واجهته . وبينما هو في دكانه راض عن نفسه .. مستبشر متفائل تعلو محياه ابتسامة أمل واشراق .. إذ التفت الى الصوت النسائي الناعم الذي ذاب في أذنيه كما يذوب « الايسكريم » تحت وهج الشمس .

— عندك .. قماش .. دموع العشاق . (وأعقبت ذلك ضحكة رنانة كرنين الذهب) .

ـ لا ياستي .. (أجابها في صوت فيه تمنع وحياء) .

ـ طيب .. عندك .. آهات العذراء .

ـ متأسفين ياهانم . (قالها في حزم و كأنه يسمع هذه الأسماء لأول مرة ،)

غير أن الصوت انساب في رقة ـ مرة أخرى ـ وامتدت يد بيضاء مشربة بحمرة وردية تشير الى نوع من النسيج كان مصفوفاً على الرف الأيمن .

ـ هادا هُوَّا القماش اللي سألتك عَنّه !! هُوَّا راعي الدكان مو موجود والا ايه ؟؟ (وبنبرة فيها ضغط على الحروف .. أردفت .. (ليش البياع ماينْطَق على كرسيه ، ليش يقوم من دكانه ويسيب المحل للناس اللي مالهم شِغْلَه ولا مِهْنَه يجلسوا فيه ؟؟

ـ عفوك يا أختي .. أنا صاحب المحل .

ـ أنت صاحب المحل .. إنتا هُوَّا .. يِقْطَعْني ، ويقطع لساني ، طيب وليش إنتا يابويا ماتعرف تبيع وتِدِّي الزبونة طلباتها .

ـ ياستي .. هذا القماش اللي قلتي عليه .. والأسامي اللي عمري ما سمعتها ماهي عندي .. يعني لازم يكون كل قماش الدنيا موجود والا أصير ما أعرف أبيع .

ـ طيب .. وهادا ايش اللي قدامك هادا .. انتا ياعمي ماتشوف والا ايه ؟؟

وقام الى حيث أشارت المرأة .. وأخذ يتخبط بين هذا النسيج وذاك .. الى أن جاءه صوتها قائلاً ..

ـ أيوه هادا .. (وقالت بدلال) انتا باين عليك غشيم ، ياعيني عليك .. ابغالوا أحد يِدَرْدِحَك شويه (واطلقت ضحكة مجلجلة .. اهتزت لها أعصابه) .. والا انتا يعني ما انتا عايش في هادي الدنيا .. صدق اللي قال : اللي ماعنده أم حالو يغم .. واللي مالو صديق يعيش في كرب وضيق .. »

عندما انصرفت تابعها هو بعينين زائغتين ، وصوتها الرنان لايزال يدوي في أذنيه « .. آهات العذارى .. و .. » يالهـا من أسماء لا أدري أي شيطان أوحى بها لهؤلاء النسوة وأي ابليس أطلق مثل هذه السخافات لترويج بضاعته ..

ولكنه مالبث أن استعذب الفكرة ، وجاءه الشعر القديم من مخزونه والذي يحفظ منه الكثير .

قل للمليحة في الخمار الأسود	ماذا فعلت بناسك متعبد
قد كان شمر للصلاة ثيابه	حتى وقفت له بباب المسجد
ردي عليه صلاته وصيامه	لا تقتليه بحق دين محمـــد

إذاً فهذه « دموع العشاق » ولابد أن هذا اللون الزاهي المزخرف باقصب « لوعة المشتاق » « أو لقاء الأحبة » وافترّت من ثغره ابتسامة طال الزمان بحبسها ، وشعر بحاجة ماسة الى من يخبره عن أسماء الأنسجة الجديدة التي تملأ دكانه .. كما أحس بحنين زائد الى أيام الصبا ، أيام كانت تجيش في نفسه حرارة الشباب و « تَدِبّ » الرجل أمام دكانه » وسيلها لاينقطع .. « وتذكر تلك المرأة التي مرت كالطيف وخلفت وراءها سيلاً من الأفكار .. « انتا باين عليك غشيم .. يبغالوا أحد يدردحك .. » ، « نعم .. أنا غشيم وألف غشيم ، وأبصم على ذلك بالعشرة .. ولكن كيف أتدَرْدَح .. كيف أصبح مُفَهْلَوا في هذه الأمور .. » وراح في فكرة عميقة .

* * *

- ١٥ -

لم يعهد بيت احمد ياسين هذه الحركة منذ زمن بعيد ، ولم يزعج ملائكة البيت « وسكانه » صياح العاملين وضجيجهم منذ ان تفتحت عينا خالد وصار يدرك الاشياء من حوله ، وطليت جدران البيت « بالرخام » وأعيد تأثيث الغرف من جديد . . . فتغيرت معالم البيت ، وأخذ طابعاً انيقا . . وكان رب الدار لايفتر يشرف على كل كبيرة وصغيرة فيه مما زاده نشاطاً وأكسبه لياقة .

وعندما جاء الدورعلى الطابق الذي يعيش فيه الولدان .. سألهما ابوهما عما اذا كانا يريدان لوناً معينا ، او أثاثاً جديدا . . فشكراه في لطف ، وتركا له حرية التصرف .

كان البيت – كبقية بيوت مكة – مبنياً بالحجر الصوان . . يتألف من خمس طبقات .. وتسكن فيه أسرة واحدة .. مساحته مابين ١٠ – ١٥ متراً طولاً ، و ١٠ – ١٢ متراً عرضاً .. يخصص الطابق الاول للمدخل والدهليز ومقعدين وبيت خلاء . ثم الطابق الثاني والثالث والرابع ، ويتكون من مجلس كبير ، وصُفّه ومَخْلَوان ، وبيت خلاء . . امـــا الدور الاخير فقد اعد ليكون فيه « المبيت والخـــارجة والمطبخ» وهناك تقضي الأسرة كل اوقاتها . . ويُستقبل الزوار في أحد المجالس . . أما الدور النهائي فلا غرف فيه سوى الاسطحة التي ينعم افراد الاسرة بالنوم فيها تحت سماء صافية ونجوم ساطعة ايام الصيف .

والتقى سعد بأخيه ، ففاجأه بقوله :

– اتراه حقاً يفعل ؟ ؟ أم أنه سأل من باب المجاملة ، . . ان هذه « البلصه « لاتنطلي علـّي » . . ان ابي يريد ان (يلهّينا) بشيء . . وكأننا لازلنا اطفالا

امامه ، ان هذا السيل من الحنان الذي طوقنا به منذ شهر كان وراءه هدف .. كان قلبي يحدثني بأن شيئاً ما خطيراً سيحدث .. شيء سيكون لهُ أثر سيء وتحول كبير في حياتنا .. وشيء مزعج سيكون مصدر قلق .. ومنبع مصائب .. الآن .. « ظهر الحق وزهق الباطل .. » ان والدنا - سامحه الله او لاسامحه - سيتزوج .. ها هـــا .. أسمعت ! ! سيتزوج ، وسيحضر عروسته المصونة هنا .. معنا .. لتعيش بيننا ، لتزهقنا ارواحنا ، لتعكر مزاجنا .. لتكيد لنا الكيد العظيم .. « لِتَنَقْوِرْ عيوننا » .

وجذب نفساً طويلا .. وصاح : « ولكن على مين ياسعد .. انا لها والزمان طويل .. » .

— لا أدري باي حق تجرؤ بمثل هذا الكلام على ابيك ؟ ؟ وكيف تسوغ لك نفسك الخبيثة بتحديه ، وتحدي زوجته .. والتي ستكون لنا امــــاً ، ولوالدنا معينا وانيسا ، انت لم ترها ، لم تعرفها ومع ذلك فقد توعدتها بكل شر .. هون عليك ياسعد.

— هون عليك .. هاها ياسلام .. كيف فاتني انك من حزب الشيطان ! !

— انك انت الشيطان ذاته .. (وسرح بأفكاره قليلا ..) .

— انت لاتدرك ماذا تعني زوجة الاب .. انها باختصار ايها الاديب ، لعنة ، اتسمعني؟،.. لعنة .. حيّة .. وقاك الله من لسانها وأجارك من لدغتها ..

— هذا يتوقف على سلوكك نحوها ، وتصرفاتك معها .. (واضاف) « ان القطة لاتخربشك الا اذا دست على ذيلها » .

— قطة ايه ، وهُبّاب ايه .. اقول لك لعنة . حيـــة .. تقول لي قطة وخرج يزفر حقداً وينفث سمـــاً لينضم الى شلة المساء بحجة المذاكرة ، وهناك في - البرحة - حيث يلتقي بأصحابه يقضي معهم الجزء الكبير من الليل ، او ينتقلون

الى مقعد احدهم .. يلعبون (الورق والكيـْرَمْ والضُوْمنه) .. ويدخنون .. او يغنون ، او يلوكون سيرة الجيران .. حتى اذا انتصف الليل أو أوشك ، بحث عن كتبه التي تبعثرت ، وحملها راجعاً الى البيت يتسلل منه خفية حتى لايوقظ احداً من النائمين فيعكر مزاجه ، وتطير من رأسه لذة الفوز باللعب ، ودائماً ما كان يردد قبل النوم .. « بات غالب ، ولا تبات مغلوب .. » ثم ينهي ليلته ويختتم نشاطه اليومي بدور غنائي جديد حفظه في بحر النهار .

* * *

- ١٦ -

حاول أحمد ياسين أن يقنع العم محمود في أن يكون الفرح مقتصراً على الأهل والأقارب والأصدقاء - الخُلَّص - كما كان يسميهم - وأن ينتهي الموضوع كما بدىء بهدوء « ولا من سمع ولا من دري » .. الا أن كل محاولاته تحطمت أمام صخرة العناد والاصرار .. على أمل أن يكون زواج كبرى بناته فاتحة خير للباقيات ، وأن يقيم لذلك الأفراح والليالي الملاح ، وان يكون عرساً تتحدث عنه الأجيال اللاحقة على غرار العرس الكبير الذي أقيم قبل سنوات والذي استغرقت الاستعدادات له أكثر من شهرين ، وحضره كل من في الحارة والحارات المجاورة (والمتحالفة) .. ينعم بالولائم التي نصبت سبع ليال وسبعة أيام .

وماهي إلا أيام .. حتى انقلب الزقاق الذي تسكنه العروس رأساً على عقب ، فقد أقيمت السرادقات ، ونصبت الأرائك ، وتزينت الجدران على الجانبين

بسجاجيد نقشت عليها مناظر بديعة خلابة ، وتلألأت الأنوار ، وطفح البشر على كل الموجودين .

كان الشيخ محمود له مكانة خاصة في الحارة ، فهو « صاحب الموجب » دائماً ، وكانت له أياد بيضاء على جميع جيرانه وأصدقائه ، وكان لايترك مناسبة سعيدة إلا ويسرع في تقديم المساعدات و « الرِّفدْ » كما أن له مواقف مشرفة في خدمة المحتاجين .. فكانت هذه فرصة طيبة لتسديد ماله من ديون مسبقة .

كان أول القادمين هو شيخ الحارة .. يصحبه النقيب ، ومن خلفهما « العيال النشامى » وكان وجه شيخ الحارة ينم على الصدق وهو يقول :

ـ ياشيخ محمود .. الحمد لله على هادا النهار اللي كنا نتمناه من زمان ..

فجمايلك علينا كثيرة ، وعلى أهل الحارة أكثر ، أنا ، والنقيب والعيال ، والحارة .. كلنا في خدمتك ، وخدمة ذات الصون والعفاف ، تراني ياشيخ محمود رتبت كل شيء .. لاتشيل همّْ أبداً ،.. ومن جهة ثانية (قال هذا ، وجذب نفساً كبيراً ، ونفخ في صدره قليلاً وهز رأسه يميناً وشمالاً ..) .. أبشرك بأن الشيخ جاد الله حلف وأقسم أنه سيحيي الفرح بيتشكته المشهورة في (اليماني) وأنت سيد العارفين بالشيخ جاد الله وبالواد سَعْدُو ، والقرنفله ، وعباس ، وأبو زامل وابو دَلَشْ .. لمّـــا يتقابلوا .. دا يشيل دور ، وهـذا يجاوبه بالدور الأقعد .. الله .. الله .. (وهز رأسه طرباً) .. (ثم سكت قليلاً كمن يريد أن يرى مدى تأثير كلامه على السامعين .. وما لبث أن أردف) .. كمان عندك الأستاذ الكبير حَمَدْتو والتخت اللي معاه .. في الأدوار المصرية ، والطقاطيق والموال الحجاز كار ، والسيكا ، والبنجكا .. ياسلام .. ياعم محمود على الأستاذ لما يخُشْ في الطرب ، وينسجم في الدق والعزف يخلي العود ينطق .. أنا كنت معاه قبل يومين .. وقال لي .. أبشر ياشيخ صديق « غالي والطلب رخيص » ، يوم المنى .. وغاية المراد ..

(واختتم كلامه ..) راح تسير ليالينا أنس ، الله يأنس حياتك ، وعقبال الباقين ..

وانتهز النقيب فرصة انتهاء العمدة من كلامه ، ونظر في وجهه كمن يستأذنه الحديث :

— ياشيخ محمود .. الحارة كلها تبغى تبيّض بوجهك ، احنا ماصدقنا يصير عندك مُوجِب ونقوم بالفَزْعَة اللي تليق بمقامكم .. ترى الفزّيعة ، والمباشرين كلهم حاضرين .. الله .. الله وخرج من المكان وهو يصفق ويصيح بالزومال :

لمّوا عـــليّ بني سويـــد

وصوت آخر من الخارج يجاوبه :

هـــلا هلا بالـلي جـــا
يا مرحباً بالـــلي جـــا

وما لبث أن أقبل سعيد بن الشيخ عبد الرحمن جار الشيخ محمود ، وفي يده قائمة بأسماء الذين أرسلوا « الرّفْد » قائلاً :

— إن المقعد لم يعد فيه متسع للأرزاق وصناديق الشاهي وتنك السمن ، لابد لنا من غرفة أخرى نضع فيها الرّفود .. فتطوع السيد عبد الله بالقول :

— ياجماعة بيتي تحت أمركم ، وهادى مفاتيح المقاعد ، وعندك « الحوش » كان لرؤوس الغنم ، يمكن تحتاجوه أيضاً ..

وما لبث ان طلب الشيخ محمود من سعيد بان يزداد حرصاً في تسجيل الأسماء ، والاشراف على إرسال « معاشر الزّلابيّة في الصباح ، والرز الزُّرْبيان في الظهر .. يوم الصُّبْحة .. » فطمأنه هذا ، ووعده خيراً .

* * *

كان بيت الشيخ محمود المكون من أربع طبقات فسيحة ، وسطحين امتدا بطول البيت وعرضه كخلية نحل .. فقد تجمع فيه عدد كبير من السيدات والأطفال، والأهل ، والأرحام ، والقريبات ورهط كبير من نسوة الحارة ، والجيران اللائي حضرن خصيصاً رغبة في تقديم مايلزم من خدمات لأهل الفرح .

كانت كل عائلة – من القريبات قد أحضرت معها (شنطة ملابس) لتلبس كل واحدة منهن اللباس المناسب لمراسيم الزواج ، فلكل ليلة من ليالي « الملكة ، والغُمرَة ، وزفة الحَوُوط ، والدُّخلة والصَّبحة » ملابس خاصة يرتدونها في أثناء النهار ، وأخرى لأوقات النوم ..

وفي ليلة الغمرة .. اجتمعت النسوة في غرفة العروس وأخذن « يتَنزَّيْنَ » تتويب العروس ، وعلى دقات الطبلة والطار بدأ الغناء :

ويلا : عروستي يا جوهرة يامَحيصَـةْ
ويلا : يحلف أبوها بألفين ماهي رخيصة
ويلا : عروسة ياجوهرة في وسط كبَّه
ويلا : يحلف أبو كي أنت المنى والمحبة
ويلا : عروستي يامحرّقــة في ورقها
ويلا : بنت الحَبا من يوم ربى خلقها
ويلا : عروستي ياشمعدان فوق دكّه
ويلا : نورك يكَشّح على أهل المدينة ومكة

ويلا عروسة قومي محلا قيامك

ويلا والموز لحمك والمشَبّكْ عظامك

ويلا عروستي ياجوهرة في و.ط صندوق

ويلا لاطَبَّت المسعى ولا شَقّت السوق

ثم ينتقل التوريب باسم العريس :

ويلو عريسنا ويش ادعيت في صلاتك

ويلو جاتك عروسه من الحور جاتك

ويلو عريسنا ويش ادعيت يوم صليت

ويلو جاتك عروسة على ماتمنيت

ويلو عريسنا جانا بِدَفعُه وطيبه

ويلو يا أم العروسة ياعمته رَحّبيبُه

وبالرغم من الاعياء والتعب الذي بدا واضحاً على وجوه الحاضرات من اهل العروس وأخواتها وصويحباتها .. الا انهن كن في شغل شاغل ، لايشعرن بارهاق ولا بالحاجة الى النوم .

كانت كل واحدة منهن مسئولة عن عمل معين .

فالأختان مسئولتان عن الاستقبال وتوزيع الحاضرات على الغرف ، وتأمين حاجات الجميع .

أما آمنة خالتهن الكبرى فهي (القَهوّية) والمسئولة عن (الشّعابة وكرارها) وما تحتاج اليه من دخان مختلف ، و (عن الموجب ، والتّعتيمه) .. حتى اذا مانال كل ذلك رضاءها بدأت في الغناء والدق .. وغمرت قلوب الحاضرات فرحة وبهجة ..

كان وجود مثل هذا الغناء في فرح ما كفيلاً باجتذاب أكبر عدد من النساء للاستماع والاستئناس حتى ولو لم يكن من المدعوات اصلا .. وكان مثل هذا العدد

الكبير من (المتفرجات) متوقعاًتخصص اهل العروس ـ أو العريس ـ له مكانا او اكثر دون ان يتحملن مشقة معرفتهن ، او التكلف بضيافتهن .

وكانت زهرة . . أقرب صويحبات زكية الى قلبها مكانة ، وأكثرهن التصاقاً بها . . قد عنيت بزينة العروس اضافة الى (المُقَيِّنه) بعد أن صَرَّحت بأنها لاتسمح لأحد غيرهما بأن يمس شعر او زينة العروس أو ملابسها .

وكان هناك ـــ أيضاً ـــ المسئولة عن المقهوجية ، وما تحتاج إليه هذه من شاهي وسكر وبن ، وأدوات النَّصبة كاملة .

وأخرى مكلفة بملاحظة « قنع وملايات الحاضرات » .

وثالثة مهمتها ، ملأ الشَّرابْ بالماء ، ورصها على المرْفَعْ .

ورابعة تشرف على تسخين الطيلة والطار ، والرق والمصقع على (بنت المنقل) عندما تأخذ مجلسها أمام اللعابة ومجموعة الردَّادات اللائي يتصدرن الأريكة المنصوبة لذلك . . .

كما أن هناك مجموعة من النساء قبضن أجورهن مقدماً لاطلاق الغطاريف الرنانة ، فكانت أصواتهن تسمع من مسافات بعيدة .

وتمضي الليالي في بيت الشيخ محمود ، حافلة بالحركة ، مليئة بالأحداث السارة طيلة الأسبوع .

حتى إذا ما أهلت ليلة الجمعة ، وهي موعد الزفاف ، علت الغطرفة عالياً ، ودوت في سماء الحارة ، وبدأ الأولاد يمرحون أمام السرادق في أحلى ملابس ، وأبهى مناظر تسر لها العيون .

وعندما ينتصف الليل . . يسمع هرج ومرج ، ويقبل نفر من أهل الحارة معلنين قدوم العريس في وسط مجموعته ، يتوسطهم « المِمْلِك » تتقدمهم أشجار النَّد واحتراقه

يرسل دخاناً معطراً ، وأتاريك مزركشة تتدلى من جوانبها (دندشة) يسمع لها صوت كلما حطت قدم ورفعت أخرى .. وباقتراب الموكب تسبقهم روائح العود تفوح من المباخر الفضية التي حملها صبية صغار وكأنها ملائكة تحف المؤمنين في طريقهم الى الجنة .. (ومعاشر) الحلاوة يعلوها (غطابوش) مشغولة بالتلّي تشق طريقها وسط الزحام .. وفي المقدمة كان (الدّفع) يأخذ واحد منها شكل الطائرة ، والآخر شكل الباخرة .. وقد امتلأ كل منها (بالعودة ، والهيل ، واللبان ، والفوفل ، والمصطكي ، والحلاوة النعناع ، ورؤوس سكر أبيض ، والقرنفل ، وعلب تواليت للعروس ونبات ، وكلونيا .)

وقبل أن يدخل موكب العريس زقاق الشيخ محمود .. وقف الجميع تحية للصوت الذي أخذ يعلو في نغم مَجّسْ حجازكار يرحب بالمقدم الميمون وبالحاضرين ، ويتمنى للعروسين السعد والهناء والوفاق ،

صفا لنا الدهر والأيام قد بسمت
وحقق الله في الدنيــا أمانينا
وَسعْدُنا تمّ والعقبى لكم سلفاً
غـــدا نهني الذي أمسى يهنينا

وكانت (الغطرفة) تعلو كلما وقف المجس في مقطع ، وعيون تتلصص من أعلى البيت تشاهد العريس وصحبه .

عندما أخذ العريس مجلسه في صدر المكان وعن يمينه (المملك) وعن يساره الشيخ محمود ملأه إحساس غريب ، وداهمه شعورشده الى الماضي .. الماضي البعيد .. عندما جلس مجلسه هذا ، جاءه صوت (المملك) يطن في أذنيه .. (هـــل تقبل أن أزوجك مخطوبتك هدى) تذكر كيف كانت إجابته سريعة متلهفة .. (نعم .. قبلت ..) .

(أين أنت الآن .. ترى هل يسرك أن أقول (للملك) نعم قبلت وأحس أنه يتذكرها لأول مرة منذ أن عزم أمره على الزواج ومنذ أن شرع في الاستعداد له .. (ترى هل نسيتها .. ام ان متطلبات الحياة الجـــديدة هي التي دفعتني الى نسيانها ؟ ؟ ..) وقطع عليه تأملاته صورة الصبي امامـــه يدور بكؤوس (الشُّرْبيت) وقد تخطاه عمداً فلم يُعوِّج عليه ، وما لبث ان مال (المملك) على أذنه يهمس بكلمات كان قد عرفها ، وعرف ماسيكون جوابه عنها .

ودارت عيناه تحملق في الوجوه المحيطة به ، ولمـــح ولديه عن قرب ونظراتها شاردة ، وقد قرأ على وجه خالد محاولة التجلد . والصبر و ورأى بوضوح ملامح الضيق والتذمر تعلو محيا سعد فعرف فيها نذير العناد والتحدي .

* * *

- ١٨ -

مرت الساعات الفاصلة بين عقد القران بمنتصف الليل ، وموعد رجوع العريس الى بيت العروس (للنّصه) في الجزء الاخير منه .. بطيئة مملة .. خالها في تقديره اطول من لياليه الخالية وأيامه الجدباء بعد وفاة زوجته الاولى .

وغشيت نفسه افكار متضاربة ، هاجه فيها اعصار التحدي الذي لحظ بوادره تطل من عيني سعد ، وأسكته تيار بارد منعش عندما تذكر انه بعد لحظات قصيرة سيزف الى عروسه الجديدة زكيه .. (ياله من اسم جميل ـ لله ماألطفه وأزكاه ـ .)

(ان بي ظمأ شديداً الى لمسة حنان .. وبي جوعاً أشد الى رعشة جسد ... الله ... ما احلاك ياأحمد وأبهاك في هذه الليلة فابتسم يازمن ، وصفقي يارياح ،

وغني ياطيور ، ان صاحبك سيحيا من جديد . . سيعوض مافاته من حيرة وحرمان سيغوص في بحر الملذات . . سينال من مطايب عروسه . . سيرشف من مناهل السعادة . . آه . . ماأجمل الحياة ، وما أحلى متاعها ، وهل هناك متاع اجمل من المرأة ؟ ؟ ! ! ! لماذا نبخل على أنفسنا بما أحله الله لنا ؟ ؟ . لماذا خلق الخالق الانثى وكونها في أحسن تكوين وجعل منها متاع الدنيا ولذة الرجل ؟ ؟ ! ! . . ان الله بخلقه حكيم عليم ، فالرجل لاتقنعه امرأة واحدة . . وأنى له ذلك . . لذا فقد أحل له اثنتين ، وثلاثاً ، بل وأربعاً . .) .

وجاشت نفسه ، وتعلقت انظاره الى رؤية زكية ، وأخذها بين يديه . . .

وتعجل القوم الذهاب ، فتحرك ركب صغير من أقاربه وأصدقائه .

وهبطت نسوة من بيته وكل واحدة ترتدي (بدلة النصّه) التقليدية منسوجة من الفضة تتدلى منها قلادة طويلة من حبات التفاح الاخضر الصغير المكلل باكليل فضي او ذهبي . . يفصل بين الواحدة والاخرى (لَبّهَ) من اللؤلؤ الحر ، وزين حلقها طوق من الماس وعقد من اللؤلؤ الثمين ، وقد ارتدت على رأسها (شَنْبَر ، ومِحْرَمة ومَدوّرةَ قَزّ) أبيض مشجوة بقصب من لون البدلة ، (ابيض ، او احمر) . . . يزين جانب الرأس الايسر (ابرة من الماس رعّاشة) بقدر الكف تهتز كلما تحرك الرأس يمنة او يسرة وغطت تلك البدله ملاءة سوداء طويلة ، وبُرْقُع ابيض ينسدل من أعلى الرأس ليغطي الوجه والصدر وبقية مقدمة الجسم حتى يصل الى الاقدام . . وقد غطت الرّجل والساق (الخف والبابوج . .) .

وكانت تسند كل واحدة من السبعة (النصيصات) مساعدة أو اكثر تتقدمهن امرأة شريفة أو سيدة من سلالة الرسول عليه أفضل السلام .

وقد أبت سارة — مربية الولدين — الا ان تشارك سيدها في فرحه و (نصّته) فتمخطرت في ثوب (زبون أزرق) وحشرت نفسها بينهن .

وما ان احتوت النساء العربة المخصصة لهن حتى دوت الغطرفة وملأت كل مكان وزاد سكون الليل واصداء الجبـــال من ارتفاع الضجة وتمزيق هدوء الصمت الذي لف المدينة .

وبعد تحرك الموكب متجهاً الى بيت العروس ، أخذ أكثر الحاضرات يتسللن الى بيوتهن ، ولم يبق في بيت العريس الا عدد قليل من الاقارب جلسن يرقبن عودة العروسين ، وأخذن يهيئن لهما المكان الذي سيضمهما معا .

* * *

– ١٩ –

في الوقت الذي كان فيه بعض الحاضرين يستمتعون بالاستماع الى الاستاذ حمدتو وهو يشدو بالاغاني الخفيفة والآهات العذبة بين رشفات الشاي الأسود والأخضر ، والقهوة العربي ، (وكركرات الشّيش) . . كان الفريق الآخر ينصت برهبة وانسجام الى تلك المجموعة من الاصوات تعلو وتهبط بالادوار اليانية في ترابط وتنسيق يقودهم الشيخ جاد الله يجاوبه من الجانب الآخر المطرب سعدو بجوقته..وكان أكثر المستمعين لهذا النوع من الغناء القديم الشيوخ ، وعشاق الألحان الفولكلورية .

وما لبث أن قام العريس يتهادى في مشيته متجهاً الى مراسيم (النصّة) الى عروسه وهي في (منبر الشرعة) تحيط به النسوة اللائي حضرن معه .. وكانت دقات طبول (اللعابة) تدق تلك الضربات المنتظمة ، وكان صوتها يعلو ويهبط (بالتقاطيف) مبتدئة

اللهم صل على محمد صلى الله عليه وسلم

ثم تواصل غناءها :

وَحَليـــل الصبا ياعَلْوَه
عند باب الحرم في خلوه

ثم تعلن قدوم العريس الى حيث تنتظره عروسه في وجل ، وسط مجموعة كبيرة من النساء والبنات .. وقد ارتدت كل واحدة منهن أجمل مالديها ، وأخذت زينتها الكاملة .. وعيونهن ترقب ذلك المحظوظ الذي أسعده الحظ ، واختطف واحـــدة من بينهن .

كان يحس في كل خطوة يخطوها دبيباً في قلبه ، ورعشة في جسده وقد حاول أن يغض الطرف ، والا يتلفت الى موجات الشعور أو أن يلحظ بحور العيون ، والا ينصت الى زفير القلوب ، وآهات الصدور ، والا يُؤخذ بسحر مايرى أو يُفتن بالحسن يخطر أمامه .. وقد أزاح الحجاب جانباً .. غير أن تيارات العيون المتلاحقة ، والبسمات الخفيفة ، والهمسات التي انسابت في أذنيه .. كل ذلك أوجد عنده إحساساً هو نوع من الفضول ، وحب الاستمتاع من جهة ، .. واحساس آخر لم يجد له تفسيراً غيرأنه نوع من التحدي .. فقدكان يحس أن العيون ترقبه والغمزات تلاحقه ، كما صدم سمعه كلمات فيها من اللمز والغيرة الكثير مما ألهب حسه وأيقظ رجولته .. وما لبثت نفسه أن ارتاحت قليلاً عند سماع كلمات الاعجاب والاطراء تتسلل الى أذنيه .. وأحس بطول المسافة التي يقطعها من مدخل المجلس الى حيث تجلس العروس في الصدر على منبر عال من الخشب الابنوس مكسو بالقماش الاخضر والاحمر أعد خصيصاً لهذه المناسبات ، وقد وضع أمامه كرسي مكسو باللون الأخضر .

تذكر وهو يمشي الهوينا يشق طريقه بين أجسام جميلة وسواعد بضة في نشوة من الروائح العطرية وبخور العود والمسك .. تذكر كيف كان عرضة في زواجه السابق لهجمات الفتيات ووخزهن بالدبابيس والمشابك والابر ، وكيف حاول أن يتجلد في صبر وقوة احتمال كانت محل اعجاب الكثيرات حتى أنهن أشفقن عليه من الألم ...

والتفت يمنة ويسرة ، فوجد أختيه تحيطان به ، كما شعر بأن احدى قريباته تلتحم به من خلف كي تصد عنـــه الهجمات المعاكسة .. وكان صوت الغطاريف يجلجل ويدوي عالياً كل لحظة ...

ولمح عن قرب رأس عروسه يحليه شعرها الأسود الفـاحم وتاج مرصع بالماس يعلوه ، وغلالة من الحرير الأبيض تنسدل في رقة وحياء لتخفي تحتها وجه زكية .. ذلك الوجه الذي كثر حنينه الى رؤيته ، ودارت عيناه في عجل ، وهو لا يحس بشيء حوله سوى أنه يقف أول مرة أمام عروسه ينظر اليها ويتفرس في ذلك الصدر المرمري الذي برز منه نهدان وقفا في تحد وإكبار .. وانتشله من أحلامـــه المتدفقة صوت نسائي يصيح (اللي يحب النبي يصلي عليه .. يا أرض احفظي ماعليك ... الله يحرسك من العين يازين ...) وما لبثت أن اختلطت الأصوات بعضها بعضا ... وقطعت تلك الضجة صوت المـُقـَيـِّنة يخاطب الرجل الواقف أمامها في لهجة آمرة :

(ارفع الغطا ياراجل عن وش العروسة ، واقرأ الفاتحة وصلي على النبي) ...

وتقدم ببطء ، وحذر وبيد مرتعشة ، وفؤاد خافق ، وقلب حائر .. وضع يده اليمنى على رأسها وهو يقرأ الفاتحة ، ثم رفع الغطاء عن وجهها ومال على جبينها يطبع أول قبلة .. وقبل أن تلمس شفتاه صفحة جبينها الأملس التقت عيناه الزائغتان بالعين الناعسة وهي نصف مفتوحة ولمح فيها الشوق والرغبة .. كما قرأ في خفاياها معاني كثيرة جعلته يطيل قبلته بالقدر الذي لا يدع مجالاً للتعليق من العيون التي أحاطت به تراقبه ، ... وقبل أن يجلس على كرسيه حاول أن يدوس بقدمه على رجلي عروسته .. غير أن هذه كانت أسرع منه في سحبها الى الوراء وكأنها تتذكر ما قالته لها البنات اللائي يسبقنها في الزواج خشية أن يكون حظه أقوى من حظها ... وحتى لاتعيش حياة مُنَغَّصَة أو ستكون الغلبة له .

حاول أحمد ياسين أن يركز عينيه على عيني عروسه ، وأن يستشف غور نفسها ويستجلي مكنونها ... إلا أن الحياء غلبها فلم تفتح عينيها ، واذا ما نبهتها واحدة من أقاربها أو صويحباتها الى ذلك ، تبرز ابتسامة خفيفة على طرف محياها . وتنفرج أهدابها في رعشة خفيفة ، ثم ماتلبث أن تسبلها بعد أن تكون قد أرسلت اشعاعاتها الى صدر رجلها فتوقد فيه نار الشوق ، وتؤجج فيه الرغبة .

وعندما أذن للعريس بالقيام ، لم ينس أن يدخل في جيبيه الممتلئين بالريالات (والانصاف والأرباع) الفضية ، وفي بهجة الفرحة ، وتلاحم الأجساد ، وصرخات الأطفال (كَش) الفلوس ، يمنة ويسرة مما أخلى أمامه الطريق وأفسحه ...

وعند استنشاق الهواء النقي خارج البيت أحس أنه لايزال يرى صورة زكية أمامه ... وتحسس شفتيه فوجدها لازالت مخضبة بعطرها ...

* * *

– ٢٠ –

كانت زكية قد استجمعت كل شجاعتها . . وعصرت كل ما تملك من دلال الأنثى . . وركزت حواسها . . ثم ارسلت ألحاظها من تحت اهداب مثقلة بالكحل والاصباغ الى ذلك الرجل الذي اقتحم حياتها ووقف امامها بهامته العريضة وطوله الفارع ، واحست بلهيب انفاسه يلسع جبهتها . . وتيار قوي سريع في اوصالها ، فخدر حواسها ودغدغ اطرافها ، وتمنت لو أن تلك الشفاه الغليظة تعربد في وجهها . . ولو أن ساعديها امتدتا في حركة خاطفة تطوقان عنقه الممتد نحوها لتبقيه أطول مدة تستمتع بلثمة في تقبيله . . وعندما استقر هادئاً أمامها . . سرقت نظرة خاطفة اليه . .

فرأته قوياً من غير عنف ، ووقوراً بدون تصنع ، مهاباً من غير تكلف . . عيناه تشعان ذكاءً وتوقداً ، فمه غليظ منسق ، وقف فوقه شارب أسود مهندم عريض ، واستدارت لحية صغيرة منمقة حول ذقنه . . انفه كالسيف المسلول ، وابتسامته رقيقة وادعة . . وشعرت وهي تنعم النظر في وجهه براحة وطمأنينة . . فهذا هو زوجها . . وهذا هو الرجل الذي سترتبط حياتها به . . يالي من سعيدة محظوظة . . انه قوي ، مكتمل الرجولة . . وهذا ماحلمت به طيلة عمري .

افكار كثيرة ، وخيال عريض اجتاحا زكية وهي تشق طريقها الى بيت الزوجية . . تصحبها اثنتان من أهلها . . خالتها آمنة ، وجدتها لامها . .

(. . هناك سأجده ، وهناك سأبني عش الحياة الجديدة ، وسأنعم باللذات التي سمعتها كثيراً من صويحباتي يتحدثن عنها . . و . . وسأنجب أولاداً . . وبنات . .)

وانتبهت على توقف العربة فجأة أمام بيت العريس . . . وهناك لم تكن الاستعدادات التي اتخذت ، والامكانات التي هيئت تضاهي في بذخها واسرافها ما كان يجري منذ لحظات في بيتها . . فقد اقتصر الحفل على الاهل والاقارب فقط . . وقد خلا البيت الا من عدد قليل . . . وكانت تباشير الصبح قد أطلت ، ونسمات من الهواء البارد تهب فتنعش الوجوه الحالمة ، وتوقظ العيون الناعسة . .

وكانت حركة غير عادية تجري في المجلس الذي سينام فيه العروسان فلقد تهيأ السرير بفراش وثير ، ونصبت عليه (ناموسية) وردية اللون ضمخت بالعطور وماء الورد . . .

وعندما أغلق العريس الباب خلفه . . اغلقت العروس عينها وأسدلت على ماضيها البعيد ستاراً كثيفاً تحتجب الرؤية فيه عن واقعها ، واسترخت في فتور . . وسرعان ما أحست بدبيب اللمس يسري في عروقها ويؤجج دمها . . . بينما جلست خالتها وجدتها في (الصُّفة) المجاورة لهما في صمت كئيب تتطلع الواحدة الى الاخرى

وكأنهما يستبقان الزمن .. يحسبان كل دقيقة تمر، وعيناهما لاتلبثان ان تتحولا الى باب المجلس ... لعل في خروج العريس ما يفرج عنهما ذلك التوجس الذي غشيهما بعد أن سمعتا بأذنين مجوبتين ، وأدركتا بحدس لا يخيب ان المهمة ستنتهي ، وانهما سوف ينعمان بأحلى الأحلام ...

وعندما أشرقت الشمس .. أشرق في تاريخ زكية يوم جديد بانفعالاته ، وأحاسيسه ، وقامت تتهادى من فراشها ، .. تمشي على استحياء ، وتبتسم في خبث لخالتها .. بعد أن أشار زوجها بطرف عينيه الى قطعة قماش بيضاء طويت بعناية ورفق .. فحملتها الخالة وهي تركز عينيها على نقطة حمراء في وسطها ...

كان ذلك (بياض الوش) .. وجرت به الى والد العروس في بشر وكبرياء.

ثم لاحقتها العيون .

* * *

- ٢١ -

نكبر . . فتكبر معنا أفكارنا ، وأمانينا .

وتمر التجارب علينا متلاحقة سريعة . . بعضها قاس مرير ، وبعضها هادىء مريح . . فتكسبنا هذه خبرة ودراية ، وتزيدنا تلك صلابة وعناداً . . غير أن سعداً لم يعن له مطلقاً ان يستفيد من تجاربه القليلة او ان تكون لتجارب الآخرين عبرة له أو تطبعاً لسلوكه .

نشأ طفلاً غريرا . . صلباً في عوده . . معتداً برأيه . . لايتقبل أمراً من أحد ، ولا يستسيغ الاستعانة بمخلوق .

وشب . . وشبت في نفسه هذه الطباع ، وزادت واتسعت ، وصار أكثر جرأة ، وأشد قسوة وعنفاً . . يصحب ذلك ذكاء فطري وسرعة بداهة وحسن تصرف .

وكان فوق ذلك صاحب فلسفة خاصة في الحياة . . يميل الى الزعامة . . بل انه يشعر ان الزعامة لم تخلق الا له ولأمثاله . . في البيت هو الآمر الناهي . . في المدرسة . . هو الذي يقود الفريق في الالعاب والرياضة . . في زقاق الحارة حيث يقضي اكثر اوقاته . . هو (الشيخ) . . لايقطع برأي ، ولا تتم مشورة . . إلا بترتيبه أو موافقته .

كان الفرق بينه وبين أخيه كبيراً في الخُلق . . والفجوة عميقة في الطباع . . الا أن الألفة بينهما عظيمة ، والحب والاحترام يسود علاقاتهما . . وكان خالد يخاف عليه من جفوة أبيهما له ، وكثيراً مالفت نظره الى الاهتمام بدروسه واستذكارها وكان هذا يرد قائلاً :

ـ ياخالد . . ان الحياة تسير وفق هواي وطبقاً لرغباتي .. انا الذي اعيش فيها فلا سلطان لها علي . . انني اذهب الى المدرسة كلما يحلو لي . . واذاكر عندما أجد مزاجاً لذلك . . فاذا نجحت كانت (ضربة حظ) . . والا فالعجلة من الشيطان .

ـ ولكنك ياسعد قد تخلفت كثيراً عن زملائك . . فانت في الصف الأول الآن وأنا اسبقك بأربع سنوات ، والمفروض أن تنهي شهادة الكفاءة هذا العام . . فانظر اين انت الآن ...

ـ اين انا . . واين انت الآن . . وأين ستكون غداً . . ؟ ؟ ؟ من يدري . . ؟ ؟ من يعرف . . ؟ ؟ الحياة كلها أوهام وخيالات نحن نصنعها . . والعمر كله دقائق وأحلام نحن ننسجها . . فلماذا نضيعها ولماذا نؤجلها للمستقبل؟؟

— هذا يكفي . . هذا يكفي . . ستردد مثلك الأعلى وتقول : (اعشني اليوم وأمتني غدا . .) أليس كذلك ؟ ؟ ! ! اذاً قل على الدنيا السلام ، اذا نحن لم نعمل ونكافح ونتعب فما قيمة الحياة ؟؟ انها لا تساوي شيئاً بدون عرق ودموع .. ان من عرف الكفاح ، وعانى المشاق . . عرف اللذة واستطاب النعيم الذي يعقب كل ذلك ...

— ولكني أعيش في نعيم . . نعيمي انا على الاقل . . انظر من أنا . . وماذا كونت لي من رصيد وشعبية في المدرسة . . . والحارة . . . و . . . (أراد ان يقول في البيت أيضاً ...) من يجرؤ على معارضتي ؟ ؟ من يستطيع ان يقف أمامي ؟ ؟ اسحقه بقوتي . . وأقضي عليه بفنون (المضاربة) وأبهره بطرق (المشكلة) ... ان أسما مايطمح اليه اي شاب هو ان يفوق غيره ، وان يبز من هم في سنه ... وانا متفوق على أصحابي جميعاً ... قد لا يعجبك هذا التفوق ولكنه يعجبني أنا . . (وأضاف ضاحكاً . .) انا . . مثلاً . . لايعجبني عزفك المشنف للآذان على آلاتك الموسيقية . . ولا ذاك الهراء الذي تسميه شعراً وتجهد فيه قريحتك . . يكفي أن يكون في اسرتنا ولد نافع مثلك متفوق في دراسته ، بارٌ بوالده ، يوزع قلبه الرحيم على أهله وأقاربه ويملؤ البيت عطفاً وحنانا ...

أما أنا .. فاتركني للزمن .. ان الحياة قاسية معي ، ولكني سأثبت لها أني أقسا منها .. سوف لاتقهرني الأيام .. ولا تهزني الأحداث .. بل سأقهرها وأمشي على جثتها .. سأعيش ... وسأتخرج من أوسع الأبواب .. من الباب العريض لكلية الفلسفة من جامعـــة الحياة وسأحمل شهادة الانطلاق والحرية من دروبها ، ... (وسكت قليلاً .. ثم أضاف ..) إنك ياخالد .. لم تجرب طعم الحرية، ولا مذاق الانعتاق من القيود . . أنت تحبس نفسك في هذه الغرفة المظلمة،

وتمسك بيدك كتاباً لايفارقك ليلاً أو نهاراً ... بينما أمامك المنطلق واسعاً ، وميدان التجارب أوسع .. ماذا ستجني من وراء هذه الرقعة الضيقة من الحياة ، وهذه الرتابة في العيش ...؟؟ إنني أكره انا اكون كالآلة أو كالحيوان .. لا .. إنني لاأستطيع أن ألغي وجودي وأحجر على عقلي .. الحياة .. الحياة .. ما ألذ الانطلاق ، وما أعذب الحرية ...

ونظر اليه خالد في بلاهة ، وقطب جبينه ، وقام يتشاغل عن أخيه ، وعن أفكاره ..

* * *

- ٢٢ -

اتسعت حدقتا سعد .. ورفع حاجبيه استنكاراً لما قاله أخوه .. وشعر بعاصفة من الهياج والغضب تجتاحه وهو يرد بصوت حاول ما استطاع كبته ، ولكنه خرج محشرجاً بالدموع مليئاً بالحقد والكراهية .

ــ أنا لاأصعد اليها مطلقاً .. ليس هناك صلة تربطني بهذه الأفعى .. إن أمي ماتت .. ومات معها شعوري بحب كل امرأة ... وضاع في ذكرياتها احترامي للأخريات ...

ــ هوّن عليك ياأخي .. فالواجب والمنطق ، والذوق .. كل هذه الاعتبارات وغيرها تحتم علينا السلام على أبينا وعلى عروسه ... الا ترى أن من اللباقة أيضاً أن تقول في مناسبة كهذه (مبروك ..) ... كلمة سوف لاتخسر شيئاً بقولها بل ستكسب بها الود والمحبة .. ثم انها ــ خالتنا ــ وفي مقام أمنا .. رضيت أم أبيت .

- الموت أرحم لي من رؤيتها. .وخير لي ولها الا يجمعنا زمان ولا يضمنا مكان .

- ان كل أفراد الأسرة وأعضائها مجتمعون هــذا اليوم . وغيابــك

ــ وحدك ــ سوف يثير الأقاويل وينمي بذور الشك لدى المطلعين على الخلاف بينك وبين أبيك .. فكن أكثر حكمةً وتعقلاً .

وما لبث حتى أقنعه بالسلام على أبيه و (خالته) .. ولم ينس أن يوصيه أيضاً بحسن التصرف واللباقة في حديثه معهما ، والتلطف ماأمكنه في اظهار عواطفه نحوهما

وكان والدهما قد خصص لهما الدور الأول من البيت وترك لهما سارة — المربية — ترعى شؤونهما وتسهر على طلباتهما ، وانفرد هو وعروسه في الطوابق العليا .

كان ذلك اليوم هو .. (يوم السابـع) منذ أن انتقل أحمد ياسين من عالم الوحدة والعزلة الى عالم اللذة والمتعة ، مرت الأيام سريعة نشطة .. وانقضت الليالي مزهرة راقصة اختلى فيها بعروسه ورعيا فيها نجم الليل الساري الى تباشير الفجر الحالم .

كان هو متعطشاً للحب بعد طول انقطاع .. وكانت هي متشوقة لارتياد العالم اللانهائي واستكشاف المجهول فيه .. والانتقال من متاهات الخيال والاحلام الى دنيا الواقع والحقيقة .

كانت تواقة الى من ينتزعها من الكهوف المظلمة ، والصحراء المحرقة التي عاشت فيها تكتوي بنارها وتتخبط في تعاريجها .. الى جنة وارفة الظلال ، طريقها - كما رسمته في خيالها - مفروش بالورود والرياحــين .. تفوح من أرجائها أزكى الروائح والعطور ...

وهكذا التقت اللذة بالرغبة ... واتحد المؤشران السالب والموجب .. وعاشا في تيارين عنيفين مليئين بالذبذبة والانفعال .. وقد اكتسب هو صحة وعافية وازداد حيوية ونشاطاً .. بينما اكتسبت هي نضارة وبهاءاً ، وتوردت وجنتاها ، وزاد وجهها امتلاءً واصطبغ حمرة ...

وأحس كلاهما أنهما ولدا من جديد ، وأن العالم حولهما يصفق طرباً والناس يرقصون فرحاً .

* * *

- ٢٣ -

تقدم خالد في أدب جم وحياء بالغ ، وأخذ يد أبيه يلثمها في حنان صادق . ومد جسمه النحيل يحاول أن يطبع على جبينه قبلة مودة واخلاص .. وشعر الأب في قرارة نفسه بعاطفة جياشة نحو ولده الذي يكن له حباً كبيراً ويحتفظ له بمنزلة خاصة كثيراً ماتوقظها وتؤججها ذكرى أمه .

وعندما أخذ سعد يد والده بين راحته الكبيرة .. كان صدره ممشوقاً وقامته منتصبة ، ولما التقت عيناهما معاً لم يستطع مقاومة النظرة المحرقة التي ألهب بها أحمد ياسين ولده وهو يحدق فيه . فانكفأ على عجل ليقبل يده التي يمسكها في حركة آلية مجردة من الشعور والاحساس ... وما لبث أن استرد سعد يده ووقف غير بعيد ينظر اليه غير متخوف ولا هياب هذه المرة .. وكأنه استجمع أطراف شجاعته .. ولفظ بضع كلمات جافة متمنياً له ولها السعادة والهناء ...

وعندما دفعت ذكية الباب لم تكن قد أحست بوجود الولدين ... فقام خالد يلفه أدب واحترام وسلم عليها ، وعيناه تلمعان ببريق المودة والاستسلام ...

وردت زكية السلام في صوت رخيم ، والتفتت الى سعد وهو يحدجها بنظرات لم يصعب عليها أن تدرك مراميها ، وبدلال الأنثى انصرفت عنه منتظرة أن يبدأها بالتحية كما فعل أخوه .. وطالت الدقائق . وما لبثت أن سمعت صوت زوجها في نبرة حادة يأمره بالسلام عليها .. وفي تثاقل واستصغار مد لها يداً باردة وهو يزمجر .

ـ شرفت البيت .. أرجو أن يكون في مقدمك علينا خيرٌ ...

وأرادت أن تلاطفه قليلاً .. فقالت :

ـ الخير فيكم ، وفي أبيكم ..

ـ اننا مازلنا نعيش في خير كبير ونعمة عظيمة ـ حتى الآن ـ (وضغط على مخارج حروف الكلمات) ...

ـ أدامها الله علينا جميعاً .

وتدخل أحمد ياسين في الحديث .. محاولاً أن ينقل صورة حية وانطباعاً شخصياً عن ولديه .

ـ ان سعداً شاب صريح ولايعرف للمجاملة طريقاً .. انه كما يقول المثل (اللي في قلبه على لسانه) . كما أنه جريء .. ويحب الاستقلال في كل أموره وما يتعلق به .. واقعي جداً .. يعيش ليومه فقط .. ولا يفكر كثيراً في غده .. حتى إنه لا يبدي اهتماماً كبيراً بدراسته . وشغفه بالأغاني الشعبية والأدوار القديمة يملكان عليه لبه وتفكيره ، وطبيعي أن يحفظ منها الكثير .. وفيما يبدو لي ، ومما أعرفه أن هذه هواية طارئة أخذت طريقها اليه .

بينما خالد .. دائب التفكير في مستقبله ... وهو يحاول أن يجعل من الواقع جسراً له .. كما أنه يتمتع بحاسة الفنان ... وفوق هذا وذاك فهو نشط مجتهد في دروسه .

وهكذا هما .. على طرفي نقيض .

فاجأ زكية ماسمعته .. فأرادت أن تقيم الامور وتسدي النصح بطريقة غير مباشرة ...

ـ ان الذي يعيش يومه ولا يفكر في غده .. انسان بلا أمل .. ، ومن لم يعلل النفس بالآمال لاطموح له .. وفاقد الطموح انسان غير ناجح ...

اعتبر سعد أن هذا الكلام طعنة مميتة موجهة لفؤاده،فغلى غيظاً وحنقاً ولم يكن يعوزه الجواب .. إلا أن خالد كان أسرع منه في الكلام :

– بل إن سعداً يعيش بأمل واسع وأحلام عريضة عن المستقبل ... ولكنه كما قال أبي . واقعي أكثر منه متفائلا .. وهو لايدع فرصة تمر دون أن يستفيد منها ، وهذا في رأيي ذكاء ، وتصيد للفرص ...

وكاد الحديث يأخذ طابعاً جدياً لولا قدوم بعض من الأهل والأقارب .. وما لبث أن لف الجميع جو عائلي ... وانقضى النهار – في أحاديث شتى .

* * *

– ٢٤ –

صاح سعد في عصبية ظاهرة وهو متكىء على سريره :

– إذاً فقد أعلنتها حرباً ضروساً عليَّ من أول لقاء .. ألا وربك لأوقفنَّها عند حدها ، ولأرينَّها نجوم الظهر ...

– ولكنها لم تقل شيئاً يستشف منه هجوم أو حربٌ .. بل على العكس .. بدا لي أنها لطيفة ، رقيقة . وزكية .

بهذا أجاب خالد أخاه ، وهو يتقلب على فراش النوم محاولاً أن ينام ، غير أن شعوراً خفياً داخل نفس سعد طرد من عينيه كل أثر للنوم ، وجعله كالسمكة تُقلى في « طاجن زيت » .

– ألم تسمعها وهي تغمزني بالقول .. « فاقد الطموح انسان غير ناجح .. » كيف عرفت أني فاقد الطموح ، وكيف تجرؤ أن تصفني – ان كانت قد عرفت – بأنني خائب .

– ان كلامها هذا مطلق لاتحديد له ، كمن يقرر حقيقة أن الشمس تشرق من الشرق وتغيب من الغرب .. فلا تكن من الحساسية لدرجة التصور ان كل صيحة عليك هي « العدو فاحذروهم » .

– ياسبحان الله .. أخوك .. أو زوجة أبيك .. أو أنك أصبحت لاتشعر بما أشعر به ، أو حتى تغار لغيرتي .. الا يكفي أن يكون زوجها معها ويسندها ويدافع عنها. – وبالمناسبة – ألم تلاحظ عليه تغيراً في تصرفاته وانطلاقاً في ضحكاته .. ألم تر كيف أصبح وجهه يضج بالبشر وكأنه شاب استقبل بشرى نجاحه في امتحان صعب ... ألم تلحظ تلك الحمرة التي اكتساها خداه ... ياللسعيد المحظوظ .. صدق من قال : ان النساء حبائل الشيطان .. لقد استطاعت .. وفي ظرف اسبوع أن تغير منه الشيء الكثير .. استطاعت أن تنسيه حتى صلاة الفجر في الحرم كما كان يفعل من قبل .

أدرك خالد أن أخاه يجره الى نقاش طويل كدأبه معه دوماً . . ووجد نفسه يقول :

– المرأة ياسعد هي الأصل في المجتمع . . وما عداها فروع . . المرأة هي الأم الحنون والزوجة الصالحة . . والاخت البارة .

– والحبيبة المؤنسة ... والعشيقة المذهلة . . أليس كذلك . . حمد الله مابيني وبينها بسور من حديد . . ان المرأة التي احببت قد ماتت . . فليت كل نساء العالم يمتن . . ليت كل الامهات في الدنيا يمتن أيضاً ...

– ان الدنيا لاتستقيم بدون المرأة . . كالانسان لايستطيع المشي برجل واحدة.

– ولكنني استطيع ...

– نعم تستطيع . . ولكنك تبقى أعرجاً . . صاحب عاهة . . ان نصفك الاول حي والآخر مشلول . . وكذلك المجتمع . . ان المرأة في المجتمع كالضوء في

الظلام . . تنير لك الطريق وتمنعك من السقوط . . انها كالوردة اليانعة في الصحراء القاحلة . . انها كالغمامة وسط نهار قائظ تظلك وتحميك من لهيب الشمس الحارة ...

– هذا كلام انسان ضعيف .. الرجل يبقى رجلاً قوياً . . وحيداً كان أو مع امرأة ، ولا بد ان حاستك الفنية يغذيها كلام كهذا ، تستلهم اللحن من تصورك له وتستوحي الالهام من تخيلاتك لشعورك . . وويلي من حاسة تخضع لمثل هذا الضعف ولا تحاول أن تقاومه . . ليت جارتك – عزه – تدري عنك شيئاً أو لعلها تعرف ما تقوله شعراً فيها . . لكان قلبها رق لحالك ، ولبادلتك حباً عذرياً بحب أسطوري . .

– حب أفلاطوني يا جاهل . .

(وما لبث أن شعر انه قد تورط في الاعتراف . .)

– مالك أنت وجارتنا عزه . . ألم أقل لك من قبل ألا تتعرّض لها . .

– ولكن يصعب عليّ أن أراك تتحرق شوقاً وتتلظى كمـــداً وهي لا تشعر بوجودك ، أتدري من يشبهك في حالتك أيها العاشق الولهـان . . العطشان الذي يحاول أن يشرب بواسطة الغربال يغمسه في الماء ثم يحاول أن يرفعه مليئاً . .

– يوماً ما (ستطب) . . وعنـــدها تعرف قيمة الحب ، وتدرك ماذا تعنى المرأة لحياتك . .

– الحب . . ان الساذج هو الذي يطب ، وانت تعرف أخاك . .

– تصبح على خير . . دعني أريد أن أنام . .

– أتمنى لك أحـلاماً جـديدة عن عزه ، ومغامرات تصول فيها وتجول . . ولكن . . قبل أن تنام . . اسمع هذا المجرور الذي ينطبق عليك . . واخذ يردد في نغم ايقاعي بصوت هادىء رخيم :

وبليتني بالمحبة يا دهب في جوف قرطـاس
وحرقت قلبي كما بُنْ انحرق في قلب محماص

ينحرق .. ويندق . . ويعود على النار اللهيبة
وصاح خالد صيحة يشوبها ضحكة مكتومة : (نار لما تشعلل قلبك ..) .

* * *

- ٣٥ -

أفاقت زكيه . . وخصلات من شعرها الثائر تسبح على وجهها ، وتيار خفيف لا يزال يدغدغ حواسها بعد ليلة طويلة ممتعة . . ولم تستطع أن تستبعد صوت سعد وهو يعوى في رأسها ، ونظراته التي حركت فيها قوة مجهولة طالما ترددت اصداؤها داخلها . . فقد تعودت الحرمان من قبل ، وألفت التحدي ، ونمت فيها بذور التمرد ، واستفحلت في نفسها روح الشر حتى لم تعد ترى في الحياة إلاجانبها المرير . . لم تكن تلك القوة غريبـــة عنها . . بل كانت تجري في عروقها كالدم . . تغلى في نفسها كالقطران .. ولقد عانت من كبتها السنين الطوال . .

(اذن . . فأنا أمام تمرد جديد . . تمرد من نوع آخر لم اعتد عليه ولم يسبق أن عشت تجربة معه ، ولكن مع هـــذا فهو تمرد . . تمرد لذيذ . . ويلي منه وويلي عليه . .) وكأن في نفسها روحاً تصفق لهذا الشعور وترحب بقدمه . . فتعلقت على أطراف شفتيها ابتسامة باهتة ، وعربدت في رأسها افكار التحدي ، وتمثل لها الصراع الذي ينشب بين الخير والشر قوياً شرساً . . الصراع الذي ملأت به رأسها الصغير الحكايات التي كانت تقال عن زوجة الأب وحقدها . وولد الزوج وبغضه ، .. واحست كأن انياباً مسمومة تنهش صدرها ، وتمزق جسدها ، وتمنت لو انها تغرز اظافرها في وجهه لتريح اعصابها وتشعر بقوتها وضراوتها .

وتلفتت نحو زوجها النائم الى جوارها . . فرأت مسحة من الهدوء والاطمئنان

تعلو وجهه . . وقرأت فيه آيات الرضا ، وشعرت براحة تلفها ، وتمنت لو انها تدفن رأسها في صدره وتبكي . . .

واحست ان الصراع اكبر من ان تتحمله . انه يكاد ينتزعها من عالمها الوردي الذي تعيش فيه مع رجلها . انه يسحقها . . . وازدادت ضربات قلبها ، واخذ صدرها يعلو ويهبط في حركات عصبية .

وفتح أحمد ياسين عينه ، وأفاق على صوت تنفسها . . ونظر اليها نظرة مليئة بالعطف . . و . . والرغبة . . وابتسم ابتسامة رقيقة كانت هي اللحظة المرتقبة لترتمي على صدره وتجهش بالبكاء . . وصوت متقطع ضعيف يصل الى مسامعه .

ـ سعد . . سعد . . انه يخيفني بنظراته . . ان في عينيه بريقاً مخيفاً من الحقد والكراهية . . لم أستطع أن أنام الليلة الماضية . . ان صورته . . صوته . . صدره المشدود . . عضلاته القوية . . إنه يخيفني . . يفزعني . . .

وأدرك أحمد بفراسته وحدة بصيرته ومما اختزنه من المواقف السابقة بينهما أن زكية آخذة في إجادة الدور التمثيلي . . وأن خوفها أو تخوفها سيكون طريقاً طويلاً ممتداً تحفُّه الاخطار ، ستمهد له بهذا الاسلوب الدراماتيكي ، وان عليه أن يكون حذراً في الاندفاع . . حذراً من الانزلاق . . فان أية زلة ستوقعه في هاوية سحيقة بعيدة المدى مما أوجد عنده شعوراً خاصاً ، وأيقظ فيه عاطفة الأبوة . . وأشعل داخله سعير الرغبة واللذة . . وأيقن أن الصراع بين العقل والعاطفة . . والروح والجسد . . سيكون عنيفاً . . . أعنف من رغباته ، وأشد فتكاً من شهواته . . فتحامل على نفسه وقال في صوت قوي رنان :

ـ ماهذه الأوهام . . ظننتك أعقل من هذا . . سعد . . ماهوإلا طفل غرير ،

ولابد ان حلماً سخيفاً ، أو كابوساً موجعاً قد أرهقك .. فكفي عن هذه التصورات الصبيانية ، وكفكفي دموعك .. (وجذبها اليه في ضمة حنون .. وقال)

— « ان سعد يحتاج الى قليل من عنايتك ورعايتك ، فالابتسامة منك تريحه ، والكلمة الطيبة تسحره ، والمعاملة الحسنة تأسره ، فلماذا لاتجربين ذلك ؟؟ ان قلبك كبير ، وصدرك واسع .. وأنت لاتنقصك الفطنة ولا يعوزك الذكاء .. فلماذا لا تستغلين تلك المواهب في الاستئثار بقلبه وكسب وده .

(وأراد أن يخفف وقع كلامه بعد أن رأى صدى كلماته كالحة على وجهها) .

— ان هاتين العينين لم تخلقا للبكاء .. بل للسحر والافتنان .. وأخذها بين ذراعيه يقبلها .. ويطيّب خاطرها .

* * *

— ٢٦ —

لم تكن الفرحة التي غمرت قلب خالد بنجاحه تقل عن فرحة صديقه حسن برغم أن ترتيبه متخلف عنه اذ احتفظ ذاك بمركز الأولوية على طلاب فصله .. ولم يشعر وهو يهنىء زميله بغير ذلك الشعور الذي ينبع من نفس رضيّة وقلب نقي ، وابتسم حسن وهو يسمع خالد يقول :

— لايسعني الا أن أهنئك من كل قلبي .. كذلك أهنىء نفسي بالنجاح .. غير أني أنبهك من الآن بأن تفوقك سيكون صعباً في الشهادة الثانوية فضاعف جهودك لأنني سأحتفظ بها لنفسي .. فأمامك سنة كاملة تبدأ مذاكرتها من غد .. (وضحك في براءة الأطفال .. وهو يربت بلطف على كتف صديقه ..)

ـ الفضل في نجاحي وتفوقي يعود اليك ياخالد .. فلولاك ، ولولا مساعدتك لما حصلت على هذا التقدير .. لقد كنت دائماً كريماً معي .. ان لساني يعجز عن شكرك في كل ماقدمته لي من عون .. وأتمنى من كل قلبي وجميع جوارحي أن تكون متفوقاً على الجميع في التوجيهية .. لأنك تستحق ذلك بجدارة .

وتبادلا الضحك .. ثم جلسا يضعان الخطة تلو الأخرى في كيفية قضاء الاجازة والكتب التي سيقرآنها .. وذكر خالد أنه وأسرته عازمون على قضاء اجازة الصيف في الطائف (وغمز بعينيه) وأردف .. نزولاً على إرادة الست حرم والدنا .. واقترح عليه أن يقضي معهم أيام الاجازة التي ستكون بين المتناه ، ووادي الوهط والوهيط ، وجبال الهدا والشفا ، وجبال حوايا ، وغدير البنات .. الا أن صديقه اعتذر له قائلاً :

ـ أنت أدرى الناس بي وبأسرتي .. ان علي مسئوليات كثيرة في هـذه الاجازة ـ وكل الاجازات ـ .. ان الخياط عم يعقوب ينتظرني كي أجمع ما تيسر من نقود من وراء خياطة ثياب العيد أساعد بها والدي واخوتي (وتنهد في مرارة وأسى ..) ليتني أستطيع .. ليتني أتمكن من التمتع بالصيف هناك وأهرب من سموم مكة اللافح وقيظها الشديد خصوصاً ونحن مقبلون على فصول الجوزاء ، والأسد والسنبلة ..

ـ لعلك لاتعـدم وسيلة في قضاء أيام معنا .. فان فعلت فأنت ضيفنا ..

واقتحم الغرفة سعد ـ فجأة ـ وهو يشدو بدانة طويلة :

يوم حبـك رمـاني

والعيون القواتل .. ياعيني

قلت ياالخيل باطـل

آه باطـل .. ياعيني

قــــد عشقتو وعــادو
طفل بين الكوافل .. ياعيني
صـــار للروح قتّــال
آه قتـــال .. ياعيني

قاطعه خالد بعد أن نفذ صبره .

ــ هابشّر .. ان شاء الله ناجح :

ــ تصور .. تصور اني نجحت بعد بقائي سنتين فقط في فصل واحد .

ــ ولكن أحمد الله على نجاحك ياأخي .. نحن أيضاً (وأشار الى صديقه) نجحنا والحمد لله .

ــ نعم سأحمده .. ولكن سأحمده على طريقتي الخاصة .. (وحملق في وجه أخيه وفي صديقه برهة ..) .. ولكن لماذا أحمده .. هــــذا المسخ سيكون في التوجيهية .. وأنا .. ابن احمد ياسين .. التاجر الكبير ، وابن البلد المعروف أتعثر في طريقي الى الكفاءة .. احمداه انت وصاحبك هذا .

ــ ولكن ياسعد .. هذا كفر بنعمة الله ، وعصيان لإرادته سبحانه وتعالى ولا تنس أن لكل مجتهد نصيباً .. أنت لاتذاكر مثلنا ، ووقتك كله يضيع في تلك الأغاني .. والغياب عن البيت ، ومجالسة أولاد الحارة .

ــ لاادري لماذا تعرض بالأغاني الشعبية دائماً .. انها طبعاً فوق مستوى عزفك الذي لايرقى الى مصاف « الصهبا ، والمجرور ، ولايصل حتى الى الدّانة أوالفرعي ..» انك تحبس نفسك في هذه الغرفة تدندن بالقــــدر الذي يكفي لازعاجك ، وازعاج الجيران .. وتوقف قليلاً كمن يتذكر شيئاً .. وعلى ذكر الجيران (قالها وهو يضحك) كيف ستنقل نبأ نجاحك ، وخبر سفرك الى الطائف الى .. الى عزه ..

واحمر وجه خالد عند سماعه للاسم ، ووقف غاضباً يريد الهجوم على أخيه .. الا أن هذا كان أسرع من البرق وصوته يعلو بالغناء :

قالوا حبيبك مسافر قلت ليت السفر ما كان
يجعل طريقـــه زمرد والحصى مرجـان
والشمس خيمـــة مظلة والبحر صيوان
لالى لال يالالى لالى . . لال

* * *

- ٣٧ -

« نحن الذين نغير أنفسنا ونكيفها بحسب ارادتنا . . نحن وحـدنا المسؤلون عن سعادتنا ... فالسعادة ليست نجماً بعيداً يتلألأ في السماء نراه بأعيننا ولا نلمسه بأيدينا .. انها في داخلنا . . في قرارتنا . . نستطيع أن نوجدها متى شئنا ، وكيفما اردنا ... »

« ولكن لماذا يمتليء هذا الكون بالسعداء .. ويزخر بالتعساء ؟ ؟ لماذا يستمتع أولئك بأيامهم ، وحياتهم ؟ ؟ بينما يقاسي هؤلاء الشقاء ، ولا يجدون للسعادة منفذاً؟. ألأنهم ضلوا الطريق وتاهوا في دروب الحياة المتعرجة ؟؟ أم لأنهم لم يستطيعوا كشف انفسهم ومعرفة مايريدون ؟ ؟ ... »

امتلأ رأس أحمد ياسين بهذه الافكار وهو يجلس في دكانه أول مرة بعد غياب دام طويلًا قضاه مع زوجته سعيداً بحبه معها مستعذباً الاتجـــاه الجديد في افكاره وما أسماه هو بفلسفة الحياة الحسية .

وعندما توافد عليه اصدقاؤه وجيرانه من اصحاب المحلات التجارية مهنئين . . امضى سحابة يومه معهم في حديث عابر عن السوق والتجارة والاسعار . . واستبقى

صديقه عباس ، وكان يأنس به ويرتاح اليه ، وقال له بعد أن شعر بثقل ما تجيش به نفسه من مشاعر وأحاسيس . . وكأنه أراد أن يتخلص منها . .

ـ أتدري يا صديقي ما هو أجمل شيء في الوجود ؟ ؟ . . (وفتح عباس فمه دهشة واستغراباً .. وحملق بعينين بدا عليها لأول وهلة الغباء ..) . . انه الحب . . الحب الذي ينقلك من واقعك المرير الى دنيا الاحلام . . الحب الذي يعزف الحان السعادة فتطرب لها وتتمايل معها .. الحب الذي يتسلل الى حياتنا فيحيل ظلامها نوراً ... وصحراءها بساتين ..

ـ ما شاء الله . . ماشاء الله . . فتح الفتاح على أخينا العريس وصار عاشقاً والهاً . . وتحول من تاجر الى فيلسوف .

ـ كف عن هذا الاسلوب الساخر ... ليتك تمر بتجربة حب فتتحول هذه اللامبالاة التي تعيش فيها ، وهذه الفكاهات التي تبعثرها .. الى عقل يزن الامور ويقدر العواقب . ليتك تعرف الحب مرة .. فستجد انه الروح الدافعة للانسان .. للخلق والابتكار .. وتذكر .. انه متى كانت حياتك مجدبة .. خالية من الحب .. فقدت اهميتها ، واصبحت انت ذاتك تعيش بلا أمل .. بلا معنى .. بلا هدف .. وعندما تفقد الحياة روحها تصل الى حالة انعدام الشعور ، والحس ، واللذة .. وعندها تصبح مادة جامدة لا فرق بينك وبين الآلة ..

ـ (الا في سبيل الحب ما أنا قائل) .. رحم الله المتنبي .. كان يجب أن يقول هذا بدلاً من المجد الذي هو فاعله ..

ولكن .. كيف توصلت الى هذا الحكم في أيام قليلة .. أرى ـ والرأي الأتم لحضرتكم ـ أن استعدادك في الكلام عن الحب يبشر بمستقبل لا يطمئنني .. أنني أخاف عليك من الاندفاع .. من أنك تصحو في يوم من الأيام وتجد ان من غرست الورود في دربك .. ستزرع الشوك في طريقك . وان من سقتك الشهد بيدها

اليمنى ستقدم لك المر بيدها اليسرى .. وعندما تفيق من نومك وتصحو من غفلتك .. ويشدك الحنين الى وردة جميلة ،وتشتاق الى كأس جديدة تضيع بين هذه وتلك ،وتقضي عمرك باحثا عن حب خالد .. فلا تجده الا في أشعارك التي تحفظها .. وستلعن عندها الفلسفة وماجرته عليك من ذيول .

– (فأل الله ولا فألك ياشيخ) .. الحب يعمر في القلب كما تعمر السلحفاة واذا كنت قد خلطت بين الحب والرغبة .. فذاك بحث آخر .

– ولكني لا أجد فرقاً بين الحب .. وبين الرغبة .. كل منهما يكمل الآخر . خطان متوازيان يسيران جنباً الى جنب لا يمكن الفصل بينهما .. كخطي قطار يسير عليهما .. والرغبة تغذي الحب .. فاذا ضعفت الرغبة .. ضعف الغذاء .. وإذا قل الغذاء شحب الحب .. واذا اضمحل الحب .. مشينا في جنازة شهيد الغرام .

– لم أرك في يوم جاداً .. والذي أود معرفته . وأدفع روحي فداء له .. هو كيف تعيش بلا حب .. كيف تستنشق هواء دون أن يهتز قلبك ، ويرتعش فؤادك .. ألم تسمع قول الشاعر :

ما أضيع اليوم الذي مر بي   من غير أن أهوى وأن أعشقا

– بلى عرفته ولكن بالصيغة هذه :

ما أضيع اليوم الذي مر بي   من غير أن أفرح أو أضحكا

وضحك الاثنان .. وقام أحمد ياسين متجهاً نحو البيت وهو يردد قول صاحبه : « الرغبة تغذي الحب . . »

* * *

– ٢٨ –

بذل حسن جهداً كبيراً وهو يحاول أن يسيطر على نفسه ويرتب أفكاره ،، وما لبث أن قال لصديقه خالد :

– مارأيك في تغيير جو .. في أن تنتقل من عالم الاغنياء الى دنيا الفقراء ،، ولو لساعات .

انني ووالدتي نرغب في دعوتك لتناول الغذاء معنا غداً .. اني آمل أن تزور البيت الذي نسكنه في جبل (أبو قبيس) وفي أن تمر بالازقة الضيقة ، تصعد « دُحنْدِيرَة » الجبل في قوة الشباب ، وعزم الرجال .. تصدم عينيك البيوت الحجرية المتهدمة ، « والرّواشين » الخشبية المتهالكة فترى كيف تتلصص من تحت « الغُولَة » ومن (خلف الكَبَرِيتَه) عيون زائغة تخفي وراءها قلوباً حائرة .. (وأخذ نفساً طويلاً .. وقال) .. غير أني أشفق عليك من أن تصاب بخيبة أمل عندما تصدم أنفك روائح (الدبّول) وهي تتسرب في منحدرات الجبل ، وأكوام القمامة المبعثرة في طريقك الضيق .. كما أخشى عليك من قطعان الكلاب السائبة والتي تتوالد وتترعرع في جبال مكة .

– ولكني ياحسن لست غريباً عن هذا الجو الذي بالغت في وصفه ، كما أنني أعرفه جيداً .. ان هذه الجبال ودروبها هي في دمي ، وروائحها مألوفة عندي .. انني – وربما لاتدري – أقوم دوما بزيارة قريبة لنا تسكن (جبل الكعبة) .. (وأضاف بصوت حزين .) ،إن الفقر ليس عيباً ،أوشيئاً نتحرج منه.. انني وان كنت أعيش في بحبوحة من العيش فماذلك الا لأن هذا نصيبي في الحياة وحظي منها.. غير أن هذا النعيم وذلك الرخاء لايُغَيِّران من النفس الا بالقدر الذي تكون النفس مهيأة له.. ان العاقل هو من تحكم في غرائزه وسيرها وفقه ، ووجهها حسبما يريد .. انني أرحب بزيارتكم ، بل اني سعيد وسأسعد بها ، فالسعادة ليست وقفاً على الأثرياء .. كم من بيت كبير .. الهم فيه أكبر .. ان حياة البسطاء توحي إليّ بأشياء كثيرة عريقة الصلة بنفسي .. لها جذور في أعماقي .. ان أهل أمي عاشوا ولا زالوا يعيشون في ضنك ، ومع ذلك ،

فالابتسامة لم تختف من شفاههم ، ولم تحجب تلك الحياة الصعبة من قلوبهم الرحمة ، ولم تمنع عنهم الامل .

أحس حسن بأن صديقه صادق فيما يقول ، وأن كلامه يترجم مايدور في نفسه من عطف ورقة .. فابتسم راضياً ..

أدرك خالد وهو يلج الباب الخشبي الكبير في مدخل البيت ومن منظر القطعة الهزيلة التي تعيش معهم حالة الفقر التي يحتملها صديقه حسن ، ومشى في (سيب) طويل مالبث ان ادى به الى حوش تنتصب وسطه شجرة نبق كبيرة ، وفي الركن البعيد منه قامت غرفتان جدارهما من الأحجار وسقفها (صَنْدقه تَنَك) .. أشار اليها حسن بان امه واخوته يقمن فيها ، وفي الركن القريب من المدخل كانت هناك حجرتان مسقفتان (بالخشب والدوم) مالبث الصديقان أن ولجا الأولى منها..

كانت الحجرة بمثابة المجلس ، صفت على جميع اطرافه (الكَرَوِيتات) ووضعت عليها (الَّيانات) ومن فوقها فوش بساط أحمر ، ورصت من فوقها المساند المعمولة من (الطِّرْف) وغطت أطرافها (البَيّاضية) المطرزة وقد ازدانت (بالتَّنْتَنَه) .. وغطى أرضية الغرفة (حنبل هندي) (بُقَشْ) فرشت من تحته خَصَفة تكروني) لتمنع عنه التراب .

وفي ركن من الغرفة وضعت (نَصْبة الشاهي) عليها السموار الفارسي ، والفناجيل (المسكوفي) ، والملاعق وعلبتان من المعدن للسكر والشاهي ، غطيت جميعها بمنشفة ملونة .. وقد حملت هذه الأدوات على (تَخْته) مصنوعة من الخشب (المَلَكّكْ) .

مالبث أن اقبلت امرأة نحيلة في الخمسين من عمرها . مرتدية صديرية بيضاء تتدلى منها أزارير ذهب ربطت بسلسلة ذهبية ثخينة (هي كما كانت تقول .. عقدة

كفنها) وتأزرت (بفوطة سَمِرَنْدة) واختمرت (بسفع بوال) .. ومدت يدها في حياء وأدب الى ضيفهم العزيز ، وهي تقول في لغة عربية مكسرة) ..

— شرفت بيتنا ياسيدي خالد ، هادا والله اليوم اللي كنا دائماً نتمناه .. ونظرت الى ابنها الذي ملأه الفخر والاعتزاز ..

شكرها خالد في لطف ، وأثنى على ولدها أيضاً ..

وبعد لحظات وضعت (طَبْلِيّة الطعام) على الأرض ، واخذوا يأكلون والبشر يطفح على وجوههم ..

وسمع خالد صوت أم حسن تقول :

— عسى أن أكلنا الجاوى يعجبك ان شاء الله .

— انه لذيذ ، ولكنه حار .. انني احتاج الى الاطفائية لتطفي النار التي شبت في معدتي ..

انتهز حسن هذه الفرصة التي كثيراً ماترقبها ، وقال في سرعة وهمس ..

— ولكنك تحتاج الى اطفائية تطفي النار الاخرى .. نار عزه .

— ها .. (رفع خالد رأسه دهشة واستغراباً) وانتاب حسن نوع من الارتباك ولكن نظرات صديقه الشاردة ونفسيته الهادئة شجعته على الاستمرار في الحديث الذي قطعه تخوفاً وهيبة :

— لماذا لم تخبرني عنها ؟؟ ولماذا تكتم السر عني ؟

— سأخبرك فيما بعد ، فانا محتاج الى مشورة صديق عندما اعزم أمري وأصل الى قرار نهائي ..

* * *

- ٢٩ -

لم تكن الشهور الأولى تمر من حياة زكية بانفعالاتها وطاقاتها الحسية حتى تفتحت فيها غرائز مكبوتة .. وأطلت برأسها الى دنياها الجديـدة .. قوية .. متدفقة جبارة ...

وطاف بذهنها شريط الماضي من حياتها .. والطريقـــة التي ربيت عليها .. وأسلوب المعاملة الذي نشأت عليه .. وانتابها شعور جديد .. خليط بين الماضي ، والمستقبل .. مزيج بين الأمس البعيد ، واليوم الحاضر ..

هناك .. كانت حبيسة الجدار .. واليوم هي حرة طليقـــة . كانت فريسة مشاعرها ، ورغباتها تنهش فيها وفي جسدها الناضج .. واليوم هي مندفعة اليها تغب منها انّى ارادت .

بالأمس كانت مجرد فرد في الأسرة .. تحركاتها مرصودة ، واقامتها محددة .. واليوم هي سيدة هذا البيت ، وصاحبة السيادة عليه .

إذاً .. فهنا الخيط الوهمي الذي يفصل بين حياة الشقاء ودنيا السعادة ..

هنا نقطة التحول من الاحلام الى الواقع ..

هناك نبني قصوراً من الأوهام والتخيلات .. وهنا نضع عليها اللمسات الاخيرة لتصبح جنة حقيقية نعيش فيها ونتظلل بفيئها ..

الزواج هوالطريق الذي ينقل الفتاة من دنيا السذاجة والضياع في خضم التطورات الى دنيا الادراك والمتعة ..

اهذه هي سنة الحياة ؟؟

ألهذا خلقن نحن النساء ؟؟

وما دوري الآن ؟ ؟

هل اكتفي بأن اكون (بالوعة) تصب فيها الشهوات ؟؟

هل اكتفي بأن اكون (قربة ماء) تحمل وتفرغ ؟؟

لا .. ليس لهذا تزوجت ..

لابد ان اكون سيدة هذا البيت ، وصاحبة الكلمة الأولى فيه .. فزوجي .. سأعرف كيف أسيطر عليه وأجعله رهن إشارتي .. والولدان .. آه .. ليس من العسير التغلب على مراهقتهما ، والتحكم فيهما ..

ولكن .. هل يكفي جمال المرأة وأنوثتها لتملك كل شيء ؟؟

واذا ملكت أنا قلب الرجل واستحوذت على عواطفه .. هل أستطيع أن أمتلك عقله وجوارحه ؟؟

ان أمامي طريقاً طويلاً لابد أن أقطعه وأنا أشد ما أكون حذراً .. » وجاءها صوت سعد يطنّ في أذنها قوياً .. « مازلنا نعيش في خير كبير .. ونعمة عظيمة حتى الآن ... »

ماذا يقصد هذا المغرور ؟؟ أيظنني نذير شؤم وأراد أن يحذرني ؟؟

أم تراه أراد أن يعبر عما في نفسه من كره وحقد ؟؟

أم أنه رمى بقوله الى أن أي مكروه سيلحق بهم سيكون مرده اليّ ؟؟؟

وهاجت في نفس زكية روح الشر ، وازدادت ضربات قلبها ، واهتزت أطراف يديها ، كما اتسعت حدقتاها .. وأحست كأن شيئاً يخنقها ... لم تكن العبرات وحدها ، وانما كانت هناك قوة هائلة لاتدري كنهها ولا تعرف مصدرها هي التي تداهمها كلما اعترض تفكيرها خاطر ، أو واجهتها مشكلة يعجز عقلها عن

حلها ، ... وصممت على أن تقهر صمتها ، وتواجه قدرها بقوة ، وعزمت على المضي في الطريق حتى نهايته مكتسحة أمامها كل ما يعرقل مسيرتها ، ويعطل حركتها حتى لو كان ذلك المغرور .. سعداً .. فلابد أن تكون سيدة هذا البيت مهما كلفها ذلك من أمر ...

وتوعدت نفسها ان لم تنتصر ..

وتذكرت « إن كيدهن عظيم » وهزت رأسها مؤيدة .. صدق الله العظيم

* * *

— ٣٠ —

ترقرقت نسمات الصباح مهفهفة باردة مضمخة بأنفاس الورد ، وروائح العنب ، والخوخ ، وانتشى الطائف بحبات المطر المتساقطة ولبس حلة سندسية خضراء ، وداعبت الريح الباردة وجوه الأسرة القادمة من مكة هروباً من حرها ولفحة سمومها ...

واخترق صوت « الحدري » أذن سعد ، فهب نشطاً متحمساً يركض الى النافذة ليتابع ذلك الصوت الفطري يرسله بدوي يحدو جماله وهي محملة بالفواكه والخضر تتجه الى السوق ، وتابعت عيناه « قطار الجمال » تتهادى في تؤدة ولين ، وغناء صاحبها يحثها على السير .. وطربت نفسه وثار فيها الحنين والرغبة الى تعلم ذلك النوع من الغناء والذي تمنى أن يقف على أصوله ولحنه ، وحاول تقليده وأخذ ينشد » .

طيري يالي على درب الهوى ما يملّـي

صِحْتَ لو صيحة وحبيبي مافِطِنْ لي

إلا أن طبقات صوته لم تساعده على إجادة النغم فسكت متحسراً ، وعندما صحا بقية القوم ، كانت الشمس قد غطت الطائف ، وأرسلت أشعتها الحـــارة ، فأيقظت النائمين ..

سارت الحياة وديعة هادئة .. يقضيها كل فرد من الأسرة على الطريقة التي تناسبه ..

فالشيخ أحمد ياسين يقضي يومه في شراء ما يلزم للبيت ، ثم يمضي بقية النهار في سويقه عند صديقه نعيم تاجر النسيج السوري .

وانشغل خالد بالقراءة والاطلاع ، ورسم لوحات شعرية مستوحاة من الطبيعة الحية ، والبساتين الغناء ، والجبال المحيطة بالطائف ، وعيونه وآباره .. كما كان يستلهم ألحاناً عذبة يرسلها سراً الى من ملكت عليه لبّه وتفكيره .. وكان يتمنى لو أن عزه تلك التي يحبها في صمت ويخفي أمرها عن الآخرين .. قريبة منه ...

وقنعت سارة بالجلوس في البيت ، تشرف على راحة ولديها ، وفي كل مناسبة (تخطف رجلها لزيارة مسجد ابن عباس) وتعود مرتاحة النفس خالية البال .. وكثيراً ما كانت تقوم بزيارة أسرة نعيم المكونة من زوجته وابنته نادية أو تستقبلها في بيت سيدها .

أما سعد .. فكان يركض يمنة ويسرة ، يقضي أكثر أوقاته خارج البيت جرياً وراء « البِشَكْ » وشلل الغناء والأدوار اليمانية والصهبا .. وكان يجتمع بعيال مكة في وادي الشهداء ، ومسيال حوايا للعب (الكَبَتْ) عصراً ، والبلوت ليلاً .

وأجمل أوقات زكية كانت تقضيها في ربوع بساتين المثناه (الرقاب والشريعة خاصة) وبُستان الفَيْصلية بِشُبْرا ، والجهنمية بِقَرْوا .. حيث يجتمع النساء عصر كل يوم يتفرغن للّقاءات المرتبة أو بطريق المصادفة .. وفي كل يوم تتجدد المفاجآت

بروئية صديقة أو قريبة .. وعندها تلوك الألسن سـيرة كل بيت ، وتتلذذ النساء بالحديث عن فلانة والخلاف الأخير الذي نشأ بينها وبين زوجها .. وعلاّنة .. والعلاقة الجديدة بينها وبين هذه وتلك .

وكانت زكية « كالدبور » ممتلئة حركة ونشاطاً ، ترافقها في جميع تحركاتها صديقتها منذ الطفولة زهرة ، تمضيان الأمسيات الجميلة ، وتستمتعان بالعصريات المزهرة. وقبل نهاية الصيف ورجوع العائلات الى مكة ، جرت العادة بأن يتحدد موعد للقاء حريمي عام في أحد بساتين المتناه ..

وسرى خبر ذلك اليوم في البيوت كما تسري الكهرباء في أسلاكها ، وكما تلتهم النار هشيم الحطب ..

واستعدت كل واحدة منهن باتخاذ زينتها واعداد « كُرْته جديدة » للحضور بها في الموعد ...

ومما زاد في تلهف النساء على الحضور في يوم التوديع المشهود أنّ (واحدة من أشهر اللّعابات) ستحيي تلك العصرية والأمسية باغانيها الشعبية وصوتها الرخيم بين دقات (الطبلة والطار) . وقوة حنجرة المرددات وما يترتب على ذلك من أنس وضحك ومرح و ...

وتقاطرت (عربات الكارو) واحدة بعد الأخرى .. وصار يسمع صليل العربة ، وصوت وقع حوافر الخيل بجلجل الصخور والاحجار ، وما تلبث أن تغوص العجلات الدقيقة المصنوعـة من الخشب في الرمال التي تفرش جزءاً من طريق المتناه ...

وطارت مع نسمات الهواء القليلة ضحكات رنانة وأصوات رخيمة : - ويْ يابويا .. هادي إشْبَها العربية مْخَلْوعَة .. بشويش الله يخليك .. بعدين الكرته تتْجَعْلَك ... والقُنْعَة تتكرمش .

ـ لا .. يا أمي .. العربية مابيها شي .. هـذا الطريق بطـّال .. قلنا لـكم ريالين ماتِكـَفّي العربية ولا الحصان ولا قائد الحصان (يجيب العربجي) ..

وعندما تمتزج ألوان الملابس المتعددة بخضرة الأشجار ، وتعكس أشعة الشمس بريق الحلي والمجوهرات التي زينت الصدور المومرية والنحور البلورية .. عندها تأخذ الأنفاس في الاختناق ، وتدب الحرارة في قلوب العذارى .. وتنفرج أسارير النساء ، عند رؤية بعضهن بعضاً .. وتنتحي كل واحـــدة بصديقتها تحت شجرة وارفة .. وتجتمع الشلل في كل ركن من أركان البستان ..

وتأخذ اللعابـــة في الدق والغناء .. وتنتشي وتندمج حتى لاتعود تحس بمن حولها ...

وتسمع مقتطفات من أحاديثهن :

ـ شُفْتي يازينب هادِيكَه البنت اللّي لابسه الكُرْته الحمرا ...

ـ ايوه .. شايفتها ...

ـ ما أدري .. شايفه كيف .. ولا كأنها اللاّطاووس .. شايفـه نفسها في عما ونُصْ .. على إيهْ .. ياحسرتي عليها ...

ـ طيب .. بَلْكِين أبوها غَنِي .. والا بَلْكِين قماش الكرتـه غالي .. وعشان كده ما أحد مِمَلـّي عينها ..

ـ قِطِـعْ هـادا القماش ، وقِطْع اللـّي يلبـ ـه ، هادا جا من سنة ماحفروا البحر بابرة ، ولا عاد صار يلبسوه الا البَنـْقالا .. (وتسمع همسات حائرة :)

ـ وَيْ يا أمي .. ما أدري إشبها خالتك مصباح دَايْره زَيْ اللّوبَه عَصَبْها زي الحديد .. مَانِي شايفتها اللاّ قايمة قاعدة ..

ـ والله الجو نَصَحْ معا كي يافِتّو .. وصار على كل خد وردة ، بسم الله ما

شاء الله .. انتي بتاكلي مع العُمِي ياأختي والا ايه .. شوفي لك دِبْرَه في نفسك ، واللابعدين يحسدوكي الناس .

– ماسمعتي يافوزية .. بيقولوا معتوقـــة ما قدرت مسكينة تجي اليوم لأنها اتخاصمت مع زوجها .. وَأدّاها علقة .. ياعيني .. قطّع لحمها .. جاتُه ضربة ان شاء الله .

وصاحت اللعابة بصوت عال وشرعت في (دانه) طال انتظار الجميـع له :

أبدعت باسمك يا صمد
يا متكفل بالرعيـــة
يامعتـني يـــاحنون
المِعَنّـى يقــول
ياناس جرت لي قضية
رأيت منها الفنون
أهْيَفْ وحاوي المعاني
بروحي فديته وعينيّه
قتل المولـع يهون
بليتني والله بالهـــوى
أغلقت بابـــه عَليّه
عزك عـــلي يـدوم

* * *

- ٣١ -

كان خالد أول المشتاقين الى الرجوع الى مكة ، فقد بات قلق الفؤاد ، زائغ العينين ، مضطرب النفس .. ولم تنفع تسلية الطائف وبرودة جوه في تسكين ما اضطرم من عواطفه ، أو إخماد أوار النار التي اشتعلت داخله ... كان يترقب العودة ويحن الى بيته . ويشتاق الى الجلوس في غرفته .. ولم يجد وسيلة يرفه بها عن نفسه المكتئبة أو يخفف عنه أزمته الحادة سوى خياله يرسله هنا وهناك ، وتصوراته تداعب حسه ، وتجمعه في لقاءات متعددة بتلك التي شغلت تفكيره .. عزه .

فبرغم أن خالداً نشأ وترعرع في جو مغلق محاطاً بعيون ترقبه ، وتقاليد ترهبه ، إلا أن هـذا وذاك لم يمنعا عينيه من أن تتلاقى مع عيني عزه من خلال الشباك صباح ومساء كل يوم .. كان البيتان متقاربين متقابلين .. ينفتح الزقاق الضيق لعدة أمتار ثم تتلاقى الشبابيك وتتلاحم كلما ارتفعت البيوت عالياً .. حتى لتكاد أن تتلامس ...

كان حباً دفيناً .. غرسته الطفولة ، ورعته الأوقات التي كانا يقضيانها معاً وهما زهرتان غضتان،وعندما أينعتا وتفتحتا عطشاوَيْن للحب كانت العادات والتقاليد أسرع منها وأقسى حكماً .. فكان الحجاب لها متوصداً ، وكانت خيبة الأمل له نهاية .. لم يسعدا بلقاء المحبين . ولم يعرفا من دنياهما شيئاً .. كانت براءة الطفولة تغلب عليهما والحياء يلفهما وهما في أول مراحل الحب .. حتى إذا كبرا لم تكن هناك وسيلة للتعبير عن نفسيهما سوى تلك الدقائق من عمرهما والتي حرصا عليها موعداً ولقاءً كل يوم ..

كان حباً في صمت ،وإعجاباً وإكباراً لبعضهما،ومراعاة للتقاليد ، واحتراماً للأسرة، وخوفاً من أن ترقبهما العيون ، وقلقاً من انقطاع تلك العادة .. لم يعرف خالد يوماً

تأخرت فيه عزة عن الوقوف وراء شباكها منتظرة ، كما لم يخيب هو أملها مرة في التخلف لحظة .. وكانت وسيلة التعبـــير عن مراحل الحب وتطوره هي الأغاني .. يرسلها الراديو بصوت يسمعه الطرف الآخر ، فينقل بذلك الأحاسيس والشعور ، لم يجرؤا على اللقاء ، ولم يتمكنا من المراسلة ، وبات كل منهما ينتظر مصيره المجهول بأمل كبير وخيال عريض .

وبعودة الأسرة من مصيفها .. عادت الروح الى قلبين لم يألفا الافتراق ولم يغب أحدهما عن ناظر الآخر .

وأسرع في خُطىً مرتبكة الى الشباك ، لايحس بمن حوله وجوداً ... والتقت عيناهما وشعر بقلبه يسقط بين جنبيه ، ورأى الحيرة تبدو على محياها وحمرة خفيفة تصبغ وجنتيها ، وأحس أنه يسمع ضربات قلبها ، وتمنى لو أنه يقفز من الشباك ويطير اليها .. يده تلامس يديْها ، وثغره يطبع على جبينها قبلة حارة ، ويندس أنفـــه في خصلات شعرها المتموجة ويغيب في رحيق شعرها البنفسجي .. وقرأ علامات السرور واللهفة على وجهها ، وتذكر أنه يريد أن يعبر لها عن تفكيره بها ، وأن يكشف لها عما بنفسه من شوق اليها ، ورغبة في لقائها .. فأسرع الى الراديو يدير مؤشره وينقله من محطة الى أخرى عله يجد أغنية تعبر لها عن ذلك ، ولما لم يجد .. أسرع الى حقيبته يفتحها ويأخذ منها رمانة كبيرة كتب عليها كلمات خطها في عجلة وارتباك : (آه لو تعلمين ما أقاسيه من ألم البين وعذاب الفراق ..) وكتب على سفرجلة : (أحبك .. أنت أغلى شيء في دنياي .. أنت وجودي كله ..) وقذف بهما بقوة وعناية الى وسط غرفتها .. والتفت الى الوراء .. ووقف مشدوهاً مرتعدة فرائصه ، واختلط الخوف بالغضب فلم يبقيا منه شيئاً ، وحاول الكلام إلا أن لسانه انعقد وسط حلقه ولم يدر ماذا يقول .. ووقفت زكية ترقبه ثوان معدودات .. وما لبثت أن قالت في صوت مليء بالتهكم والسخرية .

ـ يبدو أنكما تعرفان بعضكما جيداً ، ومتشوقان الى رؤية أحدكم الآخر .. (ولما لم يجب واصلت كلامها) .. لم لم تخبرني عنها ياخالد من قبل ؟؟ وقل لي ما اسمها ؟؟

ـ عزه

ـ هل تتلاقيان ؟؟

واستجمع خالد شتات نفسه ، وعرف أنها ستنهال عليه بالأسئلة ان لم يضع حداً لها .. فتغافل عن السؤال وقال :

ـ كيف دخلت الى حجرتي دون أن أحس بك ؟؟

ـ ومن أين لك أن تحس وأنت تتحرك مسلوب الارادة ؟؟ لقد مضى علي وقت كبير وأنا واقفة .. رأيت .. وشاهدت كل حركة قمت بها ... وبودي لو أعرف ماذا كتبت لها ..

ـ ولكن ...

ـ .. ان أردت أن يبقى سرك في بئر .. فاخــبرني .. وإلا ، فوالدك لايرضى بأذية الجيران !!

ـ أذيه .. من قال أني أوذي الجيران .. ان لنا سنين طويلة ونحن نقف هكذا ، ولم يضجر أحد ، لا .. بل لم يعرف أحد ذلك ..

ـ أرأيت أنك ولد عفريت .. كم سنة ياترى ؟؟

ـ ليس هذا مهماً .. المهم هو ألا يعرف أبي ذلك .

ـ اذا نفذت شروطي !

ولم يجد خالد بداً من الإذعان ...

وشعرت ذكية بأنها ملكت زمام المبادرة عليه ، وأنه أصبح في قبضتها ، وأنها ستستفيد من ذلك بتهديده اذا اقتضى الأمر .. ولم يغب عن ذهن خالد ذلك الموقف .. غير أن نفسه النقية التي لم تعرف الخبث تعلقت بأمل الوعد الذي التزمت به وقال في نفسه : « لعلها ترعى عهداً قطعته » .

- ٣٢ -

نزلت كلمات أحمد ياسـين في أذن زكية باردة كالثلج ، ولكنها أحست بلدغتها كالعقرب .. « متى ستنجبين لنا ولداً نفرح به أو بنتاً نأنس بها ؟؟.. »

وانتفضت وهي ترى ما ارتسم على وجهه من تعابير متهللة وهدوء مريح ، ومما زاد حنقها ضراوة وشراسة أنها تعيش وحدها في ذلك الصراع الخفي الذي أرق ليلها شهوراً ، وأسهد عينيها ليالي ، ومزق قلبها أياماً ..

« ماذا لو قلت له ؟؟ ماذا لو صرحت ؟؟ هل أخفي عنه هذا السر الجبار .. لماذا أعيش في ازدواجية .. تشرق الابتسامة على ثغري اذا لقيته . ويعتصر الألم قلبي . ويزلزل الخوف كياني اذا تحدث عن أبوة يريدها ... لمـاذا أتحمل الثقل واستسلم للأوهام والمخـاوف وحدي؟؟. وينعم هو براحة بال وطمأنينة لماذا؟؟ لماذا لا يشاركني هذا العبء ... »

« ولكن كيف أنقل اليه هذا الخبر .. كيف أقول له إن الدكتورة أخبرتني أني عقيم .. لا أنجب ؟ ؟ هل سيتقبل تلك الصدمة بابتسامته الهادئة ؟؟. أم أنها تتحول الى عاصفة تقصف كل شيء أمامها ؟؟.. هل سيبقي علي ويبقيني الى جانبه ، أم يلفظني كما تلفظ النواة فأعود أجرجر أذيال الخيبة ، وأظل حبيسة الجدار كما كنت ؟. »

« واذا أخفيت عنه الخبر . فمن أين لي قوة تتحمل هـذا العذاب النفسي ؟ ان أمله كله متعلق بطفل . انه يريد طفلة . يريد بنتاً صغـيرة . حلوة ريانة مثلي . قوية شامخة مثله . هكذا قال لي ونحن في الشهور الأولى من الزواج ترى !! ماهو شعوره الآن ؟ وماذا سيكون بعد ذلك ؟ » « لماذا أنا عقيم ؛ لماذا لا أنجب ؟ ألست امرأة ؟

وهل يسعد المرأة في الوجود مثل طفلة تناغيها وتلاطفها . ألا يطربها صوتها وبكاؤها .؟ ان بكاء الطفل موسيقى . وصراخه غناء . وحركات يديه ورجليه دعاء . انني أتعذب . يالهي إنني أتعذب . أتعذب مرتين . وأحمل على كتفي ثقلين ، لاأدري أيها أخف ؟! هل أبوح له بالسر وأخفف عن نفسي حملًا . فلعله يكون بي رحيما فيشاركني آلامي ، ويشاطرني أحزاني ، ويعوضني عن الأمومة التي سأفتقدها طيلة عمري . أم أخفيه عنه وأتركه للأيام تكشف له عنه . رباه ماذا أعمل ؟. »

واشتد بها الضيق . وخنقتها العبرات عندما تذكرت كيف أنها لجأت الى « الوصفات البلدية » عندما عجز الطب الحديث عن مساعدتها . وكيف صرفت مبالغ كبيرة على الدجل والشعوذة .

تذكرت الداية « أم نفيسة » تذكرت الكلام الذي سمعته منها . وجاءها صوتها من الماضي البعيد وكأنه مطارق من حديد تدق رأسها وتثير حواسها .

– شوفي يابنتي .. زيك حريم جوني يبغوا « الخَلَفْ » كثير ... ما استحملوا في يَدّيْ شهرين تلاته الا وكرشهم قدامهم زَيّ القربَة .. باذن الله ... بس رَكِّك على اللي تسمع الكلام وتمشي على الوصفة .. لاتلخبطها لايمين ، ولاشمال.

– طيب ياخالتي أم نفيسة قولي لي وأنا أوعدك بأني أسويها كلها ، وأواظب عليها زي الصلوات الخمسة ..

– كده . ايوه . شوفي ياستي . تجيبي ديك . لكن على شرط . يكون ديك عِشَاري ، لونه أحمر زي العقيق . وتبيتّيه عندي ليلتين . وبعدها تأخذيه وتخليه يبات معاك في الغرفة ليلة واحدة . وبعدين تجوّعيه يومين وما تعطى له غير مويه بسكر . سامعه يابنتي . مويه وسكر وقليل ماورد .

– ايوه سامعه يا أم نفيسه . والله سامعه . كملي . كملي الله يخليكي .

ـ تجيبي سكينة جديدة لَنْج ، وتِدْبَحي الديك بيدِّك اليمين.

ـ لكن أنا ما أعرف ادبح ولا اقدر اشوف شيء يِنْدَبِـح قدامي .

ـ اللايبغا الدَّحَه مايقول أحَّه يابنتي .

ـ صادقه ياخاله صادقه . مايقول أحَّه . وبعدين وبعدين .

ـ وبعدين . تأخذي دَمَّه وهو حار حار تِلَغمِطي المحلات اللي قلتلك عليها . وتِسَوِّي زي ماوصيتك . فاهمة . والا لأ .؟!

ـ فاهمه ، ورب الكعبة فاهمه .

ـ وتخلي شويه من الدم في قارورة بيضا . وفي الليل . تدهني كمان . وتسمي باسم الله ، وتتوكلي على اللي ماتخيب عنده الودايـع . والباقي عليه هُوَّا .

وازداد ألمها ، واصفر وجهها عندما مر بشريط ذكرياتها الشيخ يحيى اليماني . لقد طلب منها مبلغاً كبيراً كي يعقد لها سبع عقدات تحزمها على وسطها بحبل أسود .

ولم تعد تتحمل تلك الذكريات ، وباتت تشمئز من التفكير فيها ، فلم تزدها هذه أو تلك إلا حسرة بعد رجاء ، وخيبة بعد أمل وبعثرة في أموالهـا ، وأموال زوجها دون فائدة ترجى ، أو وهم يتحقق . وظلت بطنها دون انتفاخ أو حمل .

وباتت تتطلع الى اليوم الذي سينكشف سرها لدى زوجها . إلا أنها قررت أن تلجأ الى الحيلة والمكر لعلها تجد فيها مخرجاً بحيث تبقي نفوذها على زوجها فلا يفكر في سواها أو التخلي عنها والبحث عن زوجة أخرى تنجب له ذرية .

* * *

- ٣٣ -

كثرغياب سعد عن البيت ، وصار اذا رجع اليه لايرجع الامتأخراً ، واستفحل امره ، واخشوشنت طباعه فما أن يكلمه أحد ـ في البيت ـ حتى يصرخ في وجهه ، وأصبح لايهاب الصديق أو الجار ولم يعد يقيم وزناً للكبار .

وترامت الى مسامع أبيه بعضٌ من قصص أزعجته وكدرت خاطره ، ولم تترك زكية مناسبة إلا وأوغلت صدره نحوه .

وعندما رجع الوالد الى بيته بعد يوم حافل في البيع والشراء ، واتخذ مجلسه طلب من زوجته أن تنادي ولديه . فرفعت حاجبها استغراباً . فمنذ أن تزوجا لم تره يجلس أو يشترك معها في حديث . ولكن البريق الحاد الذي رأته في عينيه لم يدع لها مجالاً للتردد .

عندما عادت . عاد معها خالد وهو في حيرة وتساؤل فيما بينه وبين نفسه ترى ماذا يريد أبي ؟ لماذا طلبني ؟ هل أخبرته بما رأت بيني وبين عزه ؟ هل باحت بسري عنده ؟ ماذا أقول له . ومن أين أبدأ . وكيف أبدأ ؟

بادره أبوه بسؤال أراح نفسه . وعرف أنه غير مقصود بهذا المجلس المفاجيء :

– أين سعد ؟ أين أخوك ؟

– لاعلم لي . قالها بصوت رقيق ، وفي اطراق وخجل .

– كيف لاتعلم ، انه معك في الغرفة فقل يابني . لاتخف . أريد ان اعرف أين يمضي أوقاته ؟

أدرك خالد ان اخفاءه مايعلمه قد يضره أو يضر اخاه . فقال فيما يشبه الهمس – على مدى علمي انه يذهب كل يوم الى قهوة الشهداء انه كثيراً مايردد اسمها أمامي . فهو يقضي اكثر اوقاته هناك مع أصحابه في الغنا والصها .

– ومن أصحابه هؤلاء . ؟

– انهم من – اولاد الحارة . والمشاكله –

أطرق الوالد كلياً عند سماع هذه الكلمات المبعثرة التي القاها خالد دون ان يدرك اي اثر سيء تركته في نفس ابيه .

وتراءى امام ناظريه – ابنه – وسط هذه الشرذمة من الناس ، وملأ الحزن

قلبه ، وتمنى لو يجد لابنه مخرجاً من هذا الطريق الشاق امامه . اذ خشي عليه الضياع والتشرد في وسط لايمت اليه بصلة . فأسرته معروفة محترمة وتربيته وتنشئته لاتسمح له ولا لأبنائه بمخالطة هذه الطبقة . فهو لايذكر انه جلس على « كرسي قهوة » طيلة عمره . ولا يعرف ان احداً من اسرته دس يــده في يد ولد من اولاد الحارة الذين يخالطهم ويقضي اوقاته معهم « . كيف إذاً انزلق سعد الى هذه الهاوية ؟ . كيف ضل به الطريق وترك صحبة الأخيار وفضل عليها صحبة الأشرار ؟ . لماذا لم يسلك مسلك اخيه ويتبع منهجه في الحياة ؟ » .

واسودت الدنيا امامه وغشى عينيه نعاس خفيف ، فاتكأ على جنبه الأيمن سانداً ذراعه بمخدتين كبيرتين ، واشار الى خالد بالانصراف . وقامت زوجته تقضي بعض لوازمها .

وعندما خلا لنفسه . ترك لأفكاره العنان .

« هل اخطأت في معاملته ؟ هل قصرت في رعايته ؟. »

كانت له فلسفة يؤمن بها في تنشئة الطفل وسلوكه . كان يرى ان الخير والشر مغروسان في نفس كل طفل ، وان وازع الخير يقوى وينشأ في النفس ان وجد مناخاً وتربة خصبة . كذلك الشر يكبر ويــترعرع في تلك التربة ان صادف من النفس هوى . وأن دور الأب والأم والمعلم في الحياة دور توجيهي . وكان يرفض في قرارة نفسه الشدة والقسوة على الأطفال ليس عن جبن او تخوف ، وانما عن وازع نفسي موجود اصلاً في عقله اللاواعي وشعوره الباطني . وكان يؤمن ايماناً أعمى بالقدر وماهو مكتوب على الانسان . ان خيراً فخير ، وان شراً فشر . لذلك لم يصب اللوم كله على ولده . وعرف انه فريسة همومه ، وطريد أوهامه بعد ان فقد حنان امه وانصرافه هو عنه وعن أخيه فترة طويلة ، فالتمس له المعاذير في سلوكه وتصرفاته المشوبة

بالقسوة والغلظة وساءل نفسه : « ترى . لو كنت معه شديداً منذ البداية أكانت طباعه تتغير ؟ أكان هو نفسه قابلاً للتكيف والتأقلم بما أرسمه له في خط سيره ؟. ان اخاه نشأ مثله ، وعاش الظروف نفسها التي مرت عليه . فلماذا يتطبع هذا بالأخلاق الفاضلة والتهذيب الحميد ، ويشذ ذاك ويسقط وسط الطريق . »

وسرعان ما شدته فلسفته التي اعتنقها ، ولم يجد خيراً من أن يدعو له بالهداية والرشاد ..

وفتح عينيه . ليجد ابنه سعد واقفاً امامه كالطود . على وجهه بضع كدمات ، ورأسه (حليقة) تلمع – شأن أولاد الحارة آنذاك – ولم يفت على احمد ياسين ملاحظة نظرات التحدي التي كان يرسلها ولده فاعتدل في جلسته واكتسى وجهه مهابة وصرامة ، وأشار اليه بالجلوس وجذب نفساً طويلاً ، وسمع صوت سعد يزمجر .

– فهمت انك طلبتني . تريد أن تراني وترى وجهي . ولما كان هذا شرفاً لايناله إلا المحظوظين . هرولت الى مجلسكم العامر لاكحل ناظري بطلعتكم البهية .

لم يعجب أحمد ياسين هذا الاسلوب التهكمي الساخر ، ولكنه تمالك نفسه وفضل أن يتمسك بالحلم ، وان يستهدي الحكمة في معالجة الموقف .

– هداك الله يابني . انني موجود كل يوم في البيت ، وانت المختفي وكأنك تهرب من البيت . وبودي أن أعرف أين تكون ؟.

– أكون حيثما أكون حيث اقضي أسعد اوقاتي .كما تقضيها انت مع زوجتك .

– ولكن لابد أن يكون لكل انسان بيت ، ولابد ان تكون للبيت حرمة ومهابة ، وفيما يبدو لي أنك نسيت أو تناسيت ذلك .

– هل تسمي هذا بيتاً ، ؟ انه (وقف) على صاحبة العصمة . انه (رباط) يسرح فيه ويمرح أهل زوجتك ، اما انا واخي . فمن لنا ؟ هذه الدادة العجوز . وماذا

نستفيد هنا غير المضايقات ، وماذا يصيبنا من خيرك سوى هذه اللقمات التي تجودون بها علينا ، واراهن ان زوجتك تعدها علينا عـــدا ، وكم تتمنى لو أنها دست السم فيها لتتخلص منا ويصفو لها الجو .

واشتد بوالده الغضب ، وزفر زفيراً حاداً ، وايقن أنه سيبطش به ان لم يتمالك نفسه ويضبط أعصابه .

ـ الا تباً لك من ولد جاحد . لم أسمع منك كلمة احترام واحدة لي أو لأمك .

ـ لاتقل أمي . أمي هناك . بين التراب . أمي ماتت .

ـ هذه أمك . او في منزلتها . ولكنك وقح طائش متشرد .

ـ أنا إنسان حر . اعيش كما أريد . وأحيا كما اريد .

ـ ولكنك مازلت طفلاً جاهلاً لاتستطيع أن تدرك الخير من الشر واذا توهمت انك جعلت من نفسك رجـــلاً بمصاحبة الأشرار ومخالطة أولاد الحارة فأنت مخدوع وتعيش في أوهام وخيال . ان من تقضي وقتك معهم بحجة الهروب من هذا البيت سيجرون عليك المتاعب يوماً ما ، وستخجل من رفع رأسك أمام أهلك وأقاربك . انظر ماعلى وجهك من آثار الاجرام ، وشكلك هذا الذي يعلن عن نفسه وعن البؤس الذي تعيشه ، والتشرد الذي تحسبه يغنيك عن بيتك ووالديك . مالك أنت وأولاد الحارة ؟ همقضوا على أنفسهم لأنهملم يجدوامن يرعاهم ويصرف عليهم . أما أنتفأنت . كافر بالنعمة جاحد للجميل . ألا يكفي انك تخفق في دراستك ؟ ، ألا يكفي أن الجميع يحقدون عليك ويكرهونك ؟. الكل يشكو منك ومن تصرفاتك . ألا تخجل من نفسك ؟. ألا يصحو ضميرك يوماً ؟. ألا ترى انك ستجلب لأبيك وأسرتك العار ؟ اليس لك عقل يبصر ورأس يفكر ؟

كان الأب يتكلم بهدوء وثبات ، وعيناه لم تتركا سعداً لحظة واحدة ،و كأنها أشعة سلطها على عينيه . فذاب كبرياؤه ، وهبط صدره المرتفع . ولم يملك سعد نفسه

فأسبل جفنيه . وما لبث أن خر كالجمل على ركبتيه ، وطأطأ رأسه الى الأرض ، في صمت مطبق .

عقد الأب حاجبيه . وتكلم بصوت الآمر .

– من الغد . سآخذك معي الى الدكان ، وستمسك لي الحسابات وستشاركني البيع ، وسوف لايكون تحركك إلا باذن مني . وعندما تفتح المدارس ابوابها سأعرف كيف اجعلك مواظباً .

واشتدت ضربات قلب سعد . ولكنه لم يستطع ان ينبس بحرف .

* * *

– ٣٤ –

وطدت زكية العزم على ان تحكم هذه الأسرة ، وان تسود هذا البيت . وبدا لها الأمر اسهل مما كانت تتوقع . فزوجها (لايخرج من يدها) ولا يرفض لها طلباً ، ولا يقدر على غضبها سيما وهي تختار الوقت المناسب لتنفيذ رغباتها فهو لايزال عبداً لرغباته التي عرفت هي كيف تتلاعب بها وتسيطر على غرائزها تجاهه .

وخالد . شاب مسالم ، مفتاح سره عندها ، وهي لاتخشى منه دسيسة أو مكراً .

أما سعد . فذلك هو الشيطان الذي تحسب له ألف حساب . غير ان الموقف الأخير بينه وبين ابيه قد حزم الموقف وجعل سيطرتها عليه عن طريق سيطرة ابيه .

وهكذا جمعت خيوط الخطة . وبقي التنفيذ .

« سأقوم بطرد المربية ، وسيخلو البيت الا مني ومنهم . وسيضطر الولدان الى التودد الي والاستعانة بي لقضاء حاجاتها . وعندها افرض سيطرتي وامد تسلطي عليهم . »

لم يكن بالأمر العسير على زكية ان تخلق لتلك المرأة المسكينة ـ والتي عاشت سنين في بيت احمد ياسين مع ولديه ـ مشكلات تؤدي في النهاية الى الاستغناء عنها والبحث عن مسكن آخر يقيم اودها ويسد رمقها . ولكن العسير هو ان يوافق زوجها على ذلك بعد هذه الفترة الطويلة التي قضتها معهم حتى اصبحت في مقام الأم الفعليـــة للولدين ..

ـ ماهذا الذي تقولينه يازكية ؟ كيف نطرد هذه المرأة وهي التي رعت ولدَيّ في صغرهما وقامت على خدمتهما .

ـ ولكنها تعيش عالة علينا . وهي الى جانب ذلك مصدر نكد ومنبع شر ولا يمر يوم دون خصام معها .

ـ الحق عليك انت . لماذا لاتتركينها وشأنها مع الولدين ؟

ـ وهل تريد ان اخدمك واخدمها . الا يكفي ان اقوم بخدمة ولديك . هل انا مكلفة بذلك . انني اقولها كلمة واحدة . لا اريد هذه المرأة معي في البيت .

ـ ولكن هذا تعسف ، وبطر ، وجحود . وبدلاً من ان نكافىء شيخوختها ونوفر لها الراحة نقوم بطردها .

ـ لقد قلت لك رأيي . وأنت حر . اختر لك واحدة منا . أنا . أم هي !!!

دهش أحمد ياسين لهذا الإصرار من قبل زوجته ، ولم يصدق أذنيه وهو يرى نفسه أمام هذا الاختيار الصعب .

أيطرد هذه المرأة الساذجة الرحيمة دونما ذنب او خطيئة الا شهوة امرأة حاقدة او يبقيها . فتهجره زوجته . ويهجرمعها متعته الحسية ويعود جسده يصرخ ويعوي .

وتبادل خالد وسعد النظرات وهما يسمعان الحديث الذي دار امامها . وتلفت خالد نحو دادته سارة ورأى وجهها كسيراً حزيناً . فتألم لمنظرها ورق لها قلبه الحنون ولم يتمالك نفسه فقام مهرولاً الى غرفته .

أما سعد . فقد شده ذلك التحدي بين ابيه وزوجته ، وانتظر بفارغ الصبر قرار ابيه ، وتحرق شوقاً الى النهاية الدراماتيكية التي ستقرر مصير سارة . ولم يعد يهمه ما ما اذا بقت دادته او خرجت بقدر مايهمه ان يرى أباه منتصراً لنفسه ولرجولته ، أو مهزوماً امام زوجته وطغيانها .

أطال أحمد ياسين النظر في وجه زوجته ، واجال الطرف بين سعد وسارة ، ثم عاد ينظر الى زوجته مرة أخرى عله يجد عندها بعض التراجع او التهاون في الأمر . وفكر في أن يطلب من سارة ان تسترضي ستها فلعلها تكون قد اخطأت أو بدر منها ما أغضبها . الا أنه قرأ على صفحات وجهها الأملس الناعم إصراراً على موقفها وعزماً على تنفيذ وعيدها . وارتمت عيناه على شفاه زوجته المرتعشة غضباً المشتعلة حقداً فوجد فيها دعوة سافرة للتقبيل . وانزلق بصره على صدرها فرآه يعلو ويهبط بحركة بهيمية عنفوانية فدبت في أوصاله رغبة جامحة ولم يشعر إلا وهو يصيح :

ـ إذاً فلتذهب سارة ولتبقي أنت . ولنا في رحابة صدرك موضع يضمنا جميعاً.

ومال على أذن زكية يهمس بصوت مبحوح . « هل أقدر على زعل الحبيب »

فامتلأت أوداجها زهواً وغروراً ، وامتلأ قلب سعد حقداً وغضباً ، وفرت دمعة من عين سارة واتجهت الى خالد باكية . فوجدته يغالب أمره ويمسح ماتبقي من دموع جرت على خده . فأخذها من يدها واتجه الى بيت صديقه حسن ، وقال لها . « هنا ستبقين » . والتفت الى صديقه وأمه التي وقفت تراقب بعين دامعة .

ـ سأقتطع لها من مصروفي مايساعدها على العيش . (وأضاف بعد أن شرح لهما الموقف باقتضاب .)

وظلم ذوي القربى أشـــد مضاضة   على النفس من وقع الحسام المهنّد

ـ لاتزعل ياخالد ولايهمك شيء . ان الله اللي خلق الخلق لاينسى أحداً ، ستبقى

سارة معانا وتأكل من اللي قسمه الله لنا . (بهذا أجابت أم حسن .)

وتنهد حسن وقال :

ــ الدنيا أمرها عجيب . « كم في الحبس من مظاليم » . « ولكن مين يعتبر » .

وعندما ضمت الغرفة الأخوين . كان خالد يئن من وطأة المرارة والألم . كان كمن فقد عزيزاً . وشعر بالضيق ، وخنقته العبرات مرة اخرى .

وسمع سعد يصيح :

ــ « أسد عليّ وفي الحروب نعامة » . هذا هو أبونا . وهذه هي المرأة الشريرة التي كنت تدافع عنها . أتذكر أيها الأديب . لقد أنذرتك من السابق ، ونبهتك الى ان حقد زوجة الأب لاحد له ، وأن شرها سيكون عارماً مستطيراً . انتظر . ليست هذه سوى البداية . أما غد . فعلمه عند ربي . والدور سيدور علينا . وسأكون أنا الضحية الثانية . وأنت الضحية الثالثة . لقد فقدنا كل قلب رحيم في هـــذا البيت ، وأخشى ان توقع بيني وبينك فهي حية رقطاء ، ولها سحر عجيب على زوجها . الا ما أتعس الرجال اذا اخضعوا جباههم للنساء . وما اذلهم اذا تركوا لها الأمور تسيرها . « ما أفلح قوم وَلّوْا أمرهم امرأة . »

ونام الاثنان . وفي صدر كل منهما بركان يغلي .

ونامت زكية . وابتسامة انتصارمشرقة على محياها . ويدها تداعب شعر زوجها وتحك له أذنه .

* * *

- ٣٥ -

حمل سعد كتبه وخرج مع أخيه الى المدرسة . لم تكن نفسه مرتاحة لهذا النمط من الحياة الرتيبة التي يعيشها قسراً ويقبل بها إرضاءً لأبيه . وبات يتحرق شوقاً الى الجلوس على « دكة الأغوات » مع افيف من أصحابــــه او قضاء بعض الوقت في إحدى قهاوي « المسفلة » او « الحريق » او « جرول » . وعندما أهلّ شهر رجب تمنى لو اتيح له ان يأخذ طريقه الى « قهوة الشهداء » حيث يتلذذ بالاستماع الى الاغاني الشعبية ترددها حناجر قوية تستمر الساعات الطوال لاتعرف الكلل او الملل ، وليشارك معهم في لعب المزمار ، او الركوب على الحمير المجهزة خصيصاً « الرّكب » المتجه الى المدينة المنورة . وود لو انه استطاع ان يشاركهم السفر على حمار يشتريه ليأخذ محله مع جموع المسافرين ...، الا ان صغر سنه يقف حائلاً بينه وبين تلك الرغبة الجامحة التي تتجدد تلقائياً كل شهر رجب من كل سنة .

كان يقضي وقته بالمدرسة ساهماً واجماً على غير عادته . حتى خيل للمعلم ان به مرضاً او ان تكون فادحة قد حلت به او بأسرته .

وفي الدكان . كان يضيق بالجلوس . يعد الساعات بل الدقائق تمر به بطيئة ثقيلة .

وزاده قرفاً تلك المجموعة من العواجيز اصحاب ابيه وجيرانه في السوق ، وما يتبادلونه من حديث يراه مكروراً سمجاً سخيفاً .

وعندما تعرف على عم عباس – صديق والده - وجد فيه شخصية دمثة محبوبة تختلف عن الباقين فهفا قلبه اليه وتوثقت بينهما العلاقة بعد أن أنس به ذاك . وكان

مصدر إعجاب سعد به هي تلك الروح اللامباليـة ، والسخرية من كل شيء . اذ كان ميالاً بطبعه الى الانعتاق من السياج الذي الفى نفسه محاطاً به فلم يجد خيراً من أن ينفث مافي صدره الى ذلك الصديق الجديد .

ـ اتعرف ياعم عباس اني كرهت البقاء في المدرسة ، وسئمت العيش في البيت .

ـ ماهذا ياولد . ألم تسمع المثل القائل « ياهارب من قضايا . مالك رب سوايا . » اين تذهب . والى اين تغدو ؟

ـ ماذا استفيد من المدرسة ؟ التعليم . اليس كذلك ؟! هل تسمى هذه السطور التي نحفظها في الليل ، ونسردها على مسامع المدرس . هل تسمي هذا تعليماً ؟ كل الذي تعلمناه في العام الماضي نسيناه أول يوم قفلت المدرسة ابوابها . هل هذا هو التعليم ؟ ان الحياة اكبر مدرسة . انها تعلم الصبر والتحمل . تعلمك الشجاعة والاقدام . تعلمك حسن المعاملة والسلوك . في المدرسة اذا تخاصم اثنان او تعاركا لايستطيـع أحدهمـا الانتصار لنفسه او اخذ حقه من الآخر . بل يأخذونهما الى المدير . فيضع كل منهما في « الفلكه » وينهال بعصاه الغليظة على المذنب والبريء خمسة « بواكير » او عشرة وفقاً لمزاجه ، ورهناً للظرف الذي يعيش فيه حضرته . اما في هذه المدرسة الكبيرة . الدنيا الواسعة . من ذا يستطيـع ان يعترضك . اويهضم حقك . تمشي ورأسك مرفوعٌ وقامتك منصوبة . لاتظلم أحداً . ولايظلمك أحد . هذه سنة اهل الحارة وهذا ديدنهم . ان أبي يكرههم ، ولا يريد ان امشي معهم او اختلط بهم ، ولو عرف طباعهم وما جبلوا عليه من شهامة ونخوة ، واحترام الكبير ، والرفق بالصغير ، لقدرهم واعطاهم حقهم من التوفير .

ـ ولكنك ياسعد لست منهم ، ولست على شاكلتهم .

ـ ياسبحان الله . اليسوا هم أيضاً بشراً ، اليسوا « اولاد ناس » ان ما اراه من

نبل اخلاقهم وطيب خصالهم مايحببهم الي . اليسوا هم رجال المروءة « والفزعات » في كل حارة . او انك نسيت مواقفهم البطولية والرجولية عندما داهم السيل الحرم الشريف وارتفعت المياه الى باب الكعبة . من شمر سواعده وسهر الليالي ، وغاص في الطين والوحل ، واحترق بالشمس لتنظيف ماعلق به ؟ انهم يمثلون الطبقة المظلومة في المجتمع . مع انهم من اكثر الناس ترتيباً . اتعرف ياعم عباس ان لهم نظاماً خاصاً في الحارة ، وانهم يحترمون بعضهم ولا يخالف احدهم أمر « الشيخ » . فالكلمة وفصل الخطاب للشيخ . ثم يليه النقيب ، وبعده النائب . وهكذا . اين منكم انتم التجار هذا النمط من الحياة ؟ الكبير فيكم يحتقر الصغير والغني يلتهم الفقير . ومعاملتكم وتجارتكم كلها غش ، وخداع ، ومكر ، ونفاق .

— ياسعد . ان الله سبحانه وتعالى خالق الخلق وهو أدرى بشئونهم وبسط لمن شاء الرزق ، وسير كل عبد وفقاً لما ارتضاه له . وانت لست من طينتهم ، والحق مع أبيك . فهو يريدك ان تنشأ في كنفه وتسير جنباً الى جنب مع أخيك . هو يرعى شئونكما ويهيء لكما حياة سعيدة . لمن هذه الدكان وما فيها ؟ لمن ستؤول ثروته ؟ أليست لكما ؟ فلماذا تريد ان تشذ عن اخيك وتضيع في دروب الحياة المتشابكة والطريق امامك ممهد سالك .

— ارأيت . ألم اقل لك ان المدارس تربي في الانسان الاتكالية « والتنبلة » . لو كنت انت عشقت الحياة ومشيت في دروبها الفسيحة لفضلت ان اشق طريقي بنفسي ، وان اختار الدرب الذي يوصلني الى بر الامان بجهودي وعرق جبيني وطول باعي .

وقطعت حديثهما امرأتان . وقفتا بعد ان كشفت الأولى عن وجه جميل وعيون ساحرة . وسألت الشيخ عباس عن « بوال سويسري » فأشار الى سعد بأن يجيبها :

– هوَدا المحروس صاحب الدكان . (قالتها في دلال وغنج) الأمر الذي لم يرق لسعد . فقال في غلظة بعد ان شاح بوجهه عنها .

– مافي . جبرنا . والجابر الله .

– طيب . اعطينا « جرجبيك طبيعي » (وضغطت على مخارج الحروف ، ومدت آخر كل كلمة .)

نظر سعد الى المرأة نظرة صارمة ، وتحشرجت الكلمات في فمه وصاح :

– كمان مافي . انا ماابيع للمتسكعات امثالكن . روحوا من قدامي . روحوا البيوتكم .

أمسك عباس سعداً بينما انطلقت المرأتان واندستا في وسط الزحام .

قال عباس معاتباً :

– هل فقدت عقلك ياسعد . كيف تطرد الزبائن من الدكان ؟

– ألم تر كيف كانت تتغنج وتتمرقع في الوقوف ؟

– مالك انت ومالها . هى تسأل وانت تجيب . هي تشتري وانت تبيع .

– لا . انالا أتعامل مع امثالهن . انني لااطيق رؤية امرأة . انني امقتهن . أكرههن .

نظر عباس الى سعد ، وتفرس في وجهه ، وقال :

– إذاً انت تخاف منهن .

– انا لا اخاف إلا من خالقي . ولكنني أكره كل امرأة في الوجود .

وأطرق عباس ، وقال في نفسه . « سبحان خالق هذا . وخالق عمرو . » لاول مرة اكتشف ان الولد ليس سر ابيه .

* * *

– ٣٦ –

استجمعت زكية كل ما اوتيت من فنون المكر ، واحكمت خططها وحيلها في مضايقة سعد وإذلال نفسه الشرسة . ولم تتورع في الكيد له عند ابيه سراً وعلانية

ولجأت الى صوتها تلعلع به وتجلجل . ولما لم يكفها ذلك تخيرت وقتاً كان الأب فيه منتصراً لها مؤيداً لموقفها فتمطت ورفعت يدها لتهوي بها كالمطرقة على وجهه . . . على وجه سعد . الا أن سعد كان اخف منها حركة وأسرع بديهة وأشد مراساً في فنون الهجوم والضرب والقتال فزاغ عنها والتقط يدها بعد ان سبحت في الهواء ولوى ذراعها بشدة ولفـــه حول جسدها الممتلىء . فعل كل ذلك في ثوان . لم تشعر هي بها ، ولم يدرك أبوه ما يجري أمامه . ثم دفعها بكل قوتـه الى حيث كان يقف والده . واخذ يصيح .

— « والله عشنا وشفنا » يومك أسود ياسعد اذا كانت حرمه تصفعك بينما يهابك الرجال ، ويحسب حسابك أولاد الحارة .

ولما أفاق والده من سرعة وغرابة ماحدث ، استشاط غيظاً وغضباً وهجم على ولده يشبعه ضرباً ولكماً . غير أن ابنه لم يحرك ساكناً بل نظر الى ابيه نظرات إشفاق وتأس . وعندمـا توقف عن الضرب نصب قامته وشمخ بأنفه وتكلم في لهجة حازمة .

— لقد تماديت في تصرفاتك . وتخطيت حدود اللياقة والأدب . كما دست على حقوق الطاعة . فلم تحترم أباك ، ولم تراع حرمة أمك .

— أمي التي أرعى حرمتها وأقبل أطراف قدميها .. ماتت .

أما اذا كنت تقصد هذه — وأشار الى زوجة أبيه — فأنت قد رأيت بعينيك ما اضطرني الى الدفاع عن نفسي . واما الذي لم تره فيمكنها ان تحدثك عنه . أو تكذبني عندما اقول انها طلبت مني بالأمس ان انظف لها البيت ، وأن اكنس لها الدرج ، بل وتجرأت اكثر عندمـا امرتني بغسل — بيت الخلاء — .

دهش الأب عندسماع ذلك ، ولم يصدق أذنيه إلاأن اندفاع ابنه في الكلام بصوت متهدج ، وعيون انحبس فيها الدمع ألجم لسانه . وجاء صوت ولده قوياً هذه المرة .

– ماذا تريدني ان أقول أيضاً . انها منعت عني الطعام ، وحرمتني الأكل طيلة أسبوع . وهل تريدني أن انقل اليك صورة من شتائمها والفاظها النابية . (وبنظرة مليئة بانفعالات كثيرة ... اضاف ...) لم تعودنا انت على اعمال حقيرة كهذه . لم نشكُ الجوع ، ولم نعرف حياة الحرمان . والآن علينا – بعد أن كبرنا – ان نقوم بأعمال الخدم . ولعلك تكتشف الآن سبب اصرارها على طرد سارة . لقدوجدت من يقوم مقامها. هل تريدني ان احترم هذه الـ ... بعداليوم. (وجذب نفساً عميقاً ثم قال).

اسمع ياأبي .. – وزاد صريحاً – انت ، وهي ، وجميعكم ، يعرف اني لست عاجزاً عن توقيفها عند حدها . انني أنذرها بعدم التعرض لي ، او حتى مخاطبتي . لا أريد منها شيئاً ، فلتكف اذاها عني . واذا بدا لها ان تتحرش بي فسأرسم على وجهها خريطة ، واجعل خطوطها من الدم الأحمر .

وانتفضت زكية كاللبوة ترى رضيعها يداهمه الخطر .

– خسئت ياعرة الرجال . أنا التي سأحفر لك قبراً وأدفنك حياً . فمثلك لا مقام له بيننا ولا حياة له بين المهذبين . يافاشل . يا « رد القهاوي والأزقة . »

تمالك احمد ياسين نفسه عند سماعه زكية تهدر كالجمل . وطلب منها في لين ورقة ان تسكت . وخاف من ولده أن يهجم عليها ويقطعها إرباً بعد ان أحس بأنه يغلي كالمرجل ، وانه لولا بقية حياء واحترام له لما تأخر لحظة واحدة .

– اذهبي الى الطبقة العليا ، (وصاح بأعلى صوته عندما رآها واقفة) – حالاً . وأخذ سعد من يده ، وطلب منه ان يتوضأ،واتجه به الى الحرم ؛ وهناك أمره ان يطوف ثم يلحق به على الدكان .

ومشى الأب لايبصر طريقه.. قلبه موزع بين ولده الذي ذات نفسه ، وأهينت كرامته ، وتمرغت إنسانيته على يد زوجته . وبين هذه التي ملكت عليه حشاشته ،

وسيطرت على حواسه وأفكاره . وكان كلما هدأت منه النفس اثارها صوت ولده وهو يصيح . « لم تعودنا انت ذلك ، لم نشك الجوع ، لم نعرف الحرمان . »

« امن اجل متعتي الذاتية اترك اولادي يمرغ الوحل خدهم ، ومن اجل امرأة يبيت ابني وفلذة كبدي خاوي البطن ، ذليل الفؤاد ، كسير الخاطر ؟ أتبلغ بالمرأة حماقتها ان تدع ولد زوجها يعمل أعمال النساء وينظف الخلاء ؟ . ترى لو كان ابنها هي هل تكيد له ذلك ؟ الا ما اتعسني واشقاني ان رضيت لها ذلاً بعد اليوم . لقد كبر سعد في عيني عندما كبح جماح نفسه احتراماً لي . ولكن ليته فعل . ليته حطم كبرياءها وكسر طغيانها . وانا لماذا لم أتدخل بصورة اكثر جداً وحزماً ؟ هل اخشى منها ؟ أم هل اخاف ان تمنعني ؟ اف . تباً لها . . . هل تفكر اني حيوان شره . . . لا . سأريها من هو احمد ياسين . . . سأوقف كل شيء عند حده ، وسيعود الاطمئنان الى البيت ، والهدوء الى الأسرة كما كان . »

* * *

- ٣٧ -

عندما رجع احمد ياسين الى البيت . كان الليل قد أوشك ان ينتصف . فقد ذهب الى اختيه يزورهما . ورغم انه لم يخبرهما بما حدث الا ان هذه الزيارة خففت ما جاش في صدره من غضب . كما سعدت بها الأختان ، إذ مر عليهما وقت طويل لم ير أحد منهم الآخر .

وجد زوجته يقظة ساهرة ترقب رجوعه بفارغ صبر . إذ لم يتعود السهر خارج البيت ، وإن تأخر فلأمر هام يخبرها به مسبقاً .

أما اليوم ... فبعد ان خرج مع ولده غاضباً لم يعد . وقد أخذت الظنون منها كل مأخذ .

« هل أسرفت في ثورتي ؟ هل تصرفت بحماقة وخرجت مني كلمات ازعجته ؟. إن زوجي رجل طيب ... جوهرة نادرة بين الرجال ... ترى ! لماذا أسأت اليه ؟ هل أعماني الحقد ، وألهبتني الغيرة من ذلك الشيطان ؟ أواه ... ماذنب زوجي. »

وصحت من أفكارها عند سماعها وقع أقدامه ، وهرعت الى الباب لتأخذ منه « الاحرام ، والكوت » قائلة — كعادتها . « شَرَّفت البيت ونَوَّرته . « الا انها قرأت على وجهه بروداً مثل برود الأموات ، ولم يخاطبها ، أو يتكلم كلمة واحدة . بل أخذ محله المعتاد . وعندما قربت منه قال لها في صوت منخفض . « اتركيني وحدي واذهبي للنوم . »

مادت بها الأرض ، وعرفت في زوجها التأثر الشديد كلما اختلى لنفسه ، وعادت الأوهام تصور لها كل قريب وبعيد مما تتوقعه امرأة عقدت كل آمالهـــا على رجلها ووضعت ثقلها في سبيل إرضائه ، ونسيت في لحظة مارسمته في خيالها شهوراً وأياماً . وهدمت كل مابنته من خطط .

وغابت في حجرتها .. وخرجت اليه مرة اخرى ، وقد تزينت بأحلى زينتها ، وضمخت نفسها بالعطر ، وتهادت في مشيتها . الا انه لم يعرها اهتماماً أو يبادلها نظرة . فكتمت غيظها ، وتجرأت على قطـــع الصمت بالسؤال فيما اذا كان يرغب في تناول عشائه . ولكنه اجابها في اقتضاب بالنفي .

لم تجد بداً من اللجوء الى كيد النساء . ومكر الانثى ، ودلال المرأة اللعوب . تركت شعرها يعربد على وجهها ، وينسدل على كتفها ، ويلامس مؤخرتها . وعلقت على شفتيها ابتسامة ثائرة عرفت فيها سحراً على زوجها. ورجعت اليه تحمل « كروانه» بها ماء حار . وفي خنوع ... واسترخاء ... قالت :

ـ لابد أنك تعب . والماء الحار والملح ... مع تدليك رجليك يفيدك ... وينشطك .

ولم تنتظر جواباً . وبدأت مهمتها في خبث .

وما ان لامست يدها اللينة ساقه حتى بدأ يسترخي . واحس بدفء الماء يخدر أعصابه ... كما بدأت الحرارة تسري في جسده ... وامتدت يدها الى أعلى ساقه ... وهي تضحك في تحد .

ـ أريدك أن تسامحني لما بدر مني . كان ذاك غصباً عني . والحمد لله ان الموقف لم يتطور . والفضل يعود الى حكمتك ... وحسن تصرفك .. ولباقتك .

اخترق صوتها المبحوح سمعه ... فوجد نفسه مدفوعاً الى الكلام :

ـ ولكن الاساءة اكبر مما تتصورينها ... وسلوكك كان شنيعاً وتصرفاتك كانت سوقية ... وهذا شيء لايليق ... ولا أقبله مطلقاً .

ـ أعدك بألا أعود الى مثلها ... (وفي صوت مبحوح .) أعدك ياحبيبي فأنا لاأطيق رؤيتك غاضباً ... (ومالت على ركبتيه تقبلها ... وتمرغ خدها على فخذيه .)

أدركت زكية بما أوتيت من مكر ودهاء ... أنها استطاعت ان تفرغ شحنات الغضب الذي اعتراه ، وأن تمتص منه ثورته العارمة . فانتهزت هذه الفرصة ، وصممت على ان تفاجاه بالخبر الذي طالما حاولت اخفاءه وما عانته من ضيق وعصبية .

نظرت اليه ... وفي هدوء واعتداد بالنفس قالت :

ـ ان سعد ابنك ... وتستطيع أنت ان تجعل منه رجلاً مستقيماً . (وتنهدت في أسى .) ان الأطفال ـ في هذه الأيام ـ يسببون شقاء كبيراً للوالدين ... والسعيد هو الذي لاينجب . وانا أعرف ان الله سبحانه وتعالى يحبني ... لذا لم يرد لي ان أتعذب في حملهم وولادتهم ، وأشقى بتربيتهم ونشأتهم .

كانت تتكلم في بساطة وكأن الأمر لايعنيها ... وكان هوأحوج مايكون الى الراحة والاسترخاء . غير أنه انتفض عند سماع هذه الكلمات وقال :

ـ ماهذا الذي تقولينه ؟ وكيف عرفت ذلك ... اعني من أين لك أن تقرري اذا كنت ستنجبين أم لا ؟ (وازداد احمراراً .)

ـ لقد أخبرتني بذلك القابلة عندما زرتها في « الصحيّة » كما ان الداية أم نفيسة أكدت لي ذلك ... وقالت ان هذا أمر الله ... وأنا قبلت أمره ... إذلارادلقضائه .

ـ ولكن . ألا توجد وسيلة أخرى ، علاجاً ما ، أو طريقة ، أو وصفة ؟

ـ لقد بحثت وتعبت طيلة الأشهر الماضية . حتى اني جربت « السّدر وشربت الحنظل » عندما كنا في الطائف . ولكن . (وسكتت قليلاً .) يبدو اني عقيم . (وأضافت) ان هذا شيء لايكدرني ولا يهمني بقدر ماتهمني سعادتك أنت ، وطالما أن الله قد رزقك ولدين فالخير فيهما ان شاء الله .

ـ وهل يكره الانسان أن تكون له ذرية صالحة . أولاد صغار يلعبون ، وبنات حلوات يمرحن أمامـــه ؟ آه . كم كنت أمني نفسي بذلك ؟ وكم تخيلت أنك سترزقين مولودة حلوة (وقال في همس) وكنت سأسميها هدى .) ؟ ولكن هذه إرادة الله ، وليس لنا أعـــتراض على حكمه « يهب من يشاء اناثاً ، ويهب من يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراناً واناثاً ويجعل من يشاء عقيماً » (صدق الله العظيم).

وبدا التأثر واضحاً على وجهه . وسقط رأسه على صدره وراح في سبات عميق . وقامت زكية مزهوة بما حققته من انتصار عليه وعلى سعد .

* * *

ـ قـَرّب المشوار عندنا . الشاهي وَالِمْ .

وتقدم سعد نحو صاحبه ، وهو ، « تاكي على الموكاز » . وجلس على « كرسي الشريط » المقابل ثم اتكأ على جنبه .

ـ فين ايامك ماشفناك من زمان . عسى ماشر ؟

ـ الشر عنّنا بعيد...بس ... كنا في الطايف ... وبعدين المدارس فتحت ، ولازم الواحد يذاكر دروسه .

ـ مدرسة ايش ياشيخ ودروس ايه ؟ هو دا كلام ينقال...والانتا وش ذلك؟

(دبت الحماسة في روح سعد الدفينة بعد أن دغدغت هذه الكلمات الحلوة حواسه . ومط رقبته لمتابعة حديث صاحبه) :

ـ البشكه كلهامفتقدتك...ويسألو عنك ..ويقولو ...فين أبوسعود...(وزفر زفرة حارة . وأكمل) الواد الهليكه شايف حاله اليومين دول...ولا أحد يملي عينه في البرحه . أما دادي أبو فروة فصار زي العفريت الأزرق . تعال شوفه وهو ماسك « الشّون » في يَدو . يلفه ويقاشع بيه الباقـين . مين يقدر يوقف قدامه . مين غيرك يابو سعود . (وسكت قليلاً .) (ثم أضاف بعد أن تنهد .) والله زمان ياسعد . فين لما كنت زي « المدوان » في المزمار . تلف وتـــدور حول النار زي الغزال و « المشعاب » مايترخى من يدك .

سمع سعد هذا الكلام . وأحس بضربات قلبه تزداد . وشعر بالذلة والمهانـــة عندما تذكر الموقف بينه وبين زوجة أبيه . وعندما استعاد ماقاله صاحبه عن الهليكه وابي فروة وغيرهما . أخذته العزة بالإثم .وتأسف على أيام غابها عنهم...فهم قد أصبحوا وأمسوا . ووجد نفسه ينفجر دون وعي :

ـ كدا تقول . والله عال . عشنا وشفنا . اذا غاب القط العب يافار . هادا

الهليكه اللي ماغسّل وشه جالو يوم يصول ويجول . والا ابو فروة . والله عال ...
تف على دى دنيا واخص على دا زمن ان كان هذا الكور يعرف شيء في « المقاشعة » .

ـ أقولك . قوم بينا نمر عليهم . دحين نلاقيهم كلهم باشكين في برحة الرشيدي .
وان كان على العصا خد حقي « النبّوت » .

لم يطرب سعد من زمن بعيد مثلما طرب لحظتئذ . وانتفض كالهو وفي خفة الغزال
كانت العصا تدور بين أصابعه كالحبل .

وما أن توسط الاثنان البرحة حتى صاح سعد بأعلى صوته وهدر أمام الجالسين ...
وكانوا خمسة . الهليكه ، وابو فروة ، و كعدور ، واثنان لم يعرفهما .

ـ الرّجّال فيكم يوريني نفسه ... ويِنُطّ الميدان ..وينزل للمقاشعه ...

لم تمض ثوان حتى كان اثنان منهم قد وقفا أمامه . الحمية تملؤهم والغيرة تحصدهم ...
وقد مسك أبو فروة عصا غليظة وضعت في نهايتها ماسورة من حديد ... كما كانت عصا
الهليكه من المتانة والعناية بحيث غرست في أجزائها مسامير نحاسية .

وفي لحظات كانت العصي الثلاث تدور وتلوح ، وترقص في الهواء ... ثم لاتلبث
أن تلامس بعضها فتسمع لصوتها قرقعة وطرطقة ... وبحركات رشيقة ، وقد ممشوق ،
وخفة واتزان ، وقوة ساعد ، وسرعة بديهة ... أخذ سعد يقفز من مكان لآخر متفادياً
ضربات هذا ، وموجهاً قذائفه لذلك غير متردد أو هياب . وفي كل رفعة من عصاه
يهوي بها على عصا أحدهما فيتلقى هـذا أو ذاك الضربة بقوة وتحمل . وزأر بصوت
مجلجل ، وهوى بكل قوته ـ هذه المرة ـ على عصا أبو فروة فطارت من يده بعيداً ،
وهجم على الهليكه الذي لم يطق صبراً فصرخ مستغيثاً . وفي خنوع واستسلام رمى
عصاه ، وقال لزملائه الباقين .

ـ قوموا ياواد انتا وهُوّا . سلموا على « الشيخ سعد » .

انتفش سعد كالديك . وهو يتوسط المجموعة . وكلهم يحاول ارضاءه والتقرب اليه. وهمس فيما بينه وبين نفسه « أين عيونك يازكية. تشوفي عوة الرجال. مسوى ايه. »

* * *

- ٣٩ -

انهمك أحمد ياسين في أعماله التجارية ، وازدادت حركة البيع والشراء بمناسبة قدوم موسم الحج ، وأصبح يقضي يومه كله في الدكان . ويقتطع جزءاً كبيراً من الليل في الاشراف على ترتيب «الأقمشة» في رفوفها ، واحصاء « الغلة » ، ومراجعة الحساب اليومي . يساعده في ذلك صبي الدكان سالم الحضرمي .

وبدخول « التمّان » – أول أيام شهر ذي الحجة – اشتدالزحام ، و كثر عدد الحجاج . وزاد إقبالهم على شراء أجود أنواع النسيج بأغلى الأثمان التي يفرضها التجار ، وامتلأت مكة بيوتها وشوارعها بالحجاج حتى لا ترى سوى وجوه غريبة .

وتأخذ مكة في أشهر الحج طابعاً دينياً مميزاً فريداً من نوعه عن بقية أنحاء الدنيا وتستعد لاستقبال مسلمي العالم الذين يفدون اليها من كل حدب وصوب قاصدين مكة التي أسكنها الله نبيه ابراهيم عندما أنزله بواد غير ذي زرع ، ميممين شطر بيته الحرام ومسجد رسوله الكريم بالمدينة المنورة ، تاركين خلفهم أهلهم وذويهم . فيعيشون حياة غير حياتهم ، ويقضون أيامهم في عبادة وزهد وأداء المناسك في المشاعر المقدسة . وعندما يطوفون بالكعبة المشرفة تلتحم الأجساد ، وتتعانق الأكف في الفضاء ضارعة الى بارئها راجية ثوابه ورضوانه سائلة رحمته وغفرانه . وعندما تتعرى الأجسام من لباسها وزينتها ، وترتدي النسيج الأبيض . وعندما يبيت الجميع في العراء (في عرفات) يفترشون البطحاء ويلتحفون السماء . وعندما تتساوى المخلوقات ، وتتوحد القلوب ، وتتعارف الأمة المحمدية . وعندما يسقط برقع الدنيا وينكشف غطاؤها ، وتزول فوارق الطبقات ... ويشعر الغني أنه فقير الى الله ، والسيد انه عبد لخالقه ، ويشعر الأبيض بألا فرق بينه وبين الأسود... عندها تسود كلمة الحق والدين « ياأيها الناس إنا

خلقناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم . » ويصدق حديث رسول البشرية وهاديها الى طريق الحق والخير ... « لافضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى . »

وعندما أهل موزع البريد على دكان أحمد ياسين سلمه خطاباً مسجلاًعرف فيه خط صديقه نعيم الشامي الذي يسكن الطائف . كانت الحركة الدائمة امامه اهم من أن تدعه يلتفت الى الخطاب يفضه ويقرؤه . لذا فقد أودعه جيبه بحركة لا إرادية . وقبل أن ينام . تذكر جواب صاحبه فقام يقرؤه ، في تثاقل وتراخ .

« جوابي هذا ليس بصدد صفقة بيع أو شراء . وليس له علاقة بالتجارة . وكم أنا آسف لازعاجك بمشكلاتي كلماضقت بها ذرعاً .غيرأن مصابي -هذه المرة- أكبر من أن أتحمله...وكم يحز في نفسي الألم وأنا أنعي اليك - أم نادية -زوجتي- فقد داهمها المرض ، وماتت في الشهر الماضي . وأنا وابنتي نادية نعيش في حال من الهم والغم لا أستطيع وصفها أو التعبير عنها . لذا فقد قررنا الحج في هذا الموسم ، ولعلمي أنك من المحظوظين الذين يؤدون فريضة الحج كل عام أطمع أن يكون لي الشرف العظيم في أن أكون وابنتي في معيتكم . ولأني أعهد فيك الصدق والصراحة ونبل الأخلاق وكرم المحتد فاني أنتظر منك عاجلاً الجواب حتى نتهيأ لذلك اذا يسر الله أمورنا . »

أعاد قراءة الجواب مرة وأخرى ، وفي سكون الليل وهدوئه...ثارت ذكرياته القديمة الدفينة ... زوجة نعيم ماتت . يالمسكين . تلك السيدة الفاضلة . رحمها الله. ونادية . تلك البنت البائسة . لقد تذكر الأيام البعيدة التي قدم فيها نعيم الى مكة طالباً للرزق وكيف ساعده ومد له يد العون عندما وجد فيه رجلاً أميناً وعقلاً نيراً . حتى استقر بهم المقام في الطائف ، وبذر له البذور وأعطاه من دكانه النواة الأولى للتجارة ، وفتح له باب التعامل مع التجار . وانخرط هذا وسلك مسلكاً طيباً ونمت

تجارته رويداً رويداً . وحفظ له المعروف واليد البيضاء التي طوقه بها .

وأطلق أحمد ياسين لأفكاره العنان — وهو بين صحو وغفلة — عندما خطرت أمامه صورة زوجته هدى ترحب بالضيوف الغرباء — كما كانت تسميهم — وتتلاطف مع نادية وهي تربت على خدها المتورد متمنية أن يرزقها الله إبنة في جمالها وذكائها .

وفي الصباح ، وبعد ليلة مسهدة . قال لزوجته في لهجة جادة :

— هل اتخذت استعداداتك للحج .

— نعم . فقد انتهى شراء « المقاضي والأرزاق » ولم يبق سوى الشيء القليل .

(وقالت مستدركة) . لم يرسل هلال الحصاني جميع « النُّقُل » كما بقى « الزرمباك والحُمُّص الجوهري » . أما « المعمول والغُرَيْبَة » ففي اليوم الخامس سأعملها

— لا أعني هذا أو ذاك . الذي أقصده . هل لديك من المراتب والمخدات والشراشف الجديدة مايكفي . (وأضاف) سيكون معنا ضيوف هذه السنة ، وأريدك أن ترعي خاطرهم ، وتسهري على راحتهم .

— من هم هؤلاء الأعزاء ... ياترى ؟ (قالت ذلك في نبرة مليئة بالتهكم) .

— نعيم الشامي وابنته ... لقد ماتت زوجته قبل شهر ، وهما يقاسيان من ألم الفراق ومر الذكريات الشيء الكثير . (وأردف) لاسيما نادية .. البنت الصغيرة . ففقدان الأم أكبر كارثة تحل بالانسان .

— حقاً انها مسكينة . انها بنت ناعمة . ولا أتصور كيف كانت الصدمة عليها .

وعلى الرغم من أنها تظاهرت بالعطف عليها إلا أنها في قرارة نفسها لم ترتح لها وتمنت لو أن طارئاً يعوقها عن الحج معهم ، أو أن زوجها يرفض دعوتها .

* * *

- ٤٠ -

اجتمعت الأسرة في اليوم الأول من عيد الأضحى بمنى ... بعد أن قضوا يومهم التاريخي الخالد بعرفات يهللون ويكبرون ، ويعجبون لهذا المشهد العظيم الذي جمع شتى الطبقات ومختلف الألوان ووحّدهم في المظهر وجمع كلمتهم وألّف بينهم .

كانوا جميعاً في خيمة واحدة . كان أحمد ياسين يجلس على « لحاف » وبجواره صديقه نعيم. وجلست زكية على « ليانة » في الطرف الآخر ، وعلى مقربة منها جلست نادية — مطرقة الرأس ساهمة النظرات . وانزوى خالد في ركن بعيد يقرأ في كتابه لايعير الموجودين انتباهاً . أما سعد فقد انتهز فرصة رمي الجمرات وهرع الى مكة بحجة طواف الافاضة والاستحمام ولبس ملابس العيد الجديدة وهو أشد مايكون شوقاً الى مشاهدة حفلات (القيس) .

كان جو الخيمة قاتماً ، والملل باد على الوجوه ، وحرارة الجو تزيد في حدته . وكان اكثر الموجودين أسىً وحزناً نادية ، وقد أكسبها البكاء حمرة في وجهها وتورداً على خديها ، وكانت تشهق بشدة مما استرعى انتباه أحمدياسين . فلأول مرة يلاحظ أن شيئاً مامكوراً يتحرك بخفة الأرنب ورشاقة الغزال أمام عينيه .كان نهداها يترجرجان كلما قامت أو قعدت... أو كلما داهمتها موجة من البكاء والنحيب . رأى فيها دماً جديداً . وصورة حية . شيئاً آخر غير ماتعودت عيناه رؤيته في هذه الفتاة الغض من قبل . كان قد رآها وهي طفلة تلهو وتلعب ، وعرفها شابة هيفاء منذ سنوات قريبة خلت ، لقد عاصرها وهي غرسة صغيرة. وهاهي ذي أمامه شجرة وارفة تقدر أن تؤتي أكلها. رأى ثدييها وهما

نبقتان. ثم وهما مشمشتان. حتى استويا رمانتين . وهاهما - الآن - يمتلآن أنوثة ورغبة .

وأحس بشعور غريب يداهمه . لا. انها رغبة . رغبة لا يمكنه مقاومتها. تملؤه... تعصره ... واختلطت الرؤيا أمامه فلا يرى الأشياء بوضوح . واختل عقـله ، فلم يستطع أن يزن الأمور بالميزان الراجح .

وتلفت حوله... هذه زكية... بجسدها المتقد... وصدرها البارز الكبير... وفتنتها الطاغية. وهذه نادية... الزهرة اليانعة... الملاك الطاهر... الروح العذبة... وفوق هذا وذاك ، لعلها تستطيع أن تحمل.. أن تنجب له غلاماً أوصبية.. حلوة جميلة في شكلها، جذابة أنيقة مثلها .

ولوى رأسه بسرعة ، وهو يتذكر المشعر الحرام ، وهذه الرقعة الضيقة من الأرض المحصورة بين الجبال المكتظة بالمهللين والمكبرين . وتذكر كيف أن سيدنا اسماعيل عليه السلام أسلم نفسه لأبيه ابراهيم وهو يقول (يا أبت افعل ماتؤمر) وقد هم بذبحه لولا أن فداه ربه (بكبش سمين) . وطرد هذا الهاجس من رأسه ، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، والتفت الى زوجته يستحثها على صنع الشاي ويطلب شيئاً من النّقل والمعمول . ثم قام وصاحبه يبغيان المجزرة لذبح الضحية .

ومرت ليالي التّشريق عليه بمثابة قلق واضطراب . وأصبح مسّهّد الجفنين، زائغ العينين ، حيران الفؤاد ، مسلوب الارادة ، لايقوى على شيء ، ولايستطيع أن يقطع برأي . وسيطرت على حواسه فكرة الزواج من نادية . وأخـذ كلما نظر اليها يحس بلهيب حـــاد يلسع جسده ، فاذا ما التقت عيناه بعينيها البريئتين شعر بارتياح وطمأنينة لم يعرفها من قبل . ولم يعد يطيق صبراً على كتمان رغبته . وهمّ أكثر من مرة بالتحدث إلى أبيها إلا أنه لم يشأ الكلام وقلوب الناس معلقة بالتوبة فرحة بانتهاء الحجيج وهي آمنة مطمئنة بأن (من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته امه) .

وأمسى يتحرق شوقاً الى أول فرصة ينفرد بوالدها فيها .

أما هي ... نادية... فقـد كان لموت أمها أثر كبير في نفسيتها ، وشعرت أول مرة في حياتها بالوحدة والغربة . وقد بكت حتى تعبت من البكاء وحزنت حتى ضاقت أنفاسها من الحزن والسهد . وكان لفكرة الحج وقع طيب في نفسها . وأخذت عيناها الحائرتان تبحثان عن وجه كثيراً ماشعرت بالسعادة وهي تنظر اليه ، وصدر عريض طالما اشتهت أن تدفن رأسها فيـه . وعندما كانت تلك العينان تستقران على سعد ، وترتميان على وجهه اللامبالي ... كانت عاصفة هوجاء تهب داخلها،فلا تدري ماذا تقول، ولا تعرف ماذا تفعل . وكان يضايقها منه عدم شعوره بها أو حتى النظر الى مفاتنها . أو مغازلتها . وكان يقتلها بثقته بنفسه ، ويحطم كبرياءها إهماله لجمالها بل وجودها كله.

وكانت حذقة بارعة في إخفاء سرها المكبوت . إلا أنها على استعداد أن تدفعها جرأتها وانطلاقها الى الافصاح عن رغبتها لمن أحبته في صمت ، وراقبته عن بعد، وهوته منذ زمن طويل .

ولم تكن زكية غافلة عما يدور حولها ، فقد أدركت بحاسة الأنثى ان شيئاً ما خفياً يجري ، كما استطاعت أن تلحظ تلك العيون الساهمة والنظرات الحالمة التي كانت تنبعث في هدوء وصمت كجدول رقراق من تحت أهـــداب أثقلها الحزن وأضناها السهاد . وأن تستكشف نفسية زوجها ، وشهواته الجامحة ، ورغباته التي لاتحد .

ووقف خالد حائراً بين الجميـع... يردد النظر بين زوجة أبيه ، ونادية ، ويرى فيها صورة محبوبته التي لم يرها منذ زمن بعيد . وهاتفاً يصيح « عزه » كلما سمع تكبيراً أو تهليلاً .

* * *

هرول سعد الى مكة . . . تاركاً وراءه الحج والحجيج في منى . وما ان وصل إلى هناك ، حتى أخذت « بشكته » تتجمع في إحـــدى القهاوي المنتشرة في جرول ، واستعدوا للعب « المزمار » ، وأوقدوا النيران ، ودقوا الطبول و « النّقرزان » ثم اصطفوا في دائرة، وما ان بدأ الملح يتناثر على النار حتى بدأ الرقص التقليدي تقوم به مجموعات . . تتكون كل مجموعة من اثنين ، يلفون ، ويلعبون بالعصا « ويتقاشعون » ثم يأخذ مكانهم مجموعة أخرى .

ويمضي النهار في العاب أخرى . وكلهم يحـاول إبراز مواهبه وأداء أحسن ماعنده في إحياء « الخـلّـيف » الذي أطبق في صمت كصمت الأموات على أرجاء البلدة .

وما ان أرخى الليل سدوله حتى كانت ساعة مرتقبة لسعد ، فقد تاق الى مشاهدة « القيّنس » وهاجت نفسه التي تهوى الأغاني والأهازيـج الى سماع هذا اللون من الغناء الجماعي الذي يؤديه نسوة من مكة من اللائي لم يتيسر لهن الحج وصعود عرفة ومنى ، يتفنن في إظهار أجمل الأصوات وأحسن الايقاع في تنافس شديد بين كل حارة وأخرى لجذب أكبر عدد ممكن من المشاهدات والمشاهـدين . وقد لبسن ملابس الرجال ، وتحلـّين بمختلف الأزياء التنكرية .

وكانت وجهة سعد حارة « اجياد » حيث اشتهرت باجادة القيس واحيائه من « ليلة الوقفة » بعرفة حتى نهاية التشريق بمنى .

وعندما قادته قدماه الى هناك ، وقف مشدوهاً متأملا . لقد رأى وجوهاً ناعمة تتنكر في زي : —

شيخ الحارة : بلباسه المميز وعمامتــه على رأسه ، والمصنّف اليماني على كتفه ، والحزام « البقشه » العريض يمسك وسطه ، كما أن عصاه الغليظة ترقص في يده .

الشريف : وقدارتدى ثوباً أبيض ، وعقــالاً من ذهب ، ومشلحاً محلى بالقصب .

العسكر : وقــد ارتدوا بزة الجنــدية ، وبعضهم حلوا أذرعتهم بشريط ، أو شريطين .

الضابط : وقد شد صدره ، ومشى بزهو وخيلاء يتفقد جنوده .

وعندما بدأ الدق والطبول ، انقسم الحاضرون الى مجموعتين . المجموعة الأولى . والمجموعة الثانية . ثم أخذوا في الانشاد :

المجموعتان : ياقيسنــا ياقيسنــا هيــا معانا بيتنــا
نسقيك من شربيتنــا ونطلــّعك في بيتنا
ونرخي الستاير عليه
أسمر ولد جــارية
مَحْلى المشالي عليه

شيخ الحارة : شيبْش َ يالـْحَوْبي حــامي ديرته

المجموعة الأولى : وإن جا يهرّجني ما أبْغَى أهرّجه

المجموعة الثانية : وان جــا يكلمني ما أبغى أكلمه

المجموعة الأولى تغني للشريف :

أبو الصومــادا والعقال
من يوم شفته عقلي طــار

المجموعة الثانية تغني للعسّا :

ياقيس ياقيس ياشخص ياتيس

النـاس حجوا وانت هنا ليش ليش

قوم روح بيتك قوم اخبز العيش

المجموعتان ترحب بالقادمين :

حبا حبا باللى جـا

يا موحبا باللى جـا

عبو العشا للى جـا

شيخ الحارة : (وقد انتصف الليل)

هيا هيا على البيت

هيا هيا زي الطير

الليـلة غلقت

والسنة الجيه بخير

المجموعة الأولى : والليلة والله ما نروح

والليلة عند أبو صـلوح

الليلة نذبح الخروف

المجموعة الثانية : والليلة عنـد أبو علي

والليلة نذبح الطلي

المجموعتان تغني ، والضابط يتفقد الحاضرين ، والعسكر يصفقون بأيديهم مع

الدق وقد وقف شيخ الحارة أمام الشريف يرقصون معاً :

واللية يا الخيزرانة

في منى ميّلوكي

ويلو ان ميلوكى

مالت الروح معاكى

ويلو وزمام سيدي

طاح في يَمّة البير

ويلو وزعقت زعقه

خليت آلما يظهر من البير

وتشتد دقات الطبول ، وتسرع خطوات الرقص في حلقات دائرية :

ريحانة دوري دَيّرة

ريحانة يا صِغَيّرة

ريحانة من بيت الشريف

ريحانة عودك الطريف

وعندما تتبلج تباشير الفجر في آخر ليلة من ليالي العيد :

شيخ الحارة (يصيح) :

هيا هيا على البيت

القيس غلق . هيا على البيت

المجموعتان : وبعودة . يامحلى الصفا

وبعودة . ومن العابدين

ويتفرق بعدها الجميع ، ويعود سعد وهو أكثر الحاضرين طرباً وانسجاماً وهو يردد :

واللیلة عند أبو عـــلي .

والليـــلة ندبح الطـلي

* * *

- ٤٢ -

لم يكن أحمد ياسين محتاجاً الى مجهود كبير أو ديباجة عريضة ينفذ منها الى غرضه ، فقد كان محل ثقة صديقه نعيم وموضع إجلاله وإكباره . وإنَّ طلباً كهذا سيكون محل رضاه وموافقته سيما وأن نعيم كثيراً ماتمنى أن يسدد بعض ما أسداه اليه أحمد من معروف وجميل صنع . لذا فقـد بارك طلبه ، وتمنى له حياة سعيدة مع وحيدته . فقد شعر نعيم أن الوقت مناسب جداً لزواجها ، فأعوامها العشرون وأنوثتها المبكرة ، وموت أمها ، وبقاؤها وحيدة في البيت ، وطيبـة صديقه أحمد ، وعطفه عليهم ، وحبه لهم ، كل هذا دفعه الى الموافقة على تزويجه نادية .

لم تملك نادية معارضة أبيها عندما نقل اليها الخبر شارحاً لها الظروف التي شجعته على الموافقة .

– إنني يابنيتي لا أجد لك زوجاً خيراً من صديقنا أحمد . فهو نعم الرجل القوي الكفء والتاجر الشريف .

ــ إنني أوافقك يا أبي ... وما تراه لي هو بلا شك عين الصواب . ولكن . فارق السن بيني وبينه كبير ياأبي .

ــ ليست السن مهمة يا نادية، فأنت ستعيشين مع رجل ذي تجربة في الحياة ، وهو وإن بدا لك كبيراً إلا أنه يعيش بقلب فتي وعقلية ناضجة .

ــ ولكن يا أبي ... إني سأعيش مع زوجته وولديه ، وأنت تعرف من هي زوجته زكية وأسلوب معاملتها وطريقة حياتها .

ــ لاعليك ، فأنت بنت ناضجة وعاقلة ، وتستطيعين بما أوتيت من تعليم ، وما عندك من حكمة أن تعيشي مع الجميع في وفاق وسلام . واتخذ صوته طابع الجد ، وهو ينهي الحديث بعد أن أعلن موافقته بصورة قاطعة .

ولبثت الفتاة وحيدة الا مع أفكارها ، تائهة تجري وراء أحلامها ، وسرعان ما برقت أمامها صورة ناطقة لم تملك إلا أن تبتسم ابتسامة أمل وإشراق . وبدأ قلبها يخفق بشدة لذكر سعد على لسانها ، تخيلته أمامها تعيش بالقرب منه وتستمتع بالتحدث اليه والافتنان بوجهه المعبر القوي والاطراب لسماع صوته الأجش .

وكانت نادية من ذلك النوع من النساء الذي تستبق الأنوثة فيها العمر وتتخطى بها الزمن . وقد وهبت مع الأنوثة الصارخة داخلها عقلاً راجحاً وبعد نظر ثاقب . فكثيراً ما كانت الرغبات تتشقق نافرة من السجن إلا أنها تتكسر على صخرات تربيتها الدينية والثقة بالنفس ، ومع ذلك فقد توقعت أن تعيش حياة معذبة مأرجحة بين الواقع والخيال والطموح والازدواجية إذ أن كتلة من الأعصاب الحسية كانت تضج داخلها بالأنوثة فتقع أسيرة أفكارها وتفقدها بذلك سيطرتها على نفسها الأمر الذي يجعلها تضع قلبها قبل عقلها في موازين الحياة والمفاهيم ، وتنظر الى جسدها ونوازعه وكوامنه نظرة خاصة ... تحلم بالرجل ، وتهيم بعضلاتـه ، ويفتنها منظر القوة فيه ، وتسحرها

سلطته وعنفوانه وتكبُّره . وعندما ينتابها ذلك الاحساس تضيع معالم الطريق أمامها ، وتختلط عليها الأمور فتترك مصيرها بيد القدر وما يخطه لها الغيب . »

* * *

- ٤٣ -

وعصفت بالبيت الهادىء عاصفة هوجاء سُمع لها قرقعة وضجيج . ونزل الخبر على أفراد العائلة كالصاعقة ، وكان وقعه أشد على الزوجة المتنمرة زكية ، فأطاح بكبريائها ، وحد من تمردها ، وهد من تسلطها . وانبرى سعد في عصبية وتحد يقرع والده ويسفه رأيــه في عنجهية الشباب وقسوة المستبد . واقتنع خالد بتبادل وجهات النظر مع أبيه في رفق ولين ونقاش موضوعي .

ووقف رب الأسرة صامداً كالطود ، شامخاً كالأسد . استطاع أن يقهر ثورة سعد وأن يقول لزوجته :

ـ لاتحاولي البكاء أمامي فلست من النوع الذي تؤثر فيه دمعة حزينة . انني كما عرفتني طيلة هذه السنوات التي عشتها معي رجل يملك من القوة مايجعله متمسكاً برأيه . ولقد دبرت الأمر ... وقطعت الرأي وانتهيت الى قرار . فخير لك أن تقبلي بالأمر الواقع وأن تستسلمي لقضائك ، وأن تكوني زوجة مطيعة . فالعصيان والتمرد لايفيدانك شيئاً .

ـ هل تسمى مطالبتي بالحقوق الشرعية عصياناً ، وهل كنت لك زوجة عاصية من قبل ؟؟ هل هذا جزاء من أسبغت عليك حنانها ، وأعطتك عصارة شبابها ، وسقتك

كأس اللذات ، وجعلتك تحس بطعم الحياة بعد أن ذقت مرارتها ، وحرمت نعيمها ؟ هل تكافئني باشعال نار الغيرة في قلبي وانت الذي فتحته وملكته وسكنت فيه ؟ ألا تتذكر تلك الليالي الجميلة التي قضيناها نرقب البدر في سمائه ، وروعة النجم في عليائه؟ هل نسيت كيف كنت تقطف ورودي وتشمها في رفق وتضمها الى صدرك العريض وأنت تهتف « ألا ما أحلاك... وأشهاك . » أين أنت مني الآن ؟. بل أين أجد فيك الحنان والحب ؟ هل كل الرجال خائنون طماعون ؟. هل كلهم على شاكلتك يدوسون كرامة المرأة ويهدرون حياتها لقاء رغبة فوارة وشهوة جامحة ؟. ليتني أستطيع أن أصل الى الحقيقة . ما الذي دفعك الى البحث عن أخرى ؟ . ما الذي اضطرك الى الجري وراء فتاة في سن ابنك ؟. ماذا تعرف هذه من أمور الدنيا؟...وأمامك هذا النهد الذي نهشته وارتويت منه...لمن تتركه يعوي ؟ لاتقل أنك ستقاسمني حياتك...لأني أعرف فيك مالا تعرفه عن نفسك . أعرف فيك الطمع والشره وهما كفيلان بأن يجعلا منك أكبر نذل عرفته البشرية . أعرف أنك ستــديـر لي ظهرك ، وستغرس رأسك في « الحوض » الجديد تشرب منه ماشئت — كما شربت من قبل — لاتلوي على شيء ، ولا تتذكر واجباتك نحوي .

— ألا ليتك تقدرين مغبة معنى هذا الكلام الطويل الذي سمعته منك الآن . بل وتوفرينـه علي وعليك . قلت لك ، ولا زلت أقول إنني رجل حر ، وزوج يبحث عن ذرية صالحة . وإذا كان الله قدحرمك الذرية فلماذا تطغى أنانيتك على الآخرين. إن الله حكيم في صنعه ، عليم بخلقه ، كريم إذ أباح لنا الزواج من واحـــدة واثنتين وثلاث وأربع . فهل تأتين أنت بحماقتك وتمنعين إرادة الله وتفسدين حكمه ؟ . أرجو أن تتبصري أمورك ، وأن تهدئي من روعك . ولقد حسبت انك ستكونين لي عوناً في تدبير أمر هذا الزواج. وتهيئين لي جواً مريحاً وعيشاً هنياً كريماً ، وتدعين بان يقر الله عيني بصبية حلوة جميلة حتى تستقيم لي أمور الدنيا . فكم أنا مشتاق الى طفلة أو ولد . ويبدو

أني كنت واهماً عندما ظننت أنك ستكونين خير معين لتلك الفتاة المسكينة اليتيمة تحتضنينها بحنانك وتشملينها بعطفك ، ونعيش جميعاً أسرة واحدة .

– كانك تقول لي اقبضي على الجمر بكفك لأنها كالحناء تصبغ يديك وتجمّلها .. هل ترى في كلامك منطقاً أيها الرجل ؟. هل تريدني ان اخنق نفسي بيدي ؟ منذ متى كانت الأنثى تكن لضرتها الحب والمودة ؟ كف عن هذا الأسلوب ، وقلها بصراحة ، انك لم تعـد ترغب في ، وإنني لستُ زكية التي كنت تطاول بها عنان السماء وتتمنى رضاءها ، وتتغنى بمفاتنها ، وتنهل من أطايبها . قل انك أصبحت رجلاً آخر لاتقنع بما عندك ، فتزوغ عيناك في مخلوقات الله قل انك صرت عبداً لشهواتك ، وياويل الرجل من عبوديته ومن خنوعه للمرأة .

وساد صمت قصير بينهما . التقطت زكية فيه أنفاسها ، ومسحت الدموع التي أخذت تنهمر كالسيل من عينيها .

وأطرق هو الى الأرض ملياً ، وما لبث أن نظر اليها متأملاً وكأنه يراها أول مرة . فسرت في جسدها رعـدة خفيفة وأدركت أنها تطاولت عليه ، وأخذ صدرها يعلو ويهبط كالمنفاخ فهمس في رقة :

– أنت يازكية لاتقدرين الموقف . فالغيرة قد أعمتك ، أنت لاتعلمين مدى حبي لك ، فأنت كل حياتي ، ولاغنى لي عنك . أنت الأرض وهي الغرسة ، أنت الشجرة وهي الزهرة ... منك تستمد حياتها ونموها ، وسأرعاك أنت أولاً وأسقيك بماء الحياة . فلا تبتئسي .

وانفرجت أساريرها عند سماع هـذه الكلمات الحلوة ، وعرفت أن تسلطها عليه لازال قوياً منيعاً ، ولابـد أن رغبته في تلك الفتاة ماهي إلا فورة وتهدأ ، أو فقاقيع وتموت .

وتصنعت الخجل ، وتمادت في عنادها . وبدلال وغنج أجابت :

– ولكني لاأقبل أن تشاركني فيك امرأة اخرى . وطالما أنك اتخذت قرارك الذي لارجوع فيه .. فسأتخذ أنا قراري النهائي .

ورفع زوجها عينه مستطلعاً ، واشرأب بعنقه نحوها ، وسمعها تقول في برود .

– سأحزم أمتعتي وأغادر منزلك الى الأبـد حتى تهنأ بعروسك وتصفو لك الحياة معها .

وركز عليها نظراته الفاحصة . فوجد في وجهها ملامح من عتاب ودلال . وبفراسة وحصانة وسرعة بديهة أجاب :

– ستحرمين نفسك العيش معنـــا . وأنا لا أمنعك من هجرنا ولكن ... (وتوقف قايلًا) سوف يضطرني خروجك من البيت الى مراجعة المحكمة الشرعية وكاتب عدل مكة لإلغاء الصك الاستحكامي الذي وهبت لك فيه هذا البيت . ترضيةً لك . ولم يكد ينتهي من كلامه . حتى ارتمت عليه تعانقه وتقبله وهي تقول :

– إنني جاريتك المخلصة زكية . وليس لي عنك غنى ، ولافي البعد عنك حياة .

* * *

– ٤٤ –

نظر سعد الى أخيه نظرة تجلت فيها مظاهر الغضب والشراسة ، وبادله هذا نظرات هادئة وديعة أراحته قليلًا وخففت من غضبه . ولم يطق سعد صبراً ، فانفجر قائلًا :

ـ « رضينا بِالْهَمّ والهم مارضي بنا . » و « سكتنا له دخل بحماره . » رضينا بواحدةوأكلنا ... وسكتنا، فاذا به يمعن في هواه ويصرعلى ايذائنا ويجري وراء ملذاته وكان أولى به أن يقوم بتزويجك أنت .

وفي هدوء أجاب خالد .

ـ أو تزويجك أنت .

ـ قال الله ولا قالك ياشيخ . (وفي عصبية) الموت أرحم من العيش مع امرأة . (قال وقد تذكر ما كان يريد قوله .) ماذا أنت فاعل ؟ هل نقف مكتوفي الأيدي ؟ هل نرضى بهذا الذل ولا نحرك ساكناً ؟ هل نتركه يضيف الى شرنا شراً ويرمي على جمرنا حطباً .

ـ وماذا تريد أن نفعل ياسعد ، انه والدنا ، ونحن لانملك الحق في معارضته ، وزواجه أمر خاص به ، فالتدخل من جانبنا يُعدُّ تحديا ، وخروجاً عن الطاعة .

ـ ياأستاذ . اذا كان المتكلم مجنوناً ، فليكن المستمع عاقلاً ، أبونا غارق في حبه وهواه لأذنيه . ألم تر كيف صاريعتني بنفسه .. يصبغ ماابيض من شعره ويهذب لحيته ، وينمق شاربه . ولابد أن نفعل شيئاً .

ـ ليست هذه المشكلة ياسعد . إنها أعمق من ذلك ، ومعالجة الموقف لاتتم بالصياح والزعيق . فأنت تعرف أبانا وعناده وتصلبه برأيه فخير لك أن تترك لي الأمر أتدبره .

ـ ومن يضمن لي أنك ستقنعه بأسلوبك الهادىء هذا .

ـ ومن قال إنه سيغير رأيه بصياحك وحماقتك .

ـ إذاً ابدأ أنت المفاهمة معه ، غير أني أريد منك شيئاً واحداً تتمسك به... المعارضة الشديدة . و ...

– اترك لي الأمر ، ووفر نصائحك .

– سأوفرها ، وسأتركك الآن ، فلدينا اجتماع في قهوة الشهداء لاتخاذ الترتيبات اللازمة للسفر الى المدينة مع الركب .

– وهل تعتقد ان والدك سيوافق على ذهابك مع الركب . لقد كاد أن يصعق عندما تحدثت عنه تلك الأمسية .

وعندما انتهى خالد من صلاة المغرب في المسجد الحرام التفت الى أبيه ، وفي عينه ترقب ، وعلى وجهه بدا الاهتمام والتردد .

– هل يسمح لي أبي بالتحدث معه قليلا :

– اللهم صلّ على النبي الأمي الطاهر الهاشمي . أنا الذي أريد ان أتكلم معك في موضوع نادية .

– انها مصادفة عجيبة . فحديثي سيكون حول الزواج .

– اذن هات ماعندك .

– لقد عرفت ياأبي انك تقدمت الى عم نعيم بطلب ابنته للزواج ، وقد وافق على ذلك . وعرفت أن بالبيت شعوراً بعـــدم الارتياح لهذه الخطوة . (وتوقف عن الكلام . إلا أن والده أخذ يهز رأسه علامة المتابعة وهو يمرر حبات السبحة بين أصابعه .) فخالتنا زكية غاضبة جداً ، وقد انعكس ذلك الغضب في تصرفاتها معنا وسبابها وشتائمها . و...وسعد ... كما تعرف لايميل الى المرأة ويحتقرها . وكان يظن أن واحدة تكفي لإثارة متاعبه فما بالك باثنتين ان أنت جمعت بينها وبيننا .

– وأنت ياخالد ماذا ترى . هل أنت معهم ضدي . أو تراك تستعمل الحكمة والعقل في تقييم الأمور ووزنها بالميزان العادل .

– عفواً يا أبي ... فليس لمثلي أن يعترض على تصرف أبيه . كما أني لا أسمح

لنفسي أن تكون في موقف المجابهة . ولكن ... الذي استطيع قوله ... هوان هذا الزواج قد لايعود بالنفع الكبير علينا نحن كأسرة ، والحياة التي عشناها في السنوات الماضية علمتنا الكثير من مساوىء العيش مع زوجات الأب ، - واغفر لي ياأبي هذا التصريح - فمكان الأم لايمكن أن تشغله واحدة مهما كانت ملاكاً . وأنت والحمد لله قد وهب الله لك أبناءً. ورزقك زوجة كاملة . وان أنت فعلت ذلك ستزرع الشر في البيت ، وستولد الغيرة ، وستكثر المشكلات بين الاثنتين وسينعكس ذلك كله على جو البيت العام . اضف الى ذلك يا أبي احتمال أن ترزق الزوجة الجديدة طفلاً وسينشأ هذا في جو مليء بالحقد ، وسينمو وفي قلبه بذور الشقاق والبغض ، وسيكون فارق السن بيننا وبينه كبيراً والهوة واسعة .

كان خالد يتكلم بصوت يرتجف تأدباً وهيبة . واستمع اليه أبوه في إصغاء وإكبار وما لبث أن قال :

- ان زكية قد فاتحتني في الأمر ، وتحدثنا طويلاً . وأخيراً رضخت للأمر الواقع عندما علمت بتصميمي على الزواج ، وقد كتبت لها البيت الذي نسكنه باسمها ترضية لها .

- ولكن عفوك يا أبي . ان هذا سيزيد الأمر تعقيداً سيما اذا عرف الناس أنها لم توافق إلا بعد أن اشتريت رضاءها « وحنّيت يدها » .

- لاعليك من هذا . وطالما أنك متفهم للأمور ، فاني أعتقد أنك تستطيع أن تؤثر في أخيك وتقنعه بذلك . وأنا يابني قد عقدت العزم واستخرت الله في ذلك ، وسيتم الزواج باذنه تعالى .

لم يستطع خالد أن يجيب بكلمة واحدة بعد أن تأهب أبوه للقيام . ومشى الى البيت وقلبه يذوب حسرة .

وفي الطريق ردد أحمد ياسين كلام ابنه بينه وبين نفسه . ووقف لحظات حائراً بين نداء العقل والعاطفة . إلا أنه سرعان ماحسم الموقف ، فقد كان من العسير عليه أن يعيش موزع النفس مضطرب الإرادة . وقد ساءه أن يرى سماء حياته ملبدة بالمشكلات التي يستطيع أن يحلها ببساطة . فولداه لم يعد يخشى عليهما ، وهذه الأموال تكفي لجميع أفراد الأسرة مدى الحياة . وتشبثه بانجاب أولاد يجرون أمامه ويتعلقون بثيابه سدت عليه كل منفذ للتفكير . وأخيراً .. هذه العاطفة .. وهذه الرغبة المتأججة في نفسه والتي يعاني من اضطرامها ... كيف يقدر على اطفائها ؟ وذلك الوجه الملائكي ، والصدر المدور ، والقد المياد ، والضحكة الساحرة . والعيون الناعسة ...

ومشى يفكر في موعد قريب للزواج .

* * *

- ٤٥ -

رجع خالد الى البيت وفي ذاكرته كلام كثير سمعه من عمتيه اللتين أبديتا السخط على تصرف أخيهما ، وما قالتاه عنه من أنه عنيد وأناني . ودوت في رأسه كلمات صديق والده الشيخ عباس ... من أنه سيكسر قرنه ان هو حاول نطح الصخرة الجلود وخير له أن يبيت على همه ، وان يطوي أحزانه .

ولما لم يستطع هضم كل ماسمعه ، وتأكد الا أحد يقدر على التأثير في أبيه وتغيير رأيه لم يطق صبراً في البيت . وشعر ان جدران الحجرة تضغط على صدره وتكتم أنفاسه .

فخرج الى الهواء الطلق . وفي الأزقة والشوارع الضيقة - كان بصيص من « أتاريك البلدية وفوانيسها » يتسلل فينير الطريق . وصم أذنه عواء الكلاب السائبة وكأنها مطارق تنهال على رأسه لتزيد آلامه ، وما لبثت ان طوقته من كل جانب ، ثم جرت في خيلاء واثبة وكأنها تذكره بحيوانيتها وانطلاقها في ثقة وحرية ، وتشعره بانسانيته الضائعة ، وقيوده الاجتماعية . وغشت عينيه الدموع . وأحس بوخز في قلبه . واتجه صوب جبل ابي قبيس علّه يجد صديقه حسن ودادته سارة .

وعندما نظر اليها وهي في ثياب بالية وشحوب كئيب ارتمى على صدرها وكأنه يبحث عن حنان الأمومة وعطف المحب . وأدرك حسن ان صديقه يمر في ازمة نفسية وأنه يعاني ضيقاً شديداً . فتلطف معه ، وربتت سارة على رأسه كمن يهدهد طفلاً في المهد كي ينام . ورحبت به ام حسن ترحيباً حاراً انساه بعض ما ألـمّ به وشجعه على الكلام وأخبارهم بتطور الأمر .

لم تجد سارة وسيلة للتعبير عن مشاعرهـــا سوى النحيب ساعدتها في ذلك المرأة الثانية .

اما الصديقان فقد انتحيا مكاناً قصياً . واخذ حسن يخفف ماستطاع من ضيق صديقه .

ـ أنا لاأرى مبرراً لكل هذه الأزمة ياصديقي . فوالدك أدرى بمصلحته واعرف منك ومن أخيك بما ينفع الأسرة او يضرها . واذا كان أخوك يسمي رغبة والده في الزواج نزوة ، فلتكن . ولكنها نزوة بالحلال . والا . هل تريدانها بالحرام والسفاح ؟ انت تعرف ان لكل رجل طاقة وقوة نحن لاندركها لأننا مازلنا صغاراً في السن ، ولكني قرأت ذلك في اعترافات جان جاك روسو ، ومغامرات كازانوفا .

ـ ولكنك ياحسن بعيد عن الجو العائلي الذي نعيش فيه ، وما أسهل الكلام ،

وما أهون الاتيان بالحجج والبراهين المنطقية في تدعيم موقفه وتأييده . ولكن . هل فكرت في كيان الأسرة ؟ هل خطر ببالك التنظيم الاجتماعي الذي يجب أن يكون وحدة متكاملة لايفرقه حقد ولا يشرخه انقسام ؟

ثم ماذا تقول في فارق السن بينها وبينه . . . ألا تعتقد ان أبي سيدخل الشيخوخة من اوسع ابوابها في الوقت الذي تكون زوجته على ابواب الصبا والشباب ؟

ــ انك تعرف اني على وشك السفر الى الخارج لمواصلة الدراسة . . . فمن يدريك انه سينجب طفلاً او اثنين او اكثر ثم يودع الحياة تاركاً وراءه ذلك العدد من الأطفال وزوجة صغيرة . . .

هل يتركهم لسعد الذي لايهتم إلا بنفسه ؟

هل أعود واقطع دراستي لأرعاهم كالقطيع من الغنم ؟

لماذا لايفكر ابي في مستقبلنا ؟

لماذا لايكتفي بزوجة واحدة ؟

أتراها أثرة ؟ . ام هي قسوة مغلفة علينا ؟

لماذا أبقى انا في هذا البركان أغلي ، ويعيش هو مترقباً موعد زفافه ؟

ــ ولكن كل هذه الأوهام بنيتها على افتراض خاطىء . والذي يبدو أن والدك يتمتع بصحة وقوة وحيوية . فادع الله أن يمد في عمره ، وان تسافر وتُنْهي دراستك وتعود لتلوح لك اختك الصغرى بمنديل حرير ، عندما ترسو الباخرة في الميناء .

وقام خالد ، وأثر من دموع في عينيه ، والم حاد يعصر قلبه .

وازداد جدة وهمّاً ، عندما اخذ غياب سعد عن البيت يزداد وخشي عليه من غضب ابيه عليه . وشكر لله صنعه إذ كان منهمكاً في الاستعداد للزواج وترتيباته .

وقرب موعد الزفاف .

وقرب موعد خروج الركب وسفره الى المدينة المنورة .

وبقى خالد حيران وجلا ... فهو وحده الذي يدرك حساسية الموقف بالنسبة إلى أبيه وأخيه . وادرك ان عليه التوفيق بينهما مهما كلفه الأمر من عنت .

وعرف في والده الحزم على تنفيذ رغبته غير عابىء بما يقوله الآخرون . ولمس من أخيه تصميماً على الخروج والسفر الى المدينة بعد ان كرس كل جهوده وانفق كل مايملك في شراء « الحمار » والاستعداد لذلك اليوم الذي طالما ترقبه منذ حداثة سنه ... في الوقت الذي سوف لايوافق والدهما على ذلك ، وخشي خالد الصدام بين أبيه وأخيه .

واشتدت به الأزمـــة ، وضاقت به السبل ومسالك الطرق ، وكان يزيد من همومه انشغاله بالمذاكرة وتعلق قلبه بجارته عزه .

وتعاقبت الليالي تباعاً تجرجر بعضها بعضا ، عرف خلالها سهر الليل ، وترقب الخائف ، ولوعة المشتاق ، وقسوة الزمن ، وحيرة العاجز .

ولما لم يجد للمشكلات المتعددة امامه مخرجاً ، قرر ان يترك الأمور تجري كما يشاء لها الباري ، وارتاحت نفسه قليلاً ، وداعب النوم جفونه بعد هجر طويل ، وسرعان ماغلبه النعاس فراح في سبات عميق .

وفي الصباح ... صحا وابتسامة مشرقة تعلو محياه . وتذكر الرؤيا التي رأى فيها عزه وهي تقف الى جانبه وتعتب عليه صده ، وتطالبه بمشاركتها الرأي وعرض مشكلته عليها فلعلهما يستطيعان معاً التوصل الى حل .

وقرر ان يكتب لها رسالة .

* * *

عندما هم خالد بالكتابة الى محبوبته عزه لم يكن يدرك صعوبة صياغة تلك الرسالة ، ولم يكن دارياً بما ستسببه له من حيرة ... وعجب كيف يكون متفوقاً في الأسلوب بارعاً في الانشاء ، مالكاً ناصية القوافي ويقف متردداً في كتابة أسطر .

ومرت ساعات وهو يعصر أفكاره ، ويركز اسلوبه ولكنه – في كل مرة – لايرضى عمّا كتب .

وفي هدوء الليل .. وعلى سطح البيت العالي .. ورفّة من نسيم عليل .. رق قلبه وطابت نفسه .. وعلى ضوء الفانوس الصغير أسند ظهره الى الجدار بينما أخذت عينه تتجه الى حيث تسكن من ملكت عليه لبه واحساسه علها تستطيع أن تنفذ من الجدار وتكشف له عن الحجب وراءه .. وتخيلها مستلقية على فراشها .. عينها تتطلع الى السماء ترقب النجم وتسأله عنه ..

وبدأ يكتب :

« ... ان سألت النجم عني .. فستعلمين بأني وحيد .. أستمد منه الضياء ..

وان استخبرت الليل عن محبك .. فسيجيبك أنه حزين .. يبيت ليله طاوياً سرك الدفين في فؤاده .. يعجز عن البوح بمكنونه ..

وان أردت معرفة مايحمله قلبي من حب وشوق ، فلاتسألي عني البلبل الشادي .. لأنه مثلي جريح .. وما هذه الأغاني التي يرسلها .. والأصوات العذبة التي تطربين

لها ... الا اهازيج وموسيقى تصدح لعزائك فينا.. لديك الزهرة ياعزة... فاستشفى من ورائها سرك الساحر... و ناشدي الخميلة... وضمي الى صدرك الريحانة والقرنفلة ففيها شفائي ودوائي ، وفيها سر حبنا الدفين .

انت يا عزة النور الذي اهتدى به في طريق حياتي ..

انت الأريج الذي اضمخ به أنفاسي ..

انت منتهى املي ورجائي في هذا الوجود .

بك تطيب الحياة ... وباسمك تبتسم ..

وتسألينى لماذا صمتي طيلة هذا الوقت ؟؟!!

تسألينني ... وانت اول من يشهد تعلقي بك ، وأول من يعرف حبى لك ..

أما رأيت تلك العيون وعرفت سر مكنونها ..؟؟

أما لمست ذلك الحنان الذي كان ينساب منها و كأنه جدول رقراق ؟؟..

أما شاهدت تلك النظرات الحارة التي ألهبها الشوق وأزكاها البعاد ؟

أتعتبين علي صمتي وأنا الذي آثرت الصمت لاخوفاً منك ولكن خوفاً عليك !!

أنا الذي كبحت الجواد بصعوبة ..

انا الذي حولت مجرى العين الجارية بيدي ..

كنت أخشى عليك من قولة قائل ومن همسة عاقل ، أو رمية جاهل ..

كنت أخاف على نفسي قتل الواشي .. لاتهيباً من القتل ، ولكن خوفا من مشاعرك يؤذيها الفراق ونحن لما نلتق بعد ، ولم تطرب أذناي لصوتك ، ولم تلمس أناملي أصابعك الرقيقة ..

كنت أقرأ في عينيك معاني استمد منها القوة والشمم ..

كنت أرى فيها شعورا يزودني بطاقة من العزم والتصميم والكفاح ..

كنت ألمس فيها احساسا استلهم منه شعري وحبي ..

آه ياعزه .. آه لو تعلمين كم قاسيت من تلك العيون النرجسية وكم تمنيت على الله أن أموت شهيد حسنها وجمالها ..

لا أدري ياعزه .. لماذا يكتب علينا الشقاء ؟ .. ولماذا يحتم علينا البعاد ؟

أتذكرين كيف كنا نلعب ونلهو ـ أنا وأنت وأخوك أحمد ؟

كيف كنت أناصرك وأنتصر لك من الصغار ..

كم هي حلوة وجميلة تلك الأيام ..

دعيني أتذكر ما كنا نقوله وننشده ونحن نلعب .. لابل دعيني استرجع تلك الاهزوجة التي كنت تحبينها وترددينها بصوتك العذب الملائكي .. أو تذكرين :

بوطح بوطح يماني
والتوب الزعفراني
دخلت البركه
بخواتم ستة
لقيت العاشق
عمّال يتبكبك
مسحت دموعه
بطرف الدكه
والطرف التاني
بالّلاه يا خالي
خلخل خلخالي

لقد كنا كزهرتين صغيرتين متعانقتين على غصن واحد .. حتى جاء من قطفها .

كنا كتوأمين متلاصقين .. حتى جاء من فرقها

ترى .. هل تعود الزهرتان الى لقاء .. ؟

وهل يلتقي التوأمان بعد فراق ..

لقد عشت ، ولا زلت أعيش ياعزه في محنة كبرى تحيط بي من كل جانب ، وصراع ينتابني من كل مكان ... محنة مع نفسي .. وصراع مع والدي وأخي .. وعذاب مستمر مع زوجة أبي ..

لم أجد الانسان الذي يفهمني ويريحني من عذابي وبلبلة أفكاري .. صرت كالتائه وسط الصحراء ..

أصبحت كالريشة وسط البحر يتلاعب بها الموج يمنة ويسرة .. حتى جئت أنت في منامي .. وعتبت على صمتي وعزوفي عن مشاركتك .. وشعرت بعدها بارتياح بالغ ، وأحسست بثقل العبء ينزاح عن صدري ، وصحوت .. وابتسامة تشرق في وجهي بعد طول غياب ، ونعمت بنوم هادىء بعد سهر وسهد متواصلين ..

اني أعجب الآن .. هل أنت حقا ذلك الطيف الذي زارني ؟ .. واذا كنته هل يهمك أمري ، ويسعدك مشاركتي أحزاني ، ومقاسمتي أفراحي ..

انني أتصور انك لم تخلقي لذلك النوع القاسي من الحياة ..

فانت لحن عذب يخفف عن الناس آلامهم ..

صورة طبيعية تسري عن البشر همومهم ..

فانعمي ياعزه بحياة رغدة سعيدة ... ويكفيني ابتسامة منك تضيء وحشة ظلماتي .. ونظرة شاردة ترسلينها من شباكك تساعدني على تذليل صعابي ..

ولك حبي .. وشوقي الدائبين .. »

ولم يجد أسلم طريقة ولا خير وسيلة يضمن بها وصول رسالته الى عزة .. من دادته سارة التي انقطعت عن زيارتهم مدة طويلة .

- ٤٧ -

لم يبق على موعد الزفاف سوى أسبوع واحد ، ولم يرد الشيخ أحمد ياسين أن يكون لزواجه ضجة أو هيلمان على حد تعبيره ..

وقد رتب اقامة كل فرد من الأسرة في البيت الكبير ، فافرد الطبقة الوسطى للعروس الجديدة .. واستقلت زكيه بالطبقة العلوية .. كما خصصت المقاعد للوالدين ..

واجتمع عقد الأسرة بعد طول انقطاع .. وحرص الأب أن يسود الود والوئام اجتماعهم ، واللطف والظرف حديثهم .. الا أن سعد كان يغلي كالبركان . ولم تمض ثوان حتى انفجر معلنا اعتراضه الشديد على زواج أبيه ..

ـ اذا كنت أنت لاتهتم الا بنفسك ، ولاتفكر الا في ملذاتك .. فاحرى بك أن تترك لنا البيت وتعيش مع عروسك الصغيرة في بيت آخر .. ويستحسن أن يكون في بلد بعيد ..

وحاول والده أن يمُرِّر هذه الاهانة ، وأن يتغاضى عنها في سبيل تحقيق جمع شمل الاسرة طيبة منه ورأفة به .. فهو يدرك أن ابنه سعد يتمتع بحرية مطلقة وسلطة تامة ،وعلى الرغم من تردي العلاقة بينهما ومصادمتها دوما وما ينشأ بينهما من شقاق وخصام لم ينس قط أنه يكن له بعض الحب والحنان .. ولكن .. حب لم يظفر بالجو الذي يستطيع أن يتنفس فيه ، وكثيراً ما تظهر على وجهه فقاقيع من حنق وغيظ .. وكثيراً ما عكرت صفوه بادرة سيئة من ابنه أو زلة لسان يقع فيها .. فيتهاون معه ، لاضعفاً ، ولاجبناً ، ولكن خوفاً من غضبه عليه وبطشه به ..

كان يخشى عليه أن تدفعه أية حماقـة يرتكبها الى الانضواء تحت لواء « أولاد الحرام » وصحبـة الاشرار بصورة لايمكن الرجوع فيها .. لذا فقـد ترك حبـل الود بينهما قائمـاً .. وتمسك بشعرة معاوية ، وقبض على العصا من وسطها ..

وما لبث أن اكتست وجهه بوادر من غضب ، وأجاب في حزم :

— ان البيت هـذا بيتي — واستدرك — لا بل أصبح بيت خالتك زكية .. فان شئت أقمت فيه معنا ، والا ... فابحث لك عن مكان آخر يؤويك ..

— كذا « هادي آخرتها » صبرنا بعد موت أمنا ، وكان مكافأة الصبر زوجـة سليطة اللسان ، باطشة اليد ، أنانية الأصل والمنبت .. فلم يرضك ذلك ، وها هي ذه زوجـة أخرى نازلة علينـا كما ينزل الوباء على بلد آمن وكما تتنزل المصائب على قوم ضعفاء .. (ونظر الى أخيـه خالد .. فوجده ساهماً واجمـاً .. ورأى عيني زكية تحملق فيه بتوجس وخوف .. ولم يجـد في وجـه أبيه سوى الصرامة والجـد ...) فاكمل حديثه .. وهو أشد ما يكون غيظاً ..

— نحن الضحية دائماً .. الاطفال هم كبش الفداء .. كأن الله قـد كتب عليهم الشقـاء بصورة أبدية ... حرمان بفقد أمهم .. شقـاء في الحيـاة مع زوجـة أبيهم .. وحسرة عندما ينصرف أبوهم عنهم ... فماذا يهمهم ؟؟ .. ماذا يهم الآباء ان عاشت هذه أو ماتت تلك طالما أن الواحد منهم يضج حيوية وتملأ جيوبه الفلوس .. لماذا لايتزوج واحـدة ، واثنتين ، وأربـعاً .. لماذا يبقى وحيـداً يعيل أطفاله .. ونحن .. « لنا الله ... » نعم لنا الله .. وعلينا تصب الشتائم وعلى رؤوسنا يصب وابل العذاب .. ونسام أشد أصناف الاهانة والاحتقار ...

(وابتلع ريقه ...) الا ما اعجبك يادنيا .. وماأتعسك يا سعد..تريدناالیوم أن نفرح لفرحك ، وأن نبتسم لعروسك ونستقبلها مهللين ، وأن نفتح لها صدورنا مرحبين ... اسمـع يا أبي لسنا أطفالا ترضينا بسمة حنان ، أو نظرة عطف .. لقد كبرنا .. أتسمع ؟؟ كبرنا !!! .. لا أحد يقدر أن يضحك على ذقوننا ..

أنا أتكلم باسمي ، وأترك لكم خالد .. لقد خدعتموه .. وزيفتم الرؤيا أمامه .. أما أنا فسأقف وحدي أعلنها حربا عليكم .. سأقض مضجعكم .. سأترك هذه الدار .. نعم سأتركها .. ولا أريد منكم عونا أو مساعدة .. لا أريد أن يسأل عني أحد منكم .. سأعتمد على نفسي .. سأعيش كما أريد .. وكما أشتهي .. حيث الحرية .. والانطلاق... حيث الكرامة والرجولة .. أماان ضللت السبيل ، واستهوتني الغواية .. فلا تلوموني .. لوموا أنفسكم .. أنتم السبب ... أنتم ضيعتموني صغيراً ، وها أنذا أشب وأكبر وفي روحي يرقص الشر ، وفي نفسي تنغرس الاحقاد .. ستندمون على ذلك وستجدون أني أصبحت عاراً عليكم وسبة في جبين الأسرة ... واذا انتهى بي الأمر الى السجن يوماً ، أو فارقت الحياة .. فلا تبكوا علي ، بل ابكوا على أنفسكم ، واندبوا حظكم اذ رزقتم ولدا عاقا شقيا كان يمكن أن يكون صالحا لو وجد من يرعاه ويفهمه وينير له الطريق ...

ولم يطق الوالد صبراً ، فقام من مكانه مذعوراً ، وهوى بكل قوته على وجهه فتلقاها ذاك بصلابة .. وصاح أبوه :

— أبعدوه عني .. أبعدوا هذا الشقي قبل أن أقضي عليه ..

وعندما خطا سعد خارج البيت صاح قائلاً ..

— سيكون خروجاً لا رجعة بعده .

وهمهم أحمد ياسين بينه وبين نفسه .. الا أن خالد استطاع ان يلتقط بعضا من كلمات ابيه جاءته متقطعة .. « هذه هي بداية الشقاء وأول دروب الضياع .. انا لله وانا اليه راجعون » .

* * *

- ٤٨ -

دبت الحركة – من جديد – في قهوة الشهداء بالطرف الشمالي الغربي من مكة. وامتلأت كراسي الشريط بروادها الذين وفدوا من كل حارة واجتمعت كل شلة في ركنها المخصص ، واصبح لايسمع الا صيحات القهوجي :

– هات اربعة اسود هنا ياواد ..

– شوف اليابا سعيد ايش يطلب – قـوّام يا لـُكـَعـي –

– هنا ياوُليد المعلم صديق طالب اتنين ُبوشْ

– خد بالك من موكاز ابو عـَو ّام وشوف ايش طلباته

– ثمانية اسود وَنعنـِشـُه

– ستة اسود ، وحلاه برّه .. زي البرق ياواد ..

وكانت دقات الهاوند تجلجل دوياً معلنة اعداد الطلبات وتحضيرها مؤذنة الصبيان بحملها الى الزبائن ..

وكان الحديث متداخلا ، والاصوات عالية ، ونهيق الحمير التي ارتصت على الجانبين من الشارع العام واحاطت بالقهوة يدوي في سمـــاء الشهداء .. وكان صوت « الكـُشـَح » والقلائد يزيد من الجو « صـَهـْلـَلـَه » فيطرب اصحابها وكأنها موسيقى عذبة تصدح في ليلة مقمرة ...

وكان منظر البرادع وهي مزينـة بالالوان المختلفـة جميلاً أخاذاً كما صبغت بعض الحمير بالحناء ، وقص شعرها بطريقة لابد انهـا كلفت « القصاص » وقتا طويلا بحيث ابدع في عمله ذلك ..

وتلفت سعد يمنة ويسرة وهو يقود – حماره – في تيه وخيلاء .. كأنه يبحث عن بشكته من أهل حارته .. ونسيمات خفيفة تهب من بستان الشهداء محملة بالعبير فتنعش القلوب الفتية وتحرك في النفوس الشابة كوامن الشجن وتثير فيها الحماس والفتوة .

وفي ركن بعيد جلس كهل عجوز وامامه جلس شابان وقد بدت عليهما دلائل الاهتمام والاصغاء الى عمهما وهو يقص عليهما الحكاية القديمة للركب وكيف نشأ وتطور ، وما هي دوافعه ، وأهدافه ، وطرقه وأساليبه ، ونظمه وتقاليده .. وبدأ الرجل يقص :

« فكرة الركب .. بدأت انطلاقاً من الحديث النبوي الشريف « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد ... » ايام كانت المواصلات هي الدواب وحدها .. ففي كل حارة من حارات مكة (الاثني عشر) تجري الاستعدادات للخروج الى الشهداء والتجمع هناك بعد ان يخصص يوم لكل حارة وتتسابق الحواري في اظهار الفرحة وينشد الحداة :

عسى عسى كل عام نشاهد البدر التمام

نوقف على باب السلام شفيعنا يوم الزحام

وما ان تتجمع الوفود الاثنا عشر وتنضم اليهم وفود كل من الطائف وجدة حتى تكون وجهتهم المدينة المنورة .. راحلتهم – الحمار – ودافعهم الرياضة النفسية وحملها على الخشونة وتعويدها الصعاب وشظف العيش .. فتحت سماء محرقة ، وبين وديان وسهول من رمال ، وفوق جبال شاهقة عالية جرداء يقطعون ثماني ليالي وايام ... زادهم ما يحمله الحمار ، وماؤهم ما تيسر من بقايا بئر ... الايمان يملأ قلوبهم .. والشوق يحثهم على المسير .

ويسود بين المسافرين – وعددهم مابين ١٥٠ – ٢٠٠ نظام تقليدي .. فلكل حارة من حواري مكة رجل يتقدم وفد حارته ، وهو يرأس « العزْبَة » ، ثم

ينضوون جميعاً تحت لواء شيخ واحد . وهو ــ عادة ــ الذي يقرر كل خطوات الركب وتحركاته .. وتتبارى كل حارة في اظهار ما عندها من ألعاب وتسليات ، كما تتناوب الحراسة والخدمة .. ويخضع الجميع لروح التعاون والمحبة والوئام ، فاذا ما داهم أحد الراكبين مرض أقعده .. فان الركب جميعه يبقى معه وينتظر حتى يقدر على الركوب ..

وليست كل الرحلة مشاق أو صعاب .. فقد يتخللها حفلات سمر وليالي انس وطرب على دق الطبول والمزمار ، وتذبح فيها الذبائح وتولم الولائم .

ويتحرك الركب من مكة أول جمعة من شهر رجب الحرام والذي تقع فيه ليلة المعراج الا ان الاستعداد للخروج يبدأ قبل ذلك بأشهر .. وأول شيء يفكر فيه الرجل هو شراء ــ الحمار ــ وثمنه قد يكلف صاحبه الشيء الكثير ، وتدريبه ربما يستغرق شهراً ، كما أن « ضُرْمَتَه » تكلف باهظاً ، فالى جانب الاكل الذي يدفع الى الحمير من شعير وذرة وطَخْ .. هناك من يغذيه بالتمر واللوز ، ويغرغره بالسمن وزيت الزيتون .. كما أن النفقات تزداد بشراء تلك الأشياء التي توضع فوق « البردعة » « كالبطان والرّداف » ، كما تعلق على رأسه « الرشْمة » وفي رقبته تعلق « الكُشْحة ، والتّخال ، وبعضاً من الخرز والحُجُب » .

وحتى يهيىء الراكب مقعده المريح فوق ظهر البردعة يفرش لحافاً أو « جاعداً » ــ فروطلي عادة ــ أو عباية في اضعف الحالات ثم « الخُرْج » وفيه يوضع أكل الراكب « وخُرْج » آخر لأكل الحمار ، كما تعلق تحت ظهر الحمار قربة ماء للشرب ــ احيانا .

ويمر الراكب على القرى والمحطات التاليـــة حتى يصل الى المدينة المنورة : (وادي فاطمة . عسفان . القضيمه . صَعَيْبَرْ . رابغ . المفرق ــ بير بيريك . ام البرك . الحفاة . ومنها ينحرفون الى طريق الغاير . ريع فهيد . عقنقر . العرق . الحساني . سطح الغاير . زغيفان . قلعة بير الماشي ومنها الى المدينة المنورة) .

وتنبه الشيخ العجوز الى ازدياد الحركة حوله فنادى « حاسب ياقهوجي » ورمى ببضعة هللات على « تيبْسي الشاهي » ثم نهضوا قائمين ...

وعندما تهيأ الجميع للرحيل ، واصطفت الحمير للمشي والجري والسباق وقف عدد كبير من الاهالي يودعون اقرباءهم ، والبعض جاؤوا للفرجة على هذا المنظر الذي لايتكرور الا يوما واحدا من كل سنة .. وفجأة .. شق صوت « المُزَهِّد » الرخيم الحنون تلك الضجة فأسكتت وكأن الجميع قد أصابهم نعاس شديد ..

الفين صلاة وسلام عليك يارسول الله
ياصاحب التاج والمعراج والقبة الخضراء
روحي لك فداء ، وخدي لك حداء ، يارسول الله
عند باب السلام ياحاضرين الملتقى باذن الله

فخشعت القلوب وهفت ، وفرت دموع الشوق ..

وبدا باسم الله الركب مسيرته ..

وعند وصولهم الوادي في الثلث الاول من الليل .. استقبلوا بحفاوة بالغة من اهله .. وكانوا ضيوفا عليهم تلك الليلة أحيوها في غناء وطبول ..

وبدأ الانشاد بالصهبا – الحجاز –

سائق الاظعان يطوي البيد طي
مُنعما عَرّجْ على كثبان طي
وبذات الشِّيحْ أنْ قد مررت
بعُرَيْبا من عُريب الجذع حي
قلت خذ روحي فقال الروح لي
وهات من عندك شيء
انا والله محبا لكم
صدقوني ليس بعد الله شيء

اما فريق المزمار فكانوا يرقصون والعصي تلعب في أيديهم ويغنون الزومال :

يا سـاريــة خبريني
عمـا جـرى خبريـني

* * *

طاح فـرْدي والجنبيـة
والسكينة مجنبها

* * *

جينـا من الطـايـف
والطــايف رخــا
والفــرد ابوستــه
بامما صبي

ودور آخر من ادوار الصهبا كان يجذب اليه جمع غفير :

مـاس وانثنـا ثمـلا	يختـال تحت الـبردى
اخجـل القنـا ميـلا	بلـين ذلك القــدى
كالغصن مـــالا يشبه الغزالا	رقـــة واعتـــدالا
لحظـه بنـــا فعـلا	فعـل الحسـام المهنـد
فهو ان رنا قتـلا	بنصـل ذلك الحـــد
وقـد سطـا وصالا يرشـق النبـــالا	كم دمـا اسالا

اما عشاق « اليماني » فقد كانوا ينشدون :

فـارج الهـم يا كاشف الغـم	منـك فضـلا بفضـل المثـاني
بالنبي الامـي الامـام المعظـم	اشرف الرسـل قاص ودان
كل امـر بـه بـه الله يعلـم	واحـــدا .ليس لله ثانـي
اغفر الذنب يارب وارحـم	واكفنا شـر ريب الزمان

مضت الاسابيع الاولى والشيخ احمد ياسين سابح في بحر وردي من الاحلام يمرغ خده شعر ذهبي كالحرير ، ويقطف من ثمار الصبا المغروسة في جسد نادية و كأنه لم يذق عنابا قط ، أو كأنه لم يستمزج رمانا ابدا ...

وتفتحت براعم الفتاة الصبية ، ونضجت انوثتها كما تنضج الفاكهة الطرية ، ووجدت بين مفارق الشيب الذي أخذ يتسلل الى رأس رجلها قوة عارمة ، وحيوية متوحشة انستها فارق السن والهبت مشاعرها الحسية ، وأيقظت فيها حب الحياة بصخبها وضجيجها ، وعنفها ورقتها ، وبات الاثنان لايفترقان الا ليعودا للعب من رحيق السعادة ومذاقها العجيب .

ونهشت الغيرة صدر زكية ، واشتعلت النيران في كل كيانها « ... آه لو كنت استطيع ان اغرس اظافري الطويلة في وجه تلك الارنب الجبانه ، وانزع من غلالته ذلك البريق الذي يلمع في وجه زوجي ... ليتني استطيع ان اقضم بأسناني الحادة ذلك النهد المدور الذي يشد احمد اليه و كأنه آلة جذب لايمكن مقاومتها .. رباه .. ان جسمها لدن ناعم كالحية الرقطاء ... من لي بمن يقول بان ذلك الشره الجشع لايلعب به كما يلعب طفل بحبل قصير ، يشده ويطويه ، ويرفعه ويرخيه ؟؟ وذلك الفم الصغير .. والشفاه الرقيقة التي مستها عصا سحرية فجعلت منها وردة مشقوقة حمراء يخفي وراءه صفين من لؤلؤ ... ويلي من ذلك الانف الذي يضاهي حبة نبقة وضعت بعناية ورفق تحت عينين لهما من السحر ما يكفي لأن يسلب لب رجل عابد .. »

« اين مني كل ذلك الجمال وكل تلك الرقة والعذوبة ؟؟

اهذا قصدك يا احمد ... هي كالزهرة .. وانا كالشجرة .. ولكن سأدفنك قبل أن تنعم معها ، وسأبقر بطنك في ليل ... او ألجأ الى عجوز الغابرين الكاهنة ام سليم .. فتعمل لكما عملا .. فتصبح لاترى فيها الا قردة .. لا .. بل سأوجهها بأن تفرق بينكما ... فاشفي غلي وأروي ظمئي .. ... واطفىء ناري ... »

وعاودتها مرة أخرى تلك الافكار الشيطانية التي أسكنها في قرارة نفسها شعورها بالسيطرة والتملك والقوة وقتذاك ... وقررت ان « تتمسكن حتى تتمكن » .. ووجدت ان اقرب الطرق الى غايتها هو التقرب الى خالد ، فهو وحده الذي يستطيع أن يساعدها وأن يشد من أزرها ويقوي عزيمتها ..

ووجدت – من جهة اخرى – ان الفرصة التي خططت لها وبيتت العزم عليها مواتية الان ... فكانت لاترى زوجا صالحا لاختها الصغرى احسن منه ، وأخذت ترقب الايام وهي تجري بخالد فتزيدها املا واصرارا عندما تراه يزداد صلابة ووسامة .

وكان خالد منهمكا طول وقته بالمذاكرة والاسترجاع ، فهو على أبواب تخطي الشهادة التوجيهية ، وكل امله محصور في النجاح بتفوق والسفر الى الخارج للدراسة العليا ..

ولم تستطع ان تشد انتباهه الى موضوع ابيه اذ تأكد لديه الا فائدة ترجى من الحديث فيه ... ولكنها احتفظت لنفسها بالورقة الرابحة فما لبثت ان لوحت بها .

– اتراك يا خالد نسيت عزه .. (وهنا رفع رأسه المتعب اليها) .. لا أراك متلهفا لرؤيتها كالعادة .. او ان في الامر سرا تخفيه ؟ ..

رماها بنظرة باردة ، واعاد القراءة في هدوء وكأن الامر لايعنيه .. فاغتاظت من هدوئه وانصرافه عنها ..

– انسيت اني استطيع ان اخبر أباك بما رأيت . وعن العلاقة الآثمة مع جيرانا الافاضل ؟؟

فلم يزد على القول بصوت خافت وكأنه يأتي من بعيد ..

– وماذا ستقولين ؟

– اتراك نسيت .. أو أنك تتناسى ؟؟

– لا .. بل أني أذكر ...

– اذن انت لست مبال بسمعة أبيك وبشرف الأسرة ..

– بل اني وضعت ذلك نصب عيني ، وسأختار الوقت المناسب للتحدث مع أبي في موضوعي معها .. (وقال في حدة) ولكني لا أحب التهديد خصوصا اذا جاء من انسان ضعيف لايملك لنفسه قوة الدفاع عن ذاته فيتنازل عن حقه نظير حفنة من مال أو ...

ادركت زكية انه يعني موقفها من زواج ابيه من نادية وقبولها هبة الدار مقابل سكوتها ورضائها ... واحست بسرعة ان زواجه من اختها قد لايتحقق .. فقررت ان تلجأ الى المراوغة والحيلة ...

– دعك من هذا الكلام .. واخبرني عن آخر العلاقات بينك وبينها .. هل لازلت تتصل بها .. قل لي بصراحة .. هل تحبها ..

– لا أرى لك أي حق في سؤالي ... بالاضافة الى اني لا أحب ان يتدخل في شؤوني الخاصة أي انسان .

– انت معكر المزاج هذا اليوم .. وقد تستطيع المرأة أن تفهم شعور المرأة الاخرى وقد استطيع مساعدتك في ..

ـ « لاتقرصيني يانحلة ، ولا ابغا لك عسل » . وسكت . وعاود القراءة .

وخرجت زكية تجرجر اذيال الخيبة .. ورغم ان آثار ذل وانكسار بدت على وجهها الا ان نظراتها الشاردة ، ونفسيتها الثائرة صبغت ذلك الوجه بلون احمر قانىء ، فغدت كأنها ذئبة مفترسة ، وهرعت الى غرفتها .. تبكي حظها .. وتلعن الدنيا بما فيها ومن فيها ...

* * *

ـ ٥٠ ـ

تقابل احمد مع خالد امام البيت واسر له بكلام انتشى له هذا ثم ادخل احمد يده في جيبه وناوله خطابا من اخته ..

وبيد متلهفة ، واصابع مرتعشة ، وشفاه مرتجفة .. خطف الجواب ولم يشعر ان كان قد بدرت منه كلمات شكر .. ورأى نفسه يقفز سلالم البيت ويندفع إلى غرفته ، وقلبه يدق بسرعة ، وافكاره تتصارع بقوة .

ومسك بيديه المرتعشتين الرسالة .. اول رسالة غرام يتلقاها في حياته « أول مرة تخط لي عزه حروفا » هي من نور ولاشك .. تصوغها في قالب صب من ذهب ... لله ما اسعدني ؟؟ انني لا اتمالك نفسي من الفرح .. كم هي جميلة الدنيا بل ما اجملها عندما تبتسم في عيني محبوبتك .. ماذا تراها تقول ؟؟ هل تبادلني عواطف ملتهبة .. هل تحبني حقا ؟؟ هل ترغب في مساعدتي ، وتقدر على مشاركتي آلامي ..

ان قلبي يحدثني بأنها قد تأثرت .. وبكت .. وخضبت دموعها وجنتيها الجميلتين ، ثم رقت مشاعرها وفاضت نفسيتها الطاهرة و كتبت هذه الرسالة :

« .. ترددت كثيراً في الكتابة اليك مخافة ان تهزأ مني ومن اسلوبي وانا تلميذة « الخوجه آمنه » وخريجة « الكُتّاب » ... وشعرت بضآلة نفسي عندما قرأت جوابك ، واحسست بالهوة التي تفصل بين فتاة قسا عليها أهلها والمجتمع .. فلم تعط فرصة التعليم فانكبت على قراءة ما يقـع تحت يدها من كتب ومجـلات تتصيدها من كل مكان .. وبين شخص متعلم مثلك ..

ولكن .. كان هناك احساس أقوى من الشعور بالنقص يدفعني الى الاجابة على رسائلك .. احساس ظل حبيس الظلمات ، ورهين الوحدة والكآبة .. فجاءت رسائلك الرقيقة تنيره ، وتكسر اغلاله ، وتفتح امامه الطريق .

اني اكتب لك وانا على يقين من خطـأ ارتكبه وذنب اقترفه ، فليس خاف عليك ما تسببه رسالتي هـذه لو انكشف أمرها .. أو ما يترتب عليها من ازعاج — لا بل مشكلات — لو درى بها احد من أهلي أو أهلك ، ولقد نصحني اخي احمد بعدم المخاطرة .. ولكنه يملك قلبا رحيما وفؤادا عطوفا .. وهو انسان يقدر العلاقة الاخوية ويضحي بالكثير في سبيل سعادتي ، ويكن لك — في الوقت نفسه — محبة كبيرة .

ولا أريد يا خالد ان اندم يوما من الايام على ركوبي المخاطر في التودد اليـك والتقرب منك .. فان قلبي يحدثني بانك اكبر من ان تفشي سرها او تخبر احدا عن امرها ، ولأني اعلم ان وراء كل سطر ، وخلف كل كلمة كتبتها لي قلبـا يفيض بالمشاعر وروحا تسمو على كل الاغراض الدنيئة فـلا تخيب حدسي ولاتذبح قلبي على صخرة الانانية التي اتسم بهـا بعض الرجال ، وتضعها بين المفاخر التي يتشدق بهـا من لاضمير لهم ولا احساس ...

لو تعلم يا خالد مدى الفرحة والبهجة والسرور التي ادخلها جوابك على نفسي وملك بها قلبي ... لكنت كتبت لي عشرات الرسائل منذ زمن بعيد .. ولكنت ارحتني من العذاب والقلق اللذين اعيشها في هذا البيت الكبير ... ولكنت اذقتني طعم الحياة وجعلت لونها زاهيا .

وعلى الرغم من اني أعيش بين أبي وامي ومع اخي.. الا اني اعيش عيشة لامعنى لها ولا هدف .. امضي كل ساعات اليوم والليلة حبيسة جدار هذا البيت ، لا ارى ولا يراني احد الا من خالة تزورنا بين الفينة والفينة .. والا من عمة لاتميل الي كثيرا لانني اقرأ المجلات .. وابي لايحبني ان اخرج الا في المناسبات وهي أقل من القليل بعد ان افهمني اكثر من مرة ان البنت في سني لايحق لها الخروج أو مخالطة الناس حتى لايفسر ذلك انها معروضة للزواج ... لذلك فاني أعيش هنا « كالنُغْرى » الذي تراه معلقاً في قفصه بالقرب من (شباك الغرام) – كما اسميه هو يغني ويصفر ... وانا أبكي وأندب حظي ، وكلانا حبيس وكلانا جريح حزين .

وامي لاتترك لي فرصة القيام باعباء البيت بحجة اني لازلت صغيرة لذا فهي لم تلحظ مطلقاً ما تكـّور في وما تدّور ... كما ان يدي سوف يؤثر في نعومتها ورقتها اي مجهود أقوم به ... وهكذا تجدني اقضي كل أوقاتي في القراءة ..

وحتى – قراءاتي – متعتي الوحيدة فرضت عليها قيود ورقابة شديدة من أبي ، فليس كل كتاب ينفع ، وليست كل قصـــة تناسب سني .. والمجلات فيها خلاعة ومجون ، والجرائد فيها سياسة « ووجع رأس » ... ولولا أن احمد اخي شد من ازري وشجعني على القراءة لكنت والبقرة لانختلف في الفهم كثيرا ...

أو تراهم قد تركوا لي حرية اللبس واختيار الالوان« والموديلات » .. لا .. لقد حدد ابي الالوان .. كما منعتني امي من لبس القصير ... وانا لم انج من عذاب لبس « المخرَّمه والمدوَّرة » على رأسي الا بعد ان امتنعت عن الاكل مدة شهرين حتى اصبحت مهددة بأمراض كثيرة لا أعرف اسماءها ..

والشعر الطويل الذي تراه يزحف خلفي .. لاحيلة لي فيه ولا رغبة ، بل هو استجابة لتقليد الأسرة ورغبة في المباهاة — على ما اتصور —

... لاتسل عن احلامي واماني .. فعندها يقصر البيان .. فهي عريضة واسعة ، وانت وحدك الذي يرتع فيها ، فلقد ملكت امري من حداثة سني ولا زلت اذكر ايامنا الجميلة . واذكر والدتك — رحمها الله — وهي تنظر الي في رقة وتربت على خدي في حنان ، وتتمنى لو انها رزقت بصبية حلوة (مثلي) .. واذكر كم كانت تحبني وتلاطفني .. وهل اقدر ان انسى عندما كانت تلاعبنا انا وانت وسعد واحمد .. وتنشد لنا . .

دوها يا دوها
والكعبة بنوها
سيدي سافر مكة
جاب لي زنبيل كعكه
والكعكه في المخزن
والمخزن بلا مفتاح
والمفتاح عند النجار
والنجار يبغى الفلوس

والفلوس فوق الجبل

والجبـل يبغى المطر

يا مطوه حطي حطي   على قرعة بنت اختي

بنت اختي جابت ولد   سمته عبد الصمـــد

وكنت — ولازلت — اترقب اللحظات التي نتراشق فيها النظرات من الشباك .. وكم من ليالٍ بت فيها اتخيلك بجانبي.. وكم من مرة تمنيت ان أكون معك اخفف عنك قسوة الحياة التي تعيشها مع زوجة ابيك ، ولقد قصت علي امي قصصا حسبتها اول الامر من نسج الخيال عن ضراوة زوجات الاب وشراستهن ، وتصورتك كالحمامة الوادعة في يد صياد جائع ..

وفي اليوم الذي صك سمعي ان والدك سيتزوج من امرأة ثانية احسست بألم شديد في رأسي . وحسبت أن شيئاً ما هوى عليه ، ولم افق الا ودموع الاسى تتدفق من عيني ، فأنا لا املك سوى الدموع .. وهـذه عادتي دائما وعادة كل انثى عندما تضعف أو تغلب على امرها ...

ولكني تذكرت انك اقوى من ان تهزك محنة أو تؤثر فيك ضائقة .. فلقد توسمت فيك مزايا الرجال واحتمالهم ، وستغدو رجلا وتستقل بذاتك وتترك هذا البيت ليضمنا عش هادىء نربي فيه اطفالنا ... فأنا لازلت أحلم بأنك الرجل الموعود لان حبك في قلبي منقوش على اضلعي .. واريدك ان تعدني يا خالد بالصبر والاحتمال والمثابرة والاجتهاد حتى نحقق أحلامنا وننجو — انا وانت — من العذاب الذي نعيشه كل منا » .

محبوبتك الى الابد .. عزه

طوى خالد الرسالة برفق ، وضمها الى صدره .. ولم ينم الا بعد ان حفظ كل كلمة فيها ، واطلق لافكاره العنان ...

* * *

- ٥١ -

انسلخت الشهور التي انتظرها خالد سريعة .. قاسى خلالها سهر الليالي وعرف معنى المثابرة والانكباب على المذاكرة .. وكان يعيش وفي نفسه تتصارع تيارات شتى .. وكان يؤلمه خروج سعد وانقطاع أخباره عنهم ...

وتحققت أولى أمنياته بعد ان نجح بتفوق ، وبات ينتظر وعد ابيه بارساله الى الخارج لمواصلة تعليمه ...

وكان طيلة الاستعداد للمغادرة والرحيل .. تتنازعه افكار مختلفة بين ذلك القلب العطوف الغض الذي سيتركه خلفه .. وحنان ابيه ورقته معه ، وخوفه عليه من ان يبقى وحيدا بين زوجتين قد تجمع المصلحة بينهما فينطبقان عليه .. وموقف سعد المتردي دائما وسوء علاقته بأبيه ...

ولكن بارقة الامل التي لاحت له في مواصلة التعليم ، والحلم الذي راوده طيلة حياته بأن يكون طبيباً .. لم تدعا له مجالا للتردد .. فحزم امتعته وطاف على أهله مودعاً مستزيداً منهم الدعاء .. مسترشداً منهم النصح ..

وكان الموقف داخل البيت مثيراً حزينـــاً .. فلأول مرة يحس الوالد بأنه سيترك وحيدا ، وضغطت عليه عاطفة الابوة وهو يتخيل الدار خالية من ولديه ، وعز عليه ان يفقدهما معاً ..

وكما تمر على الانسان لحظات ضعف يشعر فيها بتفاهة الدنيا وحقارة الماديات .. وقع الشيخ احمـد ياسين في تلك الهوة من التفكير وشعر بأنه أخطـأ في حق ولده سعد فتركه وحيدا بلا سلاح ، يهيم على وجهه غير مزود بعلم أو بمال سوى عنجهية عالية . وكبرياء زائفة . والا من جسم قوي وبنيان متين ..

وشعر بسخرية مريرة وهو يقارن بينه وبين أخيـه .. فكلاهما سيفترقان عنـه ويبعدان عن البيت الذي عاشا فيه وتربيا داخله .. هـذا يسعى وراء هدف وغاية . وذاك يجري وراء سراب وخيال ..

وحانت منه التفاتة الى زوجتيه ، وأحس بمرارة وغصة .. فهما سبب ضياع سعد .. وهما أيضا سبب الصراع الذي نشب في نفسه هو ... هـذه بكومة لحمها وطمعها وجوعها ... الذي لايرتوي ، وتلك برقتها ونعومتها ونظراتها الساحرة ..

وأرادت زكية ان تتكلم فاسكتها زوجها باشارة من يده .. الا ان الافكار تصارعت في رأسها ، وأحست بالراحة في التخلص من الولدين وان كان في فراق خالد ما يحزنها قليلا ، ويخيب من آمالها الواسعة فيه ..

اما نادية .. فلم تكن بافكارها معهم .. كان همها هو التفكير دوما في سعد ، والمصير الذي انتهى اليه ، ولكنها لم تجرؤ على الحديث أو السؤال عنه بعد ان سمعت موقفه الاخير من ابيه ....

وانتهز خالد فرصة صمت الجميع وتأملاتهم فقال موجها الحديث لابيه :

ـ انني يا أبي سعيد ـ حزين ـ لهذا السفر .. سعيد لاني سأسافر الى الخارج واستزيد من التحصيل وأعود طبيبا كما تمنيت لي ... وحزين لاني سأفارقكم ... سأفارق بلدي وبيتي وأهلي وأعز أحبابي .. غير اني واثق اني سأعيش هناك بجسدي وعقلي ، أما روحي واحساسي ومشاعري فهي معكم ، وسافتقدكم جميعا .. سأفتقد عطفكم وتوجيهاتكم وسأفتقد اخي ، ودادتي .. (وهنا خنقته العبرات ..) بالله عليك يا أبي ، واستحلفك بالعلي القدير ان تغفر لأخي سعد زلته وان تصفح عن اساءته فهو ابنك ، وبين حنايا ضلوعه قلب كسير ...

.. ودادتي سارة يا أبي ... لاتنس ان لها فضلا علينا وهي موجودة عند أم حسن صديقي .. وقد اخبرته ان يراجعك كل نهاية كل شهر لتهب لها ماتجود به نفسك فهي تستحق المساعدة ..

ـ سوف افعل ياولدي ان شاء الله ، فسارة امرأة طيبة .. وجزى الله من كان السبب في اخراجها من البيت .. (ومرت لحظة صمت ..) . اما اخوك سعد ، فأنا والله لست حاقدا أو ناقما عليه . ولابد له ان يرجع .. (ورق صوته ، وارسل نظرات بعيدة الى الافق ..) ومن يدري يا خالد .. كم تطول مدة غيابك .. والاعمار بيد الله ولا احد يضمن يومه أو أمسيته ، وانا اشعر بأني اخطو خطوات سريعة الى الشيخوخة .. فهو رجل البيت من بعدك ، وانا دائب الدعاء له قائما قاعدا ، فعسى الله ان يهديه ويلهمه طريق الصواب .

وعندما اتخذ خالد طريقه الى بيت صديقه حسن .. كان يتحسس رسالة الوداع التي كتبها لعزه ، وقال لدادته ساره وهو يسلمها لها .

ـ ياداده .. هذه امانة .. والامانة تبرأت منها الجبال .. فسلميها لابنتك عزه .. يدا بيد .. وقولي لها .. انه مادام هناك شمس تشرق فان قلبي لاينساك ..

ـ لا .. لا .. انا ما اعرف أقول كلام زي هادا .. انا اديها الورقة دي وخلاص ..

ـ انت دائما هكذا ياداده .. وغدا سأسافر ، فما أوصيك بها .

ـ بكرة تسافر .. انت قلت بعد اسبوع .. ليش العجلة هادي ..

ـ قدمت الموعد .. واريد منك الدعاء ياداده كل يوم .. كل ساعة ، فالدعاء منك ، ومن ام حسن ، مستجاب لانكما في منزلة امي ، وقام يقبلها .. فتركت الغرفة مسرعة ، ومسفعها على عينها يخفف الدموع الحارة الصادقة .

* * *

- ٥٢ -

في الوقت الذي امتلأت فيه الدار بالمودعين من أهل وأقارب ومحبين كان خالد لايحس بوجود أحد حوله ولا يعي ما يقولون ... فعقله كان شاردا وفكره مشغولا ، وعيناه غدتا معلقتين على شباك عزه .. كان يمني نفسه بنظرة وداع يتزود بها قبل مغادرته البلاد .. أو قبلة طائرة تطفىء لهيب شوقه وتخمد ذلك الصراع القوي الذي

هد كيانه وعربد في رأسه طويلاً .... وكثر تردده على غرفته وطالت وقفته امام الشباك ، واخذ قلبه يرجف بشدة وهاتف يصيح داخله باسمها .. وبدا عليه القلق ، ولم يعد يدري بما يدور حوله .. وجاءه صوت احدى عمتيه في رفق وحنان :

— خالد .. ياولدي .. حبّيت اشوفك قبل مايبجي احد .. شوف ياولدي .. هادا كيس صغير جمعت لك فيه ماتيسر .. قرشين ينفعوك في الغربة ، وانتا عارف ياخالد انـه — العين بصيرة والإيد قصيرة — وانا عارفه انها ماراح تسوي لك شيء لكن برضه قلت يا — بنت — شي احسن من ولاشي .. خدها .. الله يجبر بخاطرك وينَجّحلَك مقاصدك ويوفق لك الرفيق قبل الطريق .. (ومن بين الدموع التي انهمرت من عينيها .. أضافت ..) ياريت المرحومة امك عايشة تشوف هادا الطول وتفرح بهادا اليوم اللي صرت فيه زي الباشا المتأنتك .

وامام هذا الشعور الفياض ، والعاطفة الصادقة لم يتمالك خالد نفسه فارتمى على صدرها .. ولم يستطع رفض تلك الحفنة من القروش — رغم علمه انها في أمس الحاجة اليها — اذ ادرك ان وراءها قلبا رقيقا فلم يشأ ان يجرحه ، وان محبة حقيقيـة دفعت عمته الى التضحية .. فقبل يدها ورأسها ، وختمت زيارتها له بقولها :

— الله يكفيك شر أولاد الحرام .. ياولدي .

وفي غمرة دهشته كانت قد غادرت الغرفة .

وما لبث ان سمع وقع أقدام ثقيلة بطيئة عرف فيها خطوات دادته سارة .

— هل سلمت الجواب لعزه ؟؟

— أيوه ياسيدي .. سلمتها هُوَّا في يَدَّها زي ما قلتلي

– وهل قلت لها ما رددته على سمعك عشرات المرات ؟؟

– لا . ما قلتلها .. نسيت .. يقطعني ياولدي ...

– وماذا قالت عند استلام الجواب ..

– ما أدري .. بس رفعت رأسها وصارت تطالع في السما .. وتقول كلام ما افهمه ..

– لماذا لم تفهميه .. هل كانت (تـرطـن بالـّلاونـدي ؟؟)

– لا يا سيدي .. كانت تتكلم بشويش .. زي المجنون اللي يتكلم مع نفسه ..

وقطع عليهما نداء متكرر من عمته جواهر .. ودخلت الغرفة وهي تحمل « بُقْشَة صغيرة » .

– هادا ياولدي شوية سَفُوف وأدوية جمعتها بنفسي .. (واخذت تفك البقشة) .. هادي قارورة النـّانخه .. تراني نقيتها وحمصتها وهروشتها بالمهراس .. بلكن سبحان الله تجيك مغصة أو زَرْقَتْ مويه ، تقوم تاخذ سَفَّة قَدْ الكف الشمال وتبلعها بجبتين موية فاتره .. ولا كأنه شيء باذن الله .. وهادي كان علبة الجنزبيل .. مدقوق ومحطوط عليه سكر وفيه الشفا والعافية .. من يوم ما تحس بيرد كده والا كده تبلع سفه ، وبعدها تدعي لي بالعافية . اما القارورة الصغيرة هادي ... حقت الكـرَباشْ ،والبيضاحقت المانتاليتو . وهادول لوجع الراس والزكا واللويزات .. ودا كان ياولدي شال صوف – حق المرحوم سيدك ابو ابوك .. تغطي به راسك . (وفي انكسار ولين .. اضافت) اعطي حبيبك موجودك والله العظيم تلاتا .. هادا ياولدي اللي اقدر عليه .. والله يورينا وجهك بخير .. ويفرحنا برجوعك بالسلامة

ـ شكرا ياعمتي .. الله لايحرمنا منك

ثم جاءه من يخبره بأن والده يطلبه ، فالرجال يريدون رؤيته وتوديعه ..

كان هناك الشيخ محمود ، والعم عباس ، وشيخ الحارة ، والنقيب والجيران ، وصاحبه حسن .. وبحث خالد عن احمد فلم يجده ، فأحس بأن خنجرا اندس بين اضلعه .. وتشاغل معهم بالحديث ..

وسأل الشيخ محمود عن موعد السفر ، فأجاب احمد ياسين :

ـ سننزل الى جـــده بعد صلاة العشاء .. ونمضي ليلتنا هناك ، وفي الصباح ستبحر الباخرة ..

وقال العم عباس ، وقد افتقد غياب صديقه

ـ واين سعد .. ياخالد .. لماذا لا أراه ؟؟

ـ انه في المدينة المنورة .. لقد سافر مع الركب .. ولابد انه سيعود بعد شهر ان شاء الله .

ومضت الساعات الاخيرة كومضات البرق وقلب خالد متحرق لمعرفة سبب تخلف احمد عن توديعه .. كما ان عينيه تعبتا من النظر الى الشباك ... وعند انتهائهم من صلاة المغرب .. قفز قلبه اذ شاهد احمد يلهث قائلا ..

ـ الحمد لله اني وصلت قبل سفرك .. ان امرا عائليا هاما سبب تأخري .. (وقرأ في عيني صديقه علامات التساؤل والعتاب ... فاضاف ، ان اختي عزه تقرؤك السلام وتدعو لك بالتوفيق ، كما انها تشكرك على رسالتك ، وتعدك بالرد عليها

عندما يصلني عنوانك هناك .. (وفي ابتسامة خبيثة اردف) لقد صارحتني بمكنون قلبها وسوف تنتظر عودتك ، وكم هي آسفة المسكينة لعدم تمكنها من وداعك .. حتى ولو بنظره .

– قل لها انني آسف اكثر .. وكم تمنيت ان تكون آخر نظرة تصافح عيني نظرات منها ..

وعندما مخرت الباخرة عباب البحر ... وفي سكون الليل وهدوئه .. أخذ يتذكر ويكرر ما سمعه من والده وأهله ..

– أوصيك بتقوى الله يابني .. والاستقامة

– انتبه لنفسك .. فهناك لاينفعك الا قرشك

– اعتمد على نفسك ... ولايضحك عليك احد ...

– لقد صارحتني بمكنون قلبها .. وهي تنتظر عودتك ...

واغمض عينيه .. وحاول ان ينام .. ولكنه تذكر اخاه سعداً ، ففرت من عينيه دمعة .، وقال « اين انت سعد .. ليتك معي الان .. » وتخيل عزه وهي تمسك برسالته .. وتصورها تبكي تارة وتقفز من الفرح تارة اخرى وهي تقرأ ..

« ... لقد ترددت كثيرا في امر مفاتحة ابي أو ابيك في موضوع زواجنا .. فلقد شاهدت بعيني وعشت حياتي في جحيم البيت الذي ربيت فيه ، وتأثرت كثيرا بالحياة الزوجية ... لذا فقد صممت على ان انهي دراستي أولا .. حتى اذا عدت .. استطيع ان اعتمد على نفسي واستقل ببيتي ، وأبعد عن ذلك الجو الخانق الذي عشت فيه واكتويت بناره ... »

فهل تجود لي الايام وتنتظرين عودتي ؟؟

اني اترك هذا الامر للقدر ، فارادة الله فوق ارادتنا ..

ولكني اؤكد لك ان قلبي سيكون مولعا بطيفك ، وفكري مشغولا بك وعليك ، فانتظريني يا عزه .. انتظري زوجك يعود طبيبا .. ان شاء الله » .

* * *

- ٥٣ -

مرت الايام تباعا ، وتعاقبت الشهور .. فلم تزد الشيخ احمد ياسين الا وحدة في بيته وغربة عن أهله .. وأزداد حنينه الى ولديه ، وتعلقت انظاره الى خطاب من خالد يطمئنه على احواله ، وشدت أوتار قلبه عودة سعد اليه ورجوعه الى بيته .

لم يعد ذلك الرجل الذي يطغى هواه على نفسه ، أو تقلقه نزوة ، أو تخذله من زوجتيه رغبة .. ورغم أن نادية صارت تقطر عذوبة وتعصر شهوة .. الا أن ميله الى أي منهما أخذ يقل تدريجياً .. وعزوفه عنهما يزداد يومياً ..

ونشطت تجارته وتوسعت ، فصار يقضي أكثر أوقاته في الدكان .. كما أنه أخذ يشعر بقربه الى الله بعد أن شغلته الدنيا وملذاتها عن التردد على الحرم كعادته ..

وجاءه من يبلغه أن ولده سعد مريض بالحمى وهو بالمدينة المنورة .. طريح الفراش حتى انه لم يستطع الرجوع مع الركب الى مكة ..

لم ينم ليلته ، واشتدت هواجسه ، ولم تنفع معه أية وسيلة للتخفيف عنه والترويح عن ضيقه ، وجربت زكيه وهي المرأة الخبيرة به وبنفسيته كل محاولة الا انها لم تنجح وكما حاولت نادية أن تسليه بالاغراء ، الا أنه طلب منهما أن يتركاه لشأنه ..

وعندما اختلى بنفسه أخذ يتذكر سعداً وشريط أحداثه معه ... وتذكر أنه حاول أن تكون الروابط بينهما قوية الا أن سعداً كان أقوى مراسا وأصلب عودا من أن يخضع له أو يمتثل لأوامره مما أوجد تلك الفجوة من الانفصال ، وأدى الى الجفاء بينهما ..

وتمنى لو أن ولده يعود اليه بطوعه واختياره ، يعيش في كنفه ، وينعم تحت لواء ظله .

ومرت أمام عينيه أحداث تلك الأيام التي اصطدم بها مع زوجته زكيه ومحاولة اخضاعه لسيطرته .. واختلطت الرؤيا أمام ناظريه .. فقرر أن يحاول معه محاولة ثانية لعله يهتدي .. وقال في نفسه .. « لعل في غياب خالد ما يغريه في العودة الينا فربما كان يشعر بايثار خالد وتفضيله عليه ، ولعل هذا هو السبب في حنقه وثورته وبُعده .. فلتكن اذن محاولة مني استعين فيها بالله عليه ، وأضع أمام عيني العاطفة لا العقل في تقربي منه ، فهو ابني أولا وأخيراً ، وهو الآن عمدي واعتمادي بعد الله ... وستطول غيبة خالد .. فليتربع هو مكانه ، وليستقم أمر الأسرة مرة أخرى ويجتمع شملها ..

وفي الصباح الباكر أخذ « بريد المدينة » بعد أن ودع أهله ، وأوصى العم محمود بمتابعة أعماله في الدكان .

عندما أشرفت السيارة على « المفرحات » ثالث يوم من الرحيل شاهد الشيخ أحمد ياسين أنوار المدينة ، ورأى القبة الخضراء والتي تحوي تحت ثراها أطهر وأشرف

مخلوقات الله طراً .. ورقّت جوانبه ، ودق قلبه وهو يتذكر بنات الانصار عندما أخذن ينشدن :

طلع البدر علينا	من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا	ما دعا لله داع
ايها المبعوث فينا	جئت بالأمر المطاع
قد لبسنا ثوب عز	بعد تلفيق الرقاع
ربنا صل على من	حل في خير البقاع
أسبل الستر علينا	ما سعى في الخير ساعي

وانطلق لسانه بالصلاة والتسليم على سيد البشر محمد بن عبد الله النبي الامي رسول الرحمة والهدى ..

وعندما وقف أمام قبر الرسول للسلام أحس بهيبة ورهبة ولفه شعور من الروحانية والخشوع ، فحنى رأسه في أدب واحترام ، واغمض عينيه ، وناجى ربه ، وسلم على سيد الخلق عليه أفضل الصلاة والسلام . وأحس براحة عظيمة وطمأنينة بالغة وقام بعدها يصلي شكرا لله .

وأسرع إلى حيث يرقد ولده عند صديق له اعتاد استضافته كلما قدم المدينة ... فوجده طريحاً على الأرض ، مصفر الوجه نحيل الجسم ، زائغ العينين ، تعلو وجهه غبرة وقترة ... فنظر إلى أبيه في ذل وانكسار ، وتحامل على نفسه وارتمى على صدره وهو ينتحب كطفل ضاع من أمه فوجدها بعد يوم حار قائظ .. وكان اللقاء معبراً ، والشعور فياضاً ، فلم يكن للكلام موضعا واستمرت تلك اللحظات دقائق احتسبها الشيخ احمد ياسين عمراً حقيقياً ، ... فهو لم يحضن ابنه في حياته ، ولم يقبله الا عندما كان صغيراً ..

وجاءه صوت ابنه متقطعاً .. ضعيفاً خافتاً .. كضوء لمبات (الغاز التنك) .. فلم يصدق أذنيه .. أين ذلك الصوت المجلجل .. وأين تلك النبرات الحية القوية والتي كان يضغط بها على مخارج الحروف يأمر أمراً أو ينهر شخصاً ..

— سامحني يا أبي .. سامحني قبل أن أموت .. سامحني .. الحمد لله الذي أسعدني برؤيتك قبل أن أفارق الدنيا .. (وازداد بكاؤه) الموت خير لي .. لقد سببت لكم كثيراً من المتاعب .. وكبدتك أهول الصعاب ..

— لا عليك يا بني .. وسآخذك الى الطبيب ليكشف عليك ويأمر بعلاجك . وعندما تشفى — قليلاً — سنعود أنا وأنت إلى البيت .. فالدار بعدك غدت خالية ، ولا يؤنسها الا حضورك .

— صحيح يا أبي .. هــل سأعيش .. كيف .. انني ومنذ شهرين طريح الفراش ..

— ستعيش ان شاء الله ، وتصبح أقوى مما كنت ..

— لقد اتعبني ركوب الحمار طيلة ثمانية أيام .. ولكن .. كانت جميلة تلك الايام .. وحلوة صحبة جماعة الركب .

— هيا نم واسترح الآن ..

— ولكن .. لم تقل لي كيف حال أخي خالد .. لقد اشتقت اليه كثيراً .. انها المرة الاولى التي نبتعد فيها عن بعض ..

— ان خالد سافر الى الخارج يا ولدي ..

— سافر .. (وقام يتكىء على ذراعيه) كيف .. متى .. لمــــاذا لم تخبروني .. ؟

— لقد ودعنا قبـل ثلاثة أشهر وهو ما فتىء يذكرك ويأسف لعـدم رؤيته لك قبل سفره .

مرت لحظـة صمت .. أحس فيها سعد بمرارة قاسية .. فخالد بالنسبة اليه كل ما يملك في هذه الدنيا .. هو الأخ ، والصديق ، وأمين السر ، والموجه ، والمربي .

وأغمض عينيه ، وراح في نوم عميق ، ودمعة حائرة على خده .

* * *

— ٥٤ —

ساءت صحة سعد مرة ثانية بعد أن أنهكه عناء السفر ووعورة الطريق — بين المدينة ومكة — ولم تمهله حمى الملاريا اياما ليذق فيها طعم الصحة التي شعر بها بعد أن عولج قبل سفره .. فعاوده المرض ، وهزته الحمى حتى هزل هزالا شديداً . وحتى لم يعد في برده سوى جلد ذابل وعظم معروق .. فضمر وجهـــه .. وتقلص خداه ، وغارت عيناه ، وعلت محياه صفرة باهتة .. ومع ذلك ، فقد كان يقاوم المرض ، ويصارع الحمى ، ويتمسك بخيط رفيع من الأمـل .. الأمـل في الخلاص والنجاة من المرض .. والأمل في الحياة الواسعة .. فكانت تلوح في عينيه نظرة عميقة تدل على الصبر والجلد والتألم والاستسلام ..

وكان أشد الناس تأثراً وأكثرهم قلقاً — بعد أبيه — نادية ، فقد كانت الصدمة أكبر من أن تتحملها ، ولم تصدق عينيها عندما شاهدته أول مرة .. فقد طالت غيبته عنها ، وأوشك عام أن ينقضي بعد أن لمحته آخر مرة قبل زواجها من أبيه — فحلا

صلفاً كعادته .. وبدا عليها الارتباك والحيرة عندما اوشكت عواطفها المكبوتة نحوه أن تفضح سرها .. ووأدت صرخة قبل منطلقها بصعوبة وجهد ..

وأحاط بالمريض بقية أفراد العائلة ، وانصبت عواطفهم نحوه .. وصار محل عطفهم واشفاقهم ..

شخص واحد لم يتأثر بمرض سعد .. زكية .. فقد ساءها في قرارة نفسها رجوعه الى البيت ، وتمنت أن تفتك بـه الحمى فتستريح من وجهـه .. وبعنجهية وقسوة طلبت من زوجها أن يبقيه بعيداًعنها،وعن مجلسها .. وسرعان ماتطوعت نادية بتمريضه والسهر بجانبه ، واحتضنته في محلها ، وتمنت لو أن صدرها يضمه وحجرها يسعه .. وأخذت تجلس بجانبه لا تفارقه ليلا أو نهاراً .. حتى أشفق عليها زوجها وشعر بالامتنان لجميل صنعها ، ولم يكتمها ذلك :

ـ أنت يا نادية قد أجهدت نفسك مع سعد ، ولا أدري بماذا أجازيك ؟

ـ اني أشعر ياسيدي بأن هذا واجب علي ..

ـ نعم .. ولكن وللاسف الشديد - غيرك لايحس بذلك (وأدركت نادية أنه يقصد ضرتها ..)

ـ الناس أصناف .. صنف جيد ، وصنف رديء .. والذهب لا تعرف قيمته إلا إذا حكيته .. كذلك العود لانضمخك رائحته إلا إذا أحرقته ..

ـ (تنهد ..) نعم .. ولكن أراك تجهدين نفسك .. وأنا أخشى عليك من الاجهاد والاعياء والتعب .

ـ اذا كان تعبي واجهادي يؤديان الى شفاء المريض ، ويدخلان السرور إلى قلب أبيه ... فلماذا لا أتعب ؟ ! إن قلبي لا يطاوعني أن أنام وسعد يتقلب في فراشه ، وأن آكل وهو يتضور جوعا (وأخذتها الحماسة لتعبر عن مكنون

صدرها ..) ألا يكفي ما لاقاه المسكين من ضياع وهروب من البيت .. ألا يكفي ما لقيه طفلا من قسوة الزمن ، وما تكبده يافعاً من عناد البشر ... انه يحتاج الى رعاية وعناية ، ويحتاج الى حنان ومداراة انسان يفهمه ليتخلص من أفكاره السوداء عن المجتمع وعن المرأة ..

— أنت على حق ... أراك كالطبيب الذي يفحص المريض ويشخص له الدواء .. ان سعداً لايكره شيئاً في الدنيا قدر كراهيته للمرأة ، وستصبح معجزة لو استطعت تغيير نظرته اليها وتحويل دفة حياته الى بر الأمان وشاطيء السعادة والاطمئنان بدلا من هذا الضياع والتشرد والعصيان الذي يعيشه هذا الولد البائس .

وأخذ سعد يتحرك في فراشه ، ويغالب الارهاق والتعب اللذين افترشا جسمه وامتطيا عظامه ، ويحاول أن يفتح عينين أجهدهما السهر وأرهقهما المرض ..) وتلفت حوله ببلاهة فرأى وجها يعرفه جيدا ينظر اليه نظرات مليئة بالعطف والرقة ، كما لمح علامات التلهف والخوف على عيني وجه ملائكي .. وفي زحمة المرض ، وغمرة الفرحة بالحياة تبسم بسمة خفيفة نزلت على قلب والده كموجة ايمان تلف رجلا صالحاً ، وأيقظت في فؤاد نادية عاطفة صادقة فازدادت ضربات قلبها ، وبرق في عينها بريق خاطف سرعان ما تكسر على البرود الذي ملأ وجهه .

— أين أنا ؟ .. ومن هذه ؟؟ (بهذا نطق سعد في صوت خافت ..)

— أنت في بيتك ياولدي .. لقد حملناك من المدينة .. وهاهي ذى عشرة أيام انقضت ، وأنت لا تعي من حولك أمراً ، ولاتدري عن نفسك شيئاً .. لقد كنت بين الحياة والموت .. ولكن الله شملك بعنايته ورعاك بلطفه ، « وسبحان من يحيي العظام وهي رميم » .

(وسكت برهة ..) أما هذه فهي نادية .. زوجتي .. اتذكرها ياسعد انها

قد سهرت معك الليالي ، وتعبت فيك مع الأيام .. لم تنم ، ولم تأخذ قسطا واحدا من الراحة ... كانت تلازمك في كل وقت ، ولم تبرح غرفتك منذ أن رقدت على فراشك يوم عدنا من المدينة ..

واحمر وجه نادية وهي تسمع كلام زوجها .. وتعلقت أنظارها بسعد وتلهفت الى سماع كلمة منه تطيب خاطرها أو يشعرها بوجودها جنبه .. الا أن المريض راح في سبات وغيبوبة ..

وعندما أفاق وجدها بجواره .. فقرأت على وجهه علامات الرضـا فرق لـه قلبها .. وبخوف وحذر .. سألته عما اذا كان يرغب في طعام .. أو شراب .. فلم يجب ... وتحامل على نفسه فلم يتمكن من الوقوف .. وكاد أن يقع على الأرض .. إلا أن يد نادية أسندته ولما لم تتحمل ثقله أراحته على صدرها .. وببطء أجلسته ، ثم ساعدته حتى استلقى على فراشه وتيار قوي صاعق يسري في جسدها .

* * *

- ٥٥ -

الشرق شرق .. والغرب غرب .. وهما لايلتقيان ..

بهذا .. أخذ خالد يردد فيما بينه وبين نفسه وهو يضرب أرضا لم تطأها قدماه من قبل ، ويرى وجوها غريبة عليه ، ويسمع كلاما لايفهم جله ، وأشياء غريبة تشده وتثير انتباهه ..

ومشى يتخبط باحثا عن ذاته بين هـذا الخضم العجيب من البشر وبين هذا العالم المتموج .. يسبل عينا كساها الخجل تارة والحياء أخرى كلما شاهد امرأة سافرة تزاحم الرجال وتجادلهم .. ويدير رأساً امتلأ نصائح ، وثـُقّل بالوصايا من أهله وذويه كلما رأى منظراً غرامياً بين عاشقين محبين ، وعجب كيف تسمح شيم الرجال بمخاصرة النساء وهن يتمخطرن في لباس فاضح ، وكيف يرضى أولياء أمور الفتيات الصغيرات لهن بالخروج حتى ساعات متأخرة من الليل ..) وكثيراً ما حوقل وبسمل عندما تضطره ظروف الحياة أن يقابل زميلة له فيرى لزاماً عليه أن يرد لها التحية التي تبدؤه بها .. أما إذا هشت له وبشت ثم ابتسمت مجاملة واعجاباً ، فان أمر تلك اللحظة يكون عسيراً على نفسه ، ويومه يصبح من علامات الساعة .. - في نظره -

ولم ترق الحياة لهذا الشاب الذي قدم من بلاد الطهر والقداسات ، ولم يستطع أن يتكيف مع الحياة المادية أو أن يرتضي الأسلوب العصري الذي يعيشه ذلك العالم الغريب عنه ، وكثيراً ما فكر في النكوص والعودة من حيث أتى مفضلا الحياة الدينية التي عاشها ، المليئة بالاستقرار والهدوء . حيث لا صخب ولا ضجيج ، وحيث المثاليات والكرم والنخوة ، وحيث الحياء والحشمة ، وحيث العون والمساعدة يجدها أينما وكيفما حل أو رحل .. غير أن عزيمته التي لا تعرف التردد والخوف من اتهامه بالفشل خلقا منه قوة وتصميما ..

وهكذا كان .. مرت الشهور الأولى وهو يصارع الحياة الرخيصة - كما سماها - ويكافح في سبيل تعلم اللغة واجادتها والانكباب على المذاكرة والدروس .. مترفعاً عن كل ما يشغله أو يصرفه عن المتابعة ... يعيش في عزلة تامة ، لايشارك زملاءه مرحهم ، ولايشبع في زميلاته فضولهن حتى أصبح يعرف بالمتعجرف .. وماهو بمتعجرف .. الا أن نفسيته وتنشئته والبيئة التي عاش وترعرع فيها أوجدت لديه مناعة وصلابة .. فلم ينفع معه اغراء الليالي الحمراء ، ولم تشده دعوة العيون الفاتنة ولم

يحد عن الطريق الذي رسمته له المبادىء والمثل التي آمن بها ، ولم ينحرف عن الخط السوي الذي أوصاه به أبوه .

وكان يتسلى في كتابة الرسائل إلى والده ، وأهله ، وأصدقائه .. وكان يخصص وقتاً للكتابة إلى محبوبته عزه .. ينقل اليها صوراً من الحيـــاة التي يحياها ، ويعيش فيها .. كتب لها مرة :

« ... أتدرين بماذا كنت أفكر قبل أشهر ؟؟ لا .. لا .. لن أقول !!

ولكن .. دعيني أصور لك جزءاً من الحياة التي كُتِبَ علي أن أحياها .. والصراع الذي عشته مع نفسي ومع موجات الاغراء والاباحية ... قد تظنين أني مبالغ في الأمر ، ولكنها هي الحقيقة التي تبقى شامخة ، هازئة بكل القيم والمعاني التي ورثناها من تاريخنا وعاداتنا وتقاليدنا ... الحقيقة التي ذبحت على معابد الفضيلة باسم التقدم والحرية الشخصية ..

لشد ما كان يعجبني فيك وأنت ترنين إلي بعين ساحرة يزيد من فتنتها الخوف والترقب .. وطالما رقصت طرباً وغنيت فرحاً عندما كنت أشاهد على محياك مشروع ابتسامة فاترة يحبسها الحيـــاء ويضن بها الوقار .. وهنا .. ماذا أجد ... نساؤهم عاريات ، وفتياتهم اباحيات .. أما وقار الابن لأبيه ، وخوف البنت من والديها ، فلم تعد أكثر من اصطلاحات ليس لها في قاموس التعامل باب كأن يدا غليظة انتزعتها من عالم الوجود .. أو أن هناك قانوناً يمنع استعمالها .. »

وكتب لها مرة أخرى ..

« .. كأنك ياعزه تأثرت بما كتبته لك .. غير أن هذا لايمنعني من التفكير فيك والكتابة اليك حتى ولو لم تكتبي ... لانني أعرف فيك الوفاء والاخلاص .. وهذان أمران لا أجدهما حولي ولا المسها في معاملات الناس بعضهم بعضاً .. هنا

عالم مادي .. ليس فيه من مثالياتنا شيء ... القاسم المشترك بين النـاس هو المنفعة والمصلحة الذاتية .. حتى الصداقات . تصوري حتى الصداقات التي تصل الى درجـــة الحب تبنى على المصلحة وليس على التفاهم والوئام ... لله ما أعجبهم بشراً ، وما أتفه حياة يحيونها .. »

وعندما بلغه أن أخاه سعد لايزال في مرحلة النقاهة بعد المرض الشديد .. وأنه قد عاد إلى بيته يعيش مع والده ترعاه نادية زوجة أبيه شعر بالفرحة تغمره ، وذاب قلبه شوقا الى أخيه ، وتمنى لو أن يجمع الله بينهما ، وخطر له أن يكتب له رسالة هي الأولى بينهما ..

« ... سعد .. يا أخي .. وحبيبي .. ويا فرحتي يوم كان الدار يضمنا بين جدرانه .. ويا ملاذي .. وسلوتي .. عندما كان الزمن يقسو علينا فنجلس نشكو همنا وغمنا الى الليـل في دجـاه ، والى النجم في سمـاه ... فمـا نبرح أن نضحك هازئين بالدنيا ، تاركين همومها وراءنا ... أنت تغني احدى أغانيك الشعبية – والتي اشتقت إلى سماعها منك – وأنا أشنف أذنيك بالعزف الذي كنت لا تميل اليه ... أين منـا تلك الأيام يا سعد ؟؟ . ومتى تعود ؟؟ » .

« هنا .. أحس بالغربة والضياع في عالم لا أمت اليه بصلة ... دنيـا لاتقبل أمثالي من القادمين اليها في ثوب محكم تفصيله .. دنيا تريد الفوضى والمجون والخلاعة .. دنيا تهزؤ بالمثل والدين والأدب .. فتخلق بذلك جيلاً حائراً .. يزيد من حيرته فقدان التوجيه التربوي والاجتماعي والخلقي ... باسم الحرية يقتلون ويذبحون ويسرقون ويسطون .. وباسم الحرية تحمل الفتاة وتلد وتحمل طفلها الى أهلها وقـد تنسبه اليهم لانها لاتدري أي من أصدقائها أبوه ... أواه يا سعد كم هي عجيبة هذه الحياة ؟ وكم هو قاس ذلك الصراع النفسي الذي أعيش فيه ؟ ... لذلك تجدني ضائعاً .. لا أجـد الصديق الذي يسليني والرفيق الذي يشاركني آمالي وآلامي ، ويقاسمني وحدتي

وخلوتي .. كم تمنيت أن تكون أنت بجانبي نشد أزر بعضنا بعضاً حتى نتغلب على هذا التيار الجارف ... وكم هي عظيمة فرحتي .. وسعادتي أكبر من أن توصف أو يعبر عنها بكلمات عندما علمت أنك مقيم مع أبي ، وأنك صرت رجل البيت ، ورب الأسرة .. كم هي حلوة أيامنا ، فادع لي بالتوفيق والثبات على المبادىء .. وأنا قلبي يدعو لك بالعافية والهداية .. »

* * *

- ٥٦ -

في الوقت الذي أخذت صحة سعد تتحسن وتعلو محياه مسحة خفيفة من نضارة وبهجة ... كان هناك قلبان يتصارعان حوله ..

قلب امتلأ حقداً وكراهية ...

وقلب فاض حباً ومودة ...

الأول يكنّ له البغض والحسد ..

والثاني يزخر بالرغبة والفرحة ..

لم تشعر زكية مع هذا الفتى بأية ساعات رضا ، ولم تكن ترغب في ذلك .

وكانت نادية مستعدة أن تجود بروحها لتنير له طريق السعادة والهناء ..

وكان صراع الأولى يتمثل في مضايقته وايذائه وابعاده عن البيت .. بينما كان صراع الثانية ينحصر في كيفية توفير الجو المعبق بأزاهير الصبا المفخم بألوان الورود لاقناعه بالبقاء معهم ..

وكانت عجلة الصراع تدور في نفس كل من المرأتين ، ورحاه يفرقع ويجلجل فتسمع لهذه زفرات وفحيح ، ... ولتلك أنات وآهات ..

كان سعد – كعادته – لا يحس في نفسه سوى القرف من هذه وتلك ...

وعندما تسللت إلى نفسه أنفاس من الحياة ، وأحس بدبيب الصحة يجري في أوصاله .. كان لابد أن يشعر بانسانيته ، وأن يطأطيء رأساً شامخه لمن كان لها الفضل في تمريضه والعناية به ، والتخفيف عنه ..

ولم يفهم من نادية تلك النظرات التي كانت عيناها الجريئتان تبعثها مستترة حيناً وفاضحة أحياناً .. وكلها تكشف عما يدور في نفسها وما يتغلغل في داخلها . وما يعتزم في صدرها ..

ولم يدرك أن وراء حرصها من القرب منه قلباً أضناه الشوق ، وأسهده البعد ، وأتعبه الصد ... وظن أن طيبة قلبها ، وكرم نفسها ، وأصالة منبتها ... كل ذلك دفعها الى العناية به .. وأن عطف أبيه ، وحرصه على راحته ، وتعلق آماله بشفائه من جهة أخرى جعل منها انسانة عطوفة ودودة كي تتقرب إلى والده وتكسب رضاه ..

ولم يدر بخلده وهو الشاب الغر الذي لم يطرق الحب بابه ولم يمر الهوى أمام عينيه يوما إلا وطرده واستعاض عن هذا وذاك بروح التعالي والكبرياء ، أو بأغنية قديمة ، أو لحن شعبي يردده ... لم يدر بخلده أنها ضحت – وفي سبيل أن تضحي أكثر – لأمر ما في نفسها ...

ولقد كانت حياة سعد جدباء قاحلة خالية من الحب والعطف .. وبموت امه صغيراً ، ومرور الأيام ، وقسوة الزمن فقد الحنان الذي يشعر به كل طفل ، والرعاية التي تدغدغ حواس كل يافع وتهذب طباعه ...

ونظر حوله فاذا كل امـــرأة عرفها نصبت نفسها عدوة له ، فنشأ والحقد على النساء يملؤ قلبه ، وكراهيتهن تسيطر على حواسه ، فلم يعد يفكر في قلبه إذا خفق، أو يلبي عاطفته إذا نادت، أو يستجيب لحواسه إذا صرخت . . .

ولكن .. هي سنة الحياة .. وطبيعة البشر الأزلية .. فلا شيء يبقى على حاله ، ولا شيء يدوم على صيرورته . . . فكان المرض نقطة تحول كبير في حيـــاة سعد . . . فضعف بعد قوة ، ولين بعد شدة ، وذل بعد تكبر ، وخنوع بعد عجرفة .. ورقة بعد عنف ..

وعندما صحا سعد يوماً . . . تأمل نفسه ، وبكى على حاله كما لم يبك من قبل .. فلم يحلم قط بأنه سيصبح طفـــلا مرة أخرى تلاطفه وتدلله امرأة . . . ولم يفكر في قرارة نفسه أنه سيجيء اليوم الذي يتمنى أن يبعد شبح الموت عن عينيه وأن يتمسك بالحياة كالغريق يتعلق بقارب النجاة .. وهو الذي كان يلقي بنفسه في أحضان الموت إذا ما اشتد الوغى وحمي وطيس القتال بين الحارات في مكة ..

واستيقظت في نفسه عواطف مكبوتة استطاع أن يميتها وأن يئدها في نفسه طيلة عمره .. وبدأ يحس بشعور الابن نحو أبيه . ورقة العاطفة تجاه أمه ، ويحنين إلى البيت الذي نشأ وترعرع فيه ، وكم تمنى وهو طريح الفراش لا يقدر على الحركة في غربة عن أهله وبلده .. كم تمنى أن يكتب الله له الشفاء فيعود إلى أبيه وبيته ..

وعندما فتح عينيه لأول مرة بعد طول سبات تحت تأثير الحمى .. نظر فوجد نادية أمامه ، فأشاح بوجهه عنها ، وغض بصره حتى لا يراها ولكن حاجته الى العلاج والرعاية القت في فمه حجراً فألجمته .. ولضعفه لم يستطع زجرها أو طردها من جانبه .. واكتفى بأن ثارت في نفسه هواجس الماضي ، وطفح على وجهه غيظ مكتوم وهو يراها تتقرب اليه تلبي طلباته وتتفانى في خدمته . . . تتمنى لو أنها تمسك له النجـــم

ارضاءاً له دون تعب أو كلل ، ودون ضجر أو ملل ... إلا أن هـــذا التمسك بالحياة ، والأمل الجديد الذي أخذ يعرف طريقه اليه ،والسرور الذي كسا وجهأبيـه بهجة وشبابا جعله يتقبل من نادية رقتها ، ويحاول أن يترجم ابتسامتها وضحكتها ... وأخذت طباعه تلين ؛ وعاطفته ترق وتذوب في متاهات فكرية لم يستكشف مداها ولم يسبـغ أوارها ..

وكان كل مجهود يقوم به يرهقه ويقعده تعبا .. فتسرع هذه لتمسح عرقاً يتفصد منجبينهسال -- كرقصة حائره — ومنعلىصدره العريض .. فيحس براحة وتخدير .. ويتمتم بكلمات لايجيد انتقاءها ولايحسن نطقها إلا أنها في واقع الأمر تدل على شكر وامتنان .. وكان هذا وحده كفيلاً بأن يجعل من جحيم انتظارها جنة ، وأن يحول صحراءها الى خضرة وأزهار ...

* * *

- ٥٧ -

انقضى عام كامل وخالد لايزال يتخبط في متاهات فكرية وبحر لجي من الأوهام ... وكأنه زورق يشق عباب البحو بقوة واصرار وسط أمواج هائجة تميله يمنة ويسرة ، وتطرحه موجة هنا لتلقفه أخرى هناك ...

وتفتحت في نفسه مفاهيم جديدة وآفاق بعيدة للحياة مما زاد في حيرته،وأمسى ضحية أفكاره ما بين قيد وانطلاق ، وسجن وانعتاق .

وأخذ صراع جديد ينشب في ذاته .. بين عقله وقلبه ..

كما قام جدل عنيف .. بين ماضيه وحاضره .. وأمسه وغده ..

وأضحى كل شيء أمامه يشده اليه ويجذبه نحوه بقوة وعنف .. مما ترك ارادته تتذبذب وتضعف أمام هـذا التيار القوي الذي يكاد يجرف كل ما علق في ذهنه من مبادىء ومثل ، ويهزأ بكل الوصايا والنصح الذي امتلأ بـه رأسه الصغير .. حتى بات يخاف على نفسه من هول هذه الهاوية التي يريد أن ينزلق اليها .

وعندما أهـل شهر رمضان .. أحس بارتياح مفاجىء من ذلك الضيق الذي عاشه ، والصراع الذي عانى منه أياما وليالي .. فلشهر رمضان منزلة كبيرة في نفسه، ومكانة سامية في قلبه ، ورثها عن أبيه ، وتعلمها من البيت الذي عاش فيه .. وحفظ عاداتها من أهله وأصحابه في مكة ..

ففي رمضان يحتفل الناس هناك بشهر الصوم المبارك ، ويتباركون ويتفاءلون بقدومه .

ففيه الغفران والتوبة ، والقيام والتهجد ، وفيه تضاء القلوب بنور عرش الرحمن، وتصفو النفوس من شوائب الدنيـا ، وتطهر من براثن الاثم ، وتسمو الى مصاف الروحانيات ، وترتفع الى أعلى الدرجات ..

ومكث خالد في غربته يفكر في رمضان .. وجلس في وحدته يسترجع ذكرياته هناك ..

« هناك يجتمع الآن أبي وأخي والأهـل والأصحاب .. يتسامرون ويحيون ليالي رمضان في أداء صلاة العشاء وصلاة التراويح ثم بعدها ترفع سجاجيد الصـلاة ليفرش محلها بساط الأنس والمرح .. ففي لياليه حياة وانشراح ، وسهر وأفراح .. وتستيقظ مكة طول الليل ، ويزدهر السوق ويزدان بالمصابيح والأتاريك ، وتنشط

حركة البيع والشراء ويسهر الرجال في أعمالهم الوظيفية والتجارية ، ويلهو الاطفال في الشوارع ، ويجتمع عقد النساء في أحد البيوتات يتسلين بالكلام والغناء ، ويسرح الباعة في كل شارع وكل زقاق ينادون « بتسالي رمضان » « الفول » ، والتـرمس ، والحُلـبَة ، والمنفوش » ولم يتمالك خالد من أن يبتسم وهو يسمـع في أذنيه بائع المنفوش ينادي « قرمش قرمش يا منفوش » ..«يا الله العودة يا منفوش» .. نعم .. فهذا المنفوش لايرى ولايؤكل إلا في رمضان ..

حتى إذا اطلقت المدافع الطلقات الاولى ايذانا بوقت السحور .. وقام المسحراتي ينادي وهو يدق على طبلته .. « سحورك يانايم .. سحورك ياصايم » يهرع الناس الى بيوتهم .. لتناول السحور .. ثم ما يلبث أن يدق المدفع الثاني ايذانا بالامساك .. ويعلو صوت آذان المسجد الحرام معلنا صلاة الفجر ..

وهنا .. ذرفت عيناه دمعة حزينة .. وهو يتذكر ذلك المشهد العظيم وتلك الروحانية السامية ، والناس يطوفون قبل صلاة الصبح ، وعند شروق الشمس ..

فتذكر كم يدين بالخشوع والرهبة والاجلال للطواف قبل آذان المغرب عندما كان « يفك الريق » في حصوة الحرم والناس من حوله تجتمـع جماعات على الزمزم والتمر .. في الوقت الذي كانت ربات البيوت قد قضين يومهن في المطبخ لاعداد فطار شهي .. (فالسمبوسك واجب والشوربة فرض .. والجبنية مستحبة .. واللحوح سنة والألماسية نافلة مكملة للصفرة ..) وأحس بلعابه يسيل ، ونظر حوله فلم يجد سوى خبزة وجبنة ومعلبات .. وأسف أشد الأسف إذ أنه لم يحسن صنع المشهيات والمقبلات .. وتمنى لو أنه في « سوق الصغيرة » بمكة فيشتري من بائعي السمبوسك ما يكفي حاجته .. ولم يشأ أن ينسى ذلك النغم الجميـل الذي يتمثل في البائعين وهم ينادون ... « في الجنة جوّا يا صايم .. الله وليك ياصايم . »

وأغمض عينيه .. وقفزت إلى مخيلته صفوف المصلين في العشر الآواخر من الشهر الفضيل وهم يؤدون صلاة التهجد .. « لله ما أتعسني ما أشقاني وأنا أهيم في هـذه الدنيا العجيبة ، وما أحلى أن يشعر الانسان بحلاوة الايمان وعظمة الاسلام ، فرغم أن النفس أمارة بالسوء إلا أن العاقل من يخضعها للدين ويكيفها بتعاليمه ، وعنده نحس بلذة الدنيا وصفائها ، ونعيم الآخرة وثوابها .. والا .. كيف يقف الانسان ساعات ينصت في خشوع وتبتل إلى الامام وهو يقرأ آيات بينات من كتاب الله المحكم وأن يستطيب المخلوق الركوع لله في ذل ، وأن يستعذب السجود لخالقه في صبر وقتا طويلا لايحسه ولا يدريه الا عندما ينتزعه صوت المؤذن « الله أكبر .. سمع الله لمن حمده .. الله أكبر .. » فيرفع رأساً امتلأ بالايمان ، ويفتح عيناً ذابت رهبـــة ، ويحرك قلباً اشتد شوقاً إلى معانقة الملكوت الأعلى ... »

وعندما أفاق .. أفاق وضجيج الأطفال وهمهمات النساء تدوي في أذنيه إذ تخيل نفسه في دكان أبيه يساعده في أواخر أيام رمضان في بيـع القماش والملبوسات استعدادا للعيد السعيد ... ورأى جموع البشر وهي تزاحم في « صلاة المِشْهَدْ » مرتدية كل جديد وأصوات زمامير الأطفال « والطراطيع » بضج بها كل مكان .. ولم يتمالك نفسه من البكاء وهو يرى كل أفراد العائلة مجتمعة حول افطار الصباح ، وسمـــع في أذنيه صوت أبيه يسأل ويتفقد الغائبين ... وتخيل أن والده يفتقد غيابه لأول مرة عن بقية الأسرة وعرف كم هو صعب ذلك الفراق ..

ونادى في تبتل .. عزه .. أين أنت الآن .. ؟

* * *

- ٥٨ -

... وعندما أطلقت المدافع طلقاتها الواحد والعشرين .. دوت أصداؤها في أرجاء مكة ، ورجع صوتها يدك الجبال المحيطـــة بها معلنة العيد السعيد ... العيد الذي تكمل بـــه فرحة الصائم .. وعلا صوت المذياع .. « الله أكبر .. الله اكبر .. الله اكبر لا إله الا الله .. الله اكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرة وأصيلا .. » عندها صفقت القلوب طربا ، ورقصت المحاجر جزلا ، وهرع الناس الى بيت الله الحرام وهم في أحلى صورة وأبهى منظرا ، وجوههم تفيض بالبشر ، وعلى محياهم تعلو ابتسامات الرضا والطمأنينة والسرور ..

كان هناك قلبان حائران ..

قلب امتلأ حنانا وشغفاً ..

وقلب فاض شوقا وحبا ..

قلب الأب ـ أحمد ياسين ـ الذي ذاب وجدا على فراق ولده خالد وبُعده عن مشاركته فرحة العيد وبهجة اليوم الذي تجتمع فيه العائلة مهنئين مباركين .

وقلب المحب ـ عزه ـ الذي لم يعد يدق الا ليذكر اسم خالد ولم يكن يحيا إلا ليهتف باسمه .

ولقد تعلقت بحبه وشغفت به .. وكان كل يوم يمر على غيابه يترك بصمات على صفحات حياتها كشاهد على ولعها وحيرتها .. غير أن شيئاً ما جعل من فرحتها عذابا ، ومن نضارة يومها كآبه ، وحول ابتسامتها الى بكاء ، وبدل ضحكاتها الى

دموع .. لم تستطع مشاركة أهلها ما هم فيه من مرح وضحك وحبور .. وأخذت من غرفتها مكانا قصيا ، وفردت رسائله أمامها تستعيد قراءتها وكأنما تمتحن ذاكرتها في حفظ كل كلمة وفهم كل إشارة منها .

وعندما فرغت من قراءتها أحست بطعنـــة خارقة تنفذ في حنايا ضلوعها .. وازدردت ريقها بعد أن شعرت بجفاف في حلقها وتصلب في لسانها .. وأخذت تناجي نفسها ..

« أهذا هو العيد .. العيد الذي يفرح به كل مخلوق ، ويهنؤ به كل قلب ؟؟ الست أنا واحدة من هذا البشر ؟ اليس لي قلب يهفو وفؤاد يخفق ؟ ؟ لا .. إن لي عينـــاً تجود بالدمع – فقط – فيا مقلتي سحي ، ويا أرض اشربي من دمعي ، وارتوي من دمي .. »

« ان القلب الذي كان يخفق بالحب سيموت باسم الحب .. والجسم الذي كان يحيا للحب سيقضى عليه في سبيل الحب .. ألا ما أشقى عيدي .. وما أتعسه من يوم قرر فيه والدي زواجي من ابن عمي .. انهم في هـذا اليوم يذبحون خروفا ليتوجون به فرحهم وبهجتهم .. هم قد ذبحوا نعجة قبل عيدهم هذا .. لقـد ضحوا بي .. بقلبي .. بشبابي .. فيا حسرتي وقلة حيلتي .. كيف لم يفكر أبي في ابنته الوحيدة كمخلوق بشري .. كيف لم يفكر في مستقبلها ومصيرها ... »

« .. وخالد .. كيف أنقل له الخبر ؟ كيف أشرح له أن أبي وعمي اتفقا في ليل .. لا .. بل تآمرا ونفذا حكمهما بالاعدام علي .. على حبي .. على حبنا .. بل وآمالنا .. ومشاريعنا للمستقبل .. وللبيت الذي سيضمنا .. (ولاحت منها التفاتة إلى شباك الغرام .. ففرت من عينيها دمعات حارة ..) آواه ربي إلى أين يقودني هذا الزواج ؟ وكيف يتلقى المسكين هذا النبأ الفاجع ...

أأ كتب له شارحة ظروفي ؟ ؟

أأ قول له انهم تصرفوا بي كما يتصرف تاجر في سلعته ؟

ولكن .. (وبرقت في ذهنها خاطرة ..) لمـــاذا لا أكلم والدي في أمر الزواج ؟ لماذا لا أبدي عدم رغبة فيه ..

وهل أستطيع ؟ ؟ كيف يتسنى لي ذلك ؟؟ اني لا أجرؤ على الكلام معه في حديث عابر فما بالي عندما أفاتحه في أمر خالد وحبي ..

سيصفعني .. سيقتلني .. وإن ... الموت أرحم من أن أتزوج غير الذي وهبته حياتي .. وسكن قلبي ، وسيطر على حواسي ...

وعندما هدأت نفساً .. ومسحت دمعاً ، وعاودها الفكر ورجاحة العقل .. تحدثت مع نفسها في هدوء ...

« ولكن .. كيف أبدأ الحديث .. وهل يسمع مني أبي ما أريد شرحه ؟ .. وهب أنـــه أعطاني أذناً صاغيـة .. سيسألني .. وكيف عرفته ؟ ومن أين ؟ ومتى .. ؟ وإذا لم تثر ثائرته لهذه الفضيحة العائلية .. وكان الرحمن بي عطوفاً فأنزل على قلبه سكينة وطمأنينة .. سيقول .. يابنيتي إذا كان هذا الخالد قد رغب فيك .. ومازال .. فلماذا لم يتقدم إلي ؟ .. لماذا لم يفاتحني والده مثلا .. نحن جيران ، وليس بيننا حجاب .. وللجار حق واجب ..

« وهب أنه قال .. ألا ترين أن الزواج من ابن عمك أفضل .. فهو قريب لك وعصبة .. إلى جانب أنه رجل فاضل ، وتاجر ناجح . أما ذلك الذي تحكين عنه فلا زال طالباً . وقد يتعثر في دراسته ويعود خائباً ويعيش عالة على أبيه .. ماذا أقول .. وبماذا أجيب ؟ ؟ ؟

« إن لأبي نظرة خاصة مادية ، وهو رجل صلب عنيد في أمور الدنيـــا ، ولا يعترف بما يسمى حبا .. فالحب يأتي بعد الزواج ، وينمو ويترعرع في العشرة الزوجية .. هذا رأيه .. إني أعرفه سلفاً .. »

وقامت تندب حظها ، بعد أن سدت أمامها الطرق .. وتعذر عليها الوصول إلى حل ..

وقضت كل وقتها تفكر .. هل تكتب لخالد ؟؟ هل توصي أخاها أحمد بنقل الخبر اليه ؟ هل تترك الأمور تسير وتنتظر حكم الله في أمر زواجها .. وباتت ليلتها حزينة باكية .. والناس من حولها يفرحون ويغنون للعيد السعيد ..

* * *

- ٥٩ -

« . وهل نحن إلا مخلوقات بشرية ؟؟ وهل يمكن لارادتنا أن تصمد أمام هذا المد الزاخر من الاغراءات ؟ .. وكيف لها أن تتغلب على تلك الموجات الهائلة من الماديات وهي التي خلقت بطبعها ضعيفة ؟؟ » .

« إني أتعذب . . أتعذب . . رحماك ربي ... »

وارتمى خالد على سريره ، ودقات ساعات قوية تدق الثانية صباحاً . . وحاول أن يغمض عينيه ، وأن ينام ...

ولكن ... كيف للكرى أن يزحف إلى جفنيه بعد أن اكتحلا بأحلى وجه ؟ ؟

وكيف يغمض عيناً رأت الجمال ، والرقة ، والنضارة ...

وحاول أن ينسى ...

ولكن كيف ينسى وقلبه قد طبع صورتها في أعماق أعماقه .. ومخه أخذ يشارك في ترديد الصورة وإرسال الإشارات العصبية التي تساعد على الأرق والضنا ..

« وجه رقيق . . شعر ذهبي حرير . . بياض مشبع بحمرة . . بسمه رقيقة مضيئة . . صوت عذب رخيم . . قوام فتّان . . قد ممشوق . . »

— سوزي . .

— خالد

— طالبه مستجده ...

— طالب بالسنة الثانية ..

بهذا تم التعارف ... وبهذا سجل التاريخ له أول لقاء . .

ومرت بجسمه قشعريرة .. كتلك التي أحس بها وهو يصارع نفسه ويقاوم خجله ويشد كلمات توقفت في حلقه وتحجرت مخارجها على أوتار صوته .. فقد كان إلى ذلك اليوم لايزال الشاب الذي يحجم عن مخاطبة الفتيات .. ويأبى في شمم مخالطة الزميلات ..

. . على هذا نشأ وتربى . . وبهذه العقلية والافكار كبر وشب . . ولو كان قد خبر الدنيا وسار في دروبها المعوجه لما أمكن أن تبعث فيه تلك النظرة

الجريئـــة من سوزي وابتسامتها التي ترجمتها الى حديث وكلام ... ذلك الاضطراب والارتباك ... ولما أصبغت وجهه حمرة الحياء والخجل .. ولما فقد جنانه أمام فتاة وتكلف بأن يتلعثم ويحس بقشعريرة عند مخاطبة أية امرأة ..

ووجد نفسه يستعذب استرجاع صورتها .. واعادة مادار بينهما من حديث مقتضب وكلمات متقطعة ...

ولم يستطع الكرى أن يسترق الخطى إلى جفنيه ليذوبا في النوم بعد أن ذابا تشوقا واحتراقاً إلى الغد الجميـــل ليشاهدها مرة أخرى .. وليستمتع برؤية وجههـا وتموجات صوتها الناعم ..

وأخـــذ يهيئ نفسه وينتقي الكلام الذي سيقوله ويرتبه في ذهنه .. حتى إذا ما وجد نفسه أمامها ذابت في رأسه الأفكار وتعثر لسانه .. وسمع صوتها من خلال وجيب قلبه ينفذ إلى أذنيه ...

ـ هل قضيت وقتاً ممتعاً ليلة أمس ..

ـ نعم .. (وكم تمنى لو أنه قال أنه قضى وقته يفكر فيها فقط ..)

ـ ولكن يبدو عليك الارهاق والسهر ...

ـ أنا .. لا .. (وقال في نفسه .. ترى .. هل عرفت ..) لقد أمضيت جزءاً كبيرا من الليل في المذاكرة ...

ـ أوه .. أراك مجتهداً .. (وأضافت بعد أن ابتسمت ابتسامة وضاءة) .. قل لي .. ماذا يعني اسمك بالعربية ..

ـ اسمي ... نعم .. إنه يعني الخلود (وشجعته على الكلام بابتسامة أخرى) الخلود يعني البقاء . فالانسان عندما يموت يفنى ويبقى ذكره ..

- اذن فهو رمز الحب .. الحب الذي يبقى خالدا ..

هذا إذا كان حباً نقياً طاهراً لا يتأثر بعالم الماديات .. مصدره العاطفة الصادقة وليس الرغبة .. أو الطمع ..

هل الحب في بلادكم أنواع ؟؟ وهل تعني أن الحب عندكم لا يهتم بالماديات .

- الحب في بلادي ... الحب في كل مكان .. إذا كان صادقاً ، نابعاً من القلب .. سما عن كل شائبة ، وعلا عما عداه ... ونحن نتوج ذلك الهيكل من الحياة ونتممه بالزواج ...

- ليس شرطاً أن ينتهي الحب هنا بالزواج .. فالحب اعجاب وامتزاج شخصين وتوافق بين روحين ... أما الزواج فيعني الاستقرار والرغبة في تكوين أسرة .. وهذه الرغبة عادة لا تأتي إلا مؤخراً ، بعد أن يكون الفرد منا قد عرف الحياة واستمتع بمباهجها ..

(قالت هذا .. وأردفت ضاحكة ..) يبدو أنك جئت هنا لتنشر فلسفة الشرق .. نسيت أنك تعيش في الغرب .. فهلا تركت وراءك تلك الأفكار .. ومادمت تعيش بيننا فلا بد أن تفكر وتتصرف كما يفكر ويتصرف أهل هذه الديار ...

- ولكن .. (وأراد أن يقول شيئاً .. يفند به رأيها ، ولكنه خاف على مشاعرها المرهفة .. فآثر أن يقول ..) لا أستطيع أن اتخلى عن آرائي .. كما أني أعترف بأني لا أستطيع أن أغير من آرائك ..

- ولكنك ستتغير حتماً .. (وأطلقت ضحكة موسيقية ..) وجرته من يده قائلة .. هيا إلى النادي .. إنك لم تحضره مرة .. تعال ياصديقي .. فيكفي

انعزاليـــة ، ألا تشعر بالوحدة ؟؟ ألا تسأم من الانفراد بنفسك وترديد الآهات والزفرات .. والبكاء على حائط الحرمان ؟؟؟

وبدون أن ينبث بكلمة .. مشى معها وفي عينيه لاح بريق عجيب .. ورقصت على محياه دلائل الزهو والخيلاء ... زهواً بنفسه وخيلاء بجهلها الأخاذ ...

وعندما دلف معها إلى نادي الكلية .. كانت موسيقى حالمة تنساب من الفرقة الموسيقية ، وأضواء خافتة تعكس على المكان المعبق بدخان السجائر ممـــا زاد الجو وحشة وغرابة ...

والتقت عيناه بعيني سوزي ، وقرأ في وجهها دعوة سافرة للرقص .. ولم تمهله ثوان .. وسحبته إلى الحلبة ... وتعلقت بذراعه والتحمت بـــه .. وصارت تزداد التصاقا به كلما تدافعت الأجسام واحتكت بعضها ببعض .. وأحس بتخدير عجيب ، والتقط أنفاسه وهمس في أذنها :

– أتدرين ؟؟ أني لا أعرف الرقص ..

– ستتعلم ...

– ولكني أخاف أن يشغلني عن الدراسة والمذاكرة ..

– سيجعلك تحس بطعم الحياة ولذة العيش ...

– إني أجدهما في أشياء أخرى تعود علي بالنفع

– وهل هناك نفع أكثر مما أنت فيـــه ؟؟ ألا يكفي أنك تضيع زهرة شبابك ونضارة حيويتك هدراً ... فالرقص ضرورة من ضرورات المجتمع ووسيلة من وسائل التعبير الذاتي .. وهو أيضاً – فاتحة تعارف – بين اثنين .

وازدادت تعلقاً به ، فلم يدر ماذا يقول أو ماذا يفعل ، وأخذت تحركه يمنة ويسرة في خفة ورشاقة ، وهو لايشعر إلا بدوار . وفي لحظة سريعة كان الجسدان يلتحمان شعر بقوة غريبة داخله جعلته يشدها اليه بحركة لا إرادية ، كما كانت أنفاسه تعلو وتهبط بسرعة فائقة ، ودارت عيناه زائغة فوق شعرها ..

وعندما استرد أنفاسه التقت نظراتها .. فقالت في خبث ..

– كان أجدر بك أن تتمالك أعصابك وتوفر جهدك لوقت آخر ...

وفتح فما امتلأ دهشة .. إلا أنها قفزت برشاقة وقالت :

– أحس بجوع شديد ... هيا بنا ..

* * *

- ٦٠ -

أخذ الجو يميل إلى البرودة الشديدةولم تعرف مكة من قبل شتاءً بارداً مثله منذ عشرات السنين ، فاحكم اغلاق النوافذ ، وكوم الناس الفحم والحطب وسط الغرف وأشعلوا نيرانها طلباً للتدفئة .. ولزموا بيوتهم ، وخفت الحركة في الشوارع ليلاً...

غير أن حرارة الصراع الذي يدور في بيت الشيخ أحمد ياسين لازالت تشتعل يوما بعد يوم .. وكثر الصدام بين الضرتين ، واشتعل أوار النـــار بين زكية وزوجها ... ويوما بعد يوم صارت تزداد ضراوة وشراسـة ، ولم تعد تطيق رؤية سعد طريحاً ممدداً على فراش وثير أمام عينيها معلقاً بين الرجاء واليأس ، والأمل والقنوط ، مؤرجحاً بين الحياة والموت ، وتمنت لو أن الأجل يعصف به وتتخلص من متاعبه وترتاح منه إلى الأبد ..

ولم يرقها انصراف زوجها عنها وانشغاله بولده العاق ، وشكره لنادية لعنايتها به وسهرها على صحته ..

لم تدع فرصة الا عكرت فيها صفو العائلة وكدرت هدوء البيت وأثارت زوبعة هوجاء من الصياح والسباب والشتائم ..

وكان الشيخ أحمد ياسين يغالب الحنق في نفسه ويتعفف عن الصدام معها ويترفع عن مهاتراتها .. فقد انهمك في أعماله التجارية ، وانكب على رعاية ولده ، ووجد في صدر نادية الصدر الحنون والقلب العطوف ، والانسان المتفهم لضرورات الحياة . وترك تلك تعوي كالذئب وتنبح كالكلب في دياجير الظلام ..

الا ان عزوفه عن الحياة قد سبب فراغاً كبيراً في حياة زوجتيه كلتيهما .. فهو لم يعد ذلك الرجل القوي الذي تنتابه نوبات صرع جنسي أو تخور قواه عند أول اشارة أو بادرة منها .. وأحس في دخيلة نفسه وقدرته أن انجذابه الى المرأة أخذ يخف تدريجاً . فصار يسبغ حناناً على نادية ويعاملها برقة وعطف .. كما أن معاملته لزكية لم تكن مزيجاً من الاهمال والكراهية بقدر ما كان دافعها الشفقة عليها والتأسي على وحدتها وما تعانيه من حرمان ورغبة متأججة تصل بها أحياناً الى درجة الجنون .. لذا فقد كان يقابل ثورتها بالهدوء وصياحها بالإغضاء ، وعصيانها بالترضية .. فقد عرف فيها المرأة الجنسية التي تعودت العب من مناهل اللذة كيفما وأينما اتفق ، ولم ينس أنه عودها أن تكون ذليلة لجسدها ، خاضعة لجبروت ندائه .. تتخبط يمنة ويسرة كلما سمعت عواء الذئب ينهش في لحمها .. حتى غدت ثوراتها على زوجها ، وحقدها على ولده ، وصدامها مع ضرتها متنفساً ومنفذاً لتفريغ شحنات الطاقة التي تغذيها ...

وباتت نادية .. الفتاة الزهرة .. ذابلة محطمة .. فلم تف الدموع التي ذرفتها ، والآهات التي صدرت عن قلبها المكلوم ، ولم يساعدها سهر الليالي ومناجاة القمر ، واسترضاء المريض .. على شد انتباهه أوميله نحوها كما اشتهت .. وصارت حياتها موزعة بين الواجب والعاطفة ... واجب الزوجية ومتطلباتها .. والعاطفة الجياشة التي تسيطر عليها نحوه .. وأصبحت تعيش في تيارين متضاربين .. يزيد من تأجج النار التي تلهب مشاعرها النظرات الحنون التي تجدها دوماً في عيني زوجها وكأنها تشجعها على العناية بولده وال و عليه .. الا أن هذه النظرات كانت تتحول في عقلها غير الواعي الى ما يشبه التحريض على المضي في ارتباطه به ، وتعلقها بحبه الذي أصبح متغلغلاً في صدرها .. يسري كالتيار في بدنها كلما تلاقت أعينها أو لمست يدها يده أو جسمه المريض ..

وطالت بالفتى سعد الرقدة .. وتمكن منه المرض .. فحطم نفسيته وزعزع كيانه ، واستحالت قوته ضعفاً .. وتحولت نظرات التحدي الى استعطاف مغلف بالصمت مكال بالحياء .. ومع تململه في فراش المرض وتطلعه الى اليوم الذي يستطيع أن يقف على قدميه ويغادر البيت الذي لم يتعود الجلوس او الاستكانة فيه الى العالم الخارجي حيث الهواء النقي ، والصحاب الكرام ، والنفوس الطيبة ، والقلوب الفتية ... الى حيث القوة والاباء وسط نفر من القوم همهم الراحة والسكون ، وأنسهم سهرة ومرح وسمر وغناء وطرب .. يومهم غدهم ، وغدهم أمسهم لافرق عندهم في الأيام لأن الزمن يقف عندهم دون حراك ... لا هم .. ولا غم .. ولاتفكير في المستقبل .. الحياةعندهم رخيصة ، والعمرأرخص ... الشاطر فيهم من استطاع أن يجمع بضعة قروش ينفقها على ملذاته ويتفضل بالباقي على أصحابه ليشعر بالاستعلاء والزهو ..

وتأمل نفسه .. وتحسّس بيدين مرتعشتين جسماً ناحلاً .. وعظماً واهياً .. وتطلع الى وجهه في المرآة .. فراعه اصفراره ، وبروز عظمه ، واشتد وجيب قلبه عندما رأى هالة سوداء تحيط بعينيه .. ورفع جفناً مثقلاً .. وتطلع الى الوجوه حوله ، فهاله منظر الخوف والهلع المرسومين عليها .. وأحس بحـــاجة شديدة الى البكاء ... ولكن كيف يبكي أمام هذه المخلوقة التي لاتفارقه .. لا .. لا .. انه لايستطيع أن يعري نفسه أمامها .. أو يكشف عن ضعفه ..

واصطكت أسنانه وقاوم في جلد تلك الرغبة . وانخرط في أفكار بعيدة بعد أن أحس احساساً خاصاً بأن الحمى ستفتك به وأن أيامه في هذه الدنيا الواسعة أصبحت معدودة .. وأن أمله في الشفاء ، وتعلقه بالحياة أصبحا بعيدين عنه ...

وتلألأت دمعة في محجرهـــا ، وزاد شحوب عينيه .. فلم تطق نادية رؤيته يبكي .. وأيقنت أنه يعاني آلامـــاً حادة ، ويقاسي أشد العذاب .. فخرجت مسرعة تداري نحيبها في خجل ، والتقت بزوجها فراعه منظرها .. ولم تتمالك أمرها فألقت بنفسها على صدره ، وأشارت الى حيث يرقد ابنه .. فدفعها برفق ، وهرول الى غرفة سعد .. فوجده مستلقياً ، يغالب البكاء ، وقد اشتد اصفرار وجهه وشابته زرقة خفيفة ، وبدت عيناه متسعتين محاطتين بهالتين سوداوين ...

وعندما شعر بدخول أبيه حاول الجلوس ولكنه لم يستطع وأحس بقشعريرة شديدة وبرودة في أوصاله وعظامه ، وانتابته نوبة من نوبات الحمّى فصار يرتجف كطفل .. واشتد خوف أبيه وقلقه عليه ... حتى إذا ما أفاق وارتاح قليلاً .. أرسل من عينيه نظرات غريبة وكأنها تخاطب الأفق .. أو تشير الى العالم المجهول ..

ودنا منه أبوه ليسمع همسه وكأنه يناجي نفسه ..

« سأموت .. نعم سأموت .. اني أحس بدنو أجلي ... وستكون النهاية .. النهاية التي يخشاها الجبناء .. لكم تطلعت نفسي أن أموت في ميدان الرجولة بدلاً من أن أموت ضحية حمى تصيب الضعفاء .. أتذكر يا سعد .. كم مرة أقحمت نفسك في معامع ومواقف كنت تخرج منها منتصراً قوياً ؟؟ .. وكم مرة كاد الموت يكون أقرب اليك من حبل الوريد .. وكنت تتصدى له وتهزأ بمن أحاطوا بك وكأنك تمارس لعبة صغيرة .. كم أنت قاسية أيتها الحياة ؟؟؟

لقد كتب عليّ الشقاء من يوم أن ولدت ..

وهانت علي نفسي منذ أن فقدت حنان أمي بموتها .. وفقدت عطف أبي بانصرافه عني وانشغاله بأمور الدنيا ..

ضاع عمري هباءً ، وذهبت حياتي سدى ..

أي نفع جنيته ؟ وأي فائدة حققتها ؟؟

كنت مصدر شقاء لأسرتي .. وبوتقة آلام لوالدي .. ومنبعاً للضغينة لزوجتيه .. ومثار قلق لأخي ..

ترى هل ضللت الطريق ؟؟

هل كان في مقدوري وأنا الطفل الضائع أن أخط لنفسي مسيرة للحياة الوادعة .. وأنا الذي ربيت على الحقد ، وطبعت على الحرمان لا أجد قلباً عطوفاً ، ولا صدراً رحيماً ؟؟

لماذا يحقدون علي ويضمرون لي السوء ؟؟

لماذا أحبهم وهم لايرومون الا تحطيمي وتعاستي ؟؟

كيف يريدون أن أسير بخطاً ثابتة والشوك مزروع في دربي ؟؟

كيف يريدون أن أرفع رأساً تدكه المطارق وتنهال عليه الضربات ؟

هم حولي الآن عندما خارت قواي ، وضعف الأمل في شفائي ..

هم يحيطون بي ويشملونني بالرعاية والعناية بعد أن خبا نور عيني وسدت طرق النجاة أمامي ..

هم يصبغون مقتهم بابتسامة .. ويطمسون وجوه البغضاء بمساحيق النفاق والمداجاة لما دنا أجلي ...

ألم يكن أوفق لهم وأسلم لي .. لو أن هذا الزيف ، وذلك الرياء كانا هما البداية والمقدمة في التربية ..

ضاع الأمل يا أبي ..

وضاعت الحياة هـــدراً ..

سأفارق هذه الدنيا بما فيها من نفاق ولؤم وزيف ، وخور ... وأخلف ورائي أناساً سيفرحون لرحيلي ، وقلوباً تتأسى على موتي ..

سأترك ورائي أباً سيذرف دمعات على فراق ابنه ، كما ذرف دمعات مماثلة على فراق زوجته من قبل – وبمرور الأيام – سينسى موتي كما نسي وجودي ، وسيهتم بولد له آخر نال من رعايته ، وسينال منها ما بقي زهر على شجر ..

وسيتذكرني أخي ... أجل .. سيتذكر شقاوة أخيه ، وسيجود عليه بدمعة وفاء أو شفقة ، وسيردد مع الآخرين ... مسكين .. راح ضحية نفسه .. عاش وحيداً ، ومات غريباً .. ظلمه المجتمع .. وقادته صحبة السوء ، ومرافقة الأشرار إلى أسوأ المهالك ..

وستتبعني اللعنات إلى قبري من زوجة أبي وتطاردني سمومها وتلفحني أنفاسها الملتهبة حقداً وكراهية ..

وستبكي هذه المسكينة على فراق شاب علقت عليه آمالاً شيطانية .. وأحاطته بمحبـــة آثمـــة ..

« فياموت زر إن الحياة ذميمة ويانفس جدي إن دهرك هازل »

شيء واحد لايعرفه الجميع ..

شيء واحد سيبقى سره مطوياً الى الأبد .. سأحمله الى قبري ..

ذلك هو .. أني سعيد ..

سعيد لا لأني أموت رغبة في الموت .. ولكن رغبة في الهروب من هذه الشرذمة من الناس .. من هذا الجو الكريه الذي لايرعى كرامة الانسان ... من الدنيا المليئة بالحقد والكراهية ، والحسد والنفاق ، والعلاقات الآثمة ...

وأغمض عيناً أسهدها الكرى .. ولفها بياض الموت وكانت رقدة الى الأبد ..

* * *

- ٦١ -

من بين الدمعات التي ذرفها الوالد .. وهو يكابد ويعتصر ألماً برؤية ابنه يحتضر ويودع الدنيا بكلمات يقتضيها قوة واسترحاماً ... كانت دموع الأسى والحزن .. كما كانت دموع الندم والحسرة .. وكان يحس بلهيبهـــا يلسع خديه ، وشواظها يكوي جنبيه ..

كل كلمة قالها سعد وهو على فراش الموت .. كانت بمثابة سوط ألهب بها ظهر أبيه .. ومطرقة دق بها ناقوس سوء التربية والتوجيه ..

« .. مات .. مات الولد الشقي مات الذي لم يحمل في صدره غلاً ، ولم يحتفظ بضغينة ، ولم يضمر شراً لأحد وعلى الرغم من ذلك فقد ذهب إلى عالم الفناء وفي عينيه دمعة ، وفي قلبه حسرة ، وفي حياته نقطة سوداء ..

حرمه القدر العطف والحنان .

ومنعته الظروف التي عاشها من نعيم الحياة وترفها .

وشده الطيش والشباب إلى المغامرة وحياة الفتوات والمشاكل كلّه .. فوجد فيها متنفساً لآلامه وميداناً فسيحاً لاثبات قدرته وكبريائه ورجولته ..

« صرعته الحمى فلم تجد فيه إلا عناداً ومقاومة ... »

ولم ييأس ، وتعلق بخيط ضعيف من الأمل في الشفاء .. وتمسك به .. وخطفه الموت ، وخطف معه زهرة شباب وحيوية ورجولة ..

جالت هذه الأفكار في خاطر أحمد ياسين وهو يحملق في وجه ولده غير مصدق ما يراه ، وغير معترف بالواقع .. والدموع تنسكب من مقلتيه مدراراً ، والدنيا تضيق أمام ناظريه حتى لم يعد يحس بوجود بقية أفراد الأسرة ..

وانكفأ على الجثة يعانقها ، والرأس يقبله ، وصدرت منه آهات وزفرات اهتزت لها قلوب من أحاط به .. وأخذ يخاطب ابنه في صوت محشرج بالدموع :

« .. فليرحمك الله يابني .. وليسكنك جنات عدن أعدها الله للمتقين البررة .. ولئن كان موتك مصاباً لي ، فليكن رحمة لك .. وليكن عزائي فيك أنك ستستريح من هذه الدنيا ونكدها ... وشظف العيش وكدره .. وقسوة الزمان وجبروته ...

وليسامحني الرب على ما ارتكبته معك من هفوات ..

أواه ياسعد .. من لي بمثلك ابناً يملأ البيت صراخاً ، ويجلجله زعيقاً ؟؟ .. من لي بولد كريم ، أبي ، عفيف ، نبيل ، طاهر اليد ، تقي الفؤاد ؟؟

ستصبح الدار بعدك خالية ، وستصبح حياتي كلها عذاباً بعدك ..

ترى ؟ ؟

هل هو عقاب الدنيا قبل عقاب الآخرة ، أن يصاب كبدي بفقدك ؟ ؟

وهل هي عدالة السماء أن أتعذب بموتك مثل عذابك في حياتك معنا ..

إني أشهد الله على أنك لم تلق في حياتك راحة أو هناءً ، ولم تصادف يوماً سعادة أو سروراً .

فلتهنأ اذن بموت الشهداء .. فأنت مازلت شاباً نقياً طاهراً ، فالجنة أمامك والآخرة خير مقر لك .. وودع هذه الدنيا ، واتركها لنا بما فيها من شرور وآثام ، وقلق ، وعذاب ضمير .. »

وسقط فوق ابنه منهاراً ، وتلقفته يدا زوجته نادية وهي تكاد تقع فوقه من فرط ماهالها من موت سعد ، وتماسكت بكل مابقي من قوة في عضدها ، وأراحت جسم زوجها الذي راح في غيبوبة وأسرعت إلى كوب ماء ترش به وجهه .. وعندما أفاق ، وجد أمامه كومة من أعصاب محطمة ، وعيناً استحال بياضها اصفرارا ، ووجهاً كسته صفرة الموت ، شعراً منفوشاً ، وصوتاً مبحوحاً ، وثياباً ممزقة .. ولم تكن نادية تصحو من نوبة اغماء ، وتفيق من نوبة بكاء حتى تعود ثانية وتجثو أمام قدمي سعد تقبل يديه ورأسه ورجليه ، وتخاطبه في أعماقها ..

« .. ماذا ترى عيناي .. وهل أصدق بأنك فارقت الحياة . كيف أصدق ؟ لا .. لا .. لا .. انك لازلت باقياً في قلبي . متربعاً على عرش حياتي .. لن يخبو نورك في دنياي .. ولن تنطفىء شمعة أضاءت ظلماتي ..

سيبقى ذكرك في قلبي .. وستبقى صورتك في عيني ..

والله يعلم كم أحببتك .. وكنت ضالة في رغباتي .. وكنت عفيفاً في صدي كريماً في معاملتي ..

وبقدر مايكون موتك صدمة لي .. بقدر ما أتمنى أن يسامحني المولى على حملك على التفكير في ..

وليغفر الله لك .. وليرحمني بعدك .. فلقد تعلمت منك الكثير ، وكان صمتك أكبر تهذيب لي ..

وغصّت الغرفة بالقادمين من الأهل والأقارب والأصدقاء . وتطلع الشيخ أحمد ياسين بعينين زائغتين الى الوجوه فلم ير زكية . . وأدرك بغريزته سبب تغيبها . . فانتصب قامة متعبة ، ورفع رأساً مثقلاً بالآلام والهموم ، وخطا الى حيث يجدهـــا ..

لم تكن دهشته أكبر من الصدمة التي طالعته بها . . فقد تحلت بأجمل حليهـا وأخذت زينتها كيوم عرسها ... وكانت تتراقص على شفتيها ابتسامة مشرقة ..

لم يمهلها زوجها بأن تعبر عن مدى سرورهـــا وارتياحها بموت خصم عنيد لها ، وعاجلها بضربة قاضية دون أن يفقد هيبته أو يتلجلج لسانه ، وأرسل من عينيه شواظاً من نار ، ومن فمه خرجت طعنة اخترقت قلبها وتركتها طريحة صريعة كالثور . . وقال في كبرياء وحسرة . .

ـ أنت طالق . . ثلاثاً .

عندما تقسو الحياة . . وعندما تهزأ المصائب والنكبات بمشاعر البشر وتسخر من أحاسيسهم . . هناك وعلى مسرح الحياة تظهر قوة الانسان ، أو ينكشف ضعفه للعيان ..

ففي لحظات متتالية مرت بالشيخ أحمد ياسين محنتان .. الواحدة منهما كفيلة بأن تفقد الرجل اتزانه ، وتطير صوابه .. فاختطفت المنون ولده وفلذة كبده .. ودفعه كبرياؤه وعزة نفسه الى أن يفقد زوجته ورفيقة دربه .. فلم تزده هذه أو تلك الا قوة وصلابة ، وايماناً راسخاً بحتمية القضاء وحكمة القدر ..

وبقدر ما أحس بوقع الألم بفراق ابنه ... شعر بالطمأنينة وراحة الضمير بطلاق زوجته .. فلم يكن يتصور أنها تسخر من محنته ، وتشمت بموت ابنه .. فلا تراعي شعوره ، ولا تحترم حزنه ، وهاله منها أن تتخذ من موته وسيلة للتعبير عن أفراحها ، وأن تجعل من جثته نصباً ترقص حوله طرباً ..

وكان كعادته كريماً متسامحاً معها ، فأعطاها كل مالها ، وسخت نفسه بالجود عليها .. وودعها والدمع في عينيها يجري .. والأسى في صدرها يعربد ..

خرجت زكية تجرجر أذيال الخيبة وراءها .. والطريق المسدود يلوح أمام بصرها ممتداً إلى حيث لانهاية .. مفزعاً .. مرعباً ..

وفي لحة .. تذكرت أيامها الجميلة التي عاشتها في كنف الرجل الذي أحبته ... والليالي الحلوة التي قضتها تحت ظله .. وسرحت مع خيالها واستعادت ذكرياتها :

« ... هناك كنت المرأة الحظية التي تأمر فيلبى أمرها ، وتطلب فيجاب طلبها ، وكنت التي تتمنى وتتمتع .. كنت الجمـــال والاغراء .. وكنت الدلال والفتنة .. وكانت حياتي هادئة كالنيل .. معربدة كالموج .. زاهرة كالقمر .. مضيئة كالشمس .. عاطرة كالورد ..

ترى ؟ ؟

ماذا ينتظرني في بيت أبي اليوم .. وغداً .. وبعد غد ..
الوحشة .. والكآبة .. والوحدة .. والقيود .. والانصياع ، والطاعة ..

سينعق البوم في ليلي .. ستأكل الديدان من قلبي .. ستنهش الكلاب جسدي ..
أواه .. كم كنت مغرورة ... حمقاء .. طائشة .. رعناء ..

ويلي .. كيف لم أتذكر كرم أحمد ونبله ، وحسن معاملته ، ورقة أحاسيسه .. كيف سمحت لنفسي أن أدوس كرامته ، وأن ألفظ نعمة أنعمها الله علي .. ولمَ لم أحافظ عليها ؟

كيف اندفعت وراء طيشي وغروري ... فسخرت من حزنه ... وكان أحرى بي أن أشاركه فيها ..

وذاك الذي مات .. ألم يكن كافياً أنه مات وأراحني ؟؟

لماذا لم أضبط أعصابي وأتحامل على نفسي أياماً حتى يخف وقع المصاب على أبيه ، وأعود اليه ويعود إلي كما كنا ...

يالي من مجنونة .. حفرت قبرها بأظافرها .. وحكمت على نفسها بالعودة الى السجن ..

السجن .. يالها من كلمة رهيبة ..

أين ستكون مني تلك الحرية التي عشتها ؟؟ والحياة التي قضيتها في عز وتيه ..
عودي أيتها الشقية الى حيث كنت !!!

عودي الى أب صارم .. وأخوات تعيسات ، « وحياة رتيبة ، وفراغ قاتل .

عودي الى مرآتك حدثيها بهواجسك » ، ومخدتك ارويها بدموعك .. الى جدران أربعة تزيد من وحدتك وحشة وكآبة ..

عودي من حيث أتيت .. واتركي الحياة الواسعة لضرتك تعيش مع زوجك .. فينعمان بطيب الحياة وهناء العيش .. لا يعكر صفوهما ولد ، ولا يضايقهما ضرة ..

الموت أرحم من هذه الحياة التي تنتظرني ..
الموت أسهل من الهزيمة التي ستلاحقني .
الموت سيكون فيه راحة لي من شماتة الأعداء وكيد الحاسدين ... »

* * *

- ٦٣ -

ياويلنا من شهواتنا اذا انطلقت ..

وياويل للفضيلة اذا انتهكت .. والمبادىء اذا أهدرت .. والأخلاق إذا ذبحت ..

وياويل للبهيمة إذا جاعت .. وويل للمرعى من السائبة تأكل الأخضر منه واليابس ..

وهل أدل على ذلك .. من الحالة التي انتهى اليها خالد بعد أن فكت المدنية عقاله وقادته أهواؤه الى التردي .. وزينت له المرأة حب الشهوات .. وراقت له حياة الشباب بما فيها من مجون وخلاعة ..

وكان لنبأ زواج محبوبته عزة صدمة نفسية عنيفة تركت آثارها ظاهرة عليه .. كما وكان لها انعتاق واضح دمغ سلوكه وطبع أخلاقه بالانحلال والتفسخ ..

فتحررت نفسه من القيود .. وتحللت رغباته المكبوتة سني عمره وما لبث أن تحولت نفسه الهادئة الى بوتقة انصهرت فيه الرعشات ، وبؤرة تجمعت فيها عناصر الفساد .. وأخذ يضرب في الأرض بقدم هزيلة في البداية مالبثت أن قويت ورسخت وصار يسمع لخطواتها جلجلة . ويرى لموقعها آثاراً لاتمحى ..

قالت له صديقته سوزي :

– « أراك ياعزيزي قد نسيت ما كنت تسميها مبادىء ، وتفخر بها مثلا !! » أو لعلك قد تناسيت وصايا أهلك التي كنت تجيد حفظها في أول لقاءاتنا ... لعلها الحياة الصاخبة هي التي حولت اتجاهك . . وغيرت من أفكارك المتحجرة التي قدمت معك الى بلادنا . .

لقد نلت اعجابي . . فأنت رجل متطور ، ويشدني اليك قابليتك للتغيير . . وسهولة تبنيك للأمور . .

كانت سوزي تتكلم بصوت هادىء فيه من التهكم والليونة ما أثار كوامن الشجن في نفسه ، وحرك مشاعره . .

وفي لحظة صحو . أحس في قرارة نفسه آلام الخيبة التي يعيشها وجحيم التردي الذي وصل اليه . غير أنه سرعان ماعاد الى غيبوبته بعد أن رنّت ضحكة موسيقية في أذنيه . ولاح طيف الصبا والجمال أمام ناظريه بعد أن انتصب جسمها أمامه إغراءً وفتنة ، واستقامت واقفة تدعوه الى أنغـــام الموسيقى الى احتوائها بين ذراعيه لينعما بالرقص . .

وعندما أخذا مكانيهما من جديد . . بادرته بقولها :

– أراك قد تجاهلت تساؤلاتي . . هل أعياك الجواب ؟؟ أم تراك تعيش في أحلام جميلة لاتريد أن تصحو منها ؟؟

كان في صوتها – هذه المرة – نبرة من التحدي والسخرية مما أوجـــد قلبه وأوغل صدره . . فانبرى لها هادراً :

– « لعلك تريدين أن أتقدم بالشكر الجزيل لك . . أو لعلك تشعرين أني مدين لك بالفضل – ان كنت تسمي ماأنا فيه فضلا – وما علمت أن هذا الذي تسميه

تغييراً وتحرراً لا ماهو الا هاوية أتردى فيهـــا . . وحفرة سحيقة أوقع نفسي بيدي في قرارها ..

ماتسمينه أنت مدنية .. أسميه أنا تأخراً ورجوعـــاً الى العصور الوسطى البهيمية .. وما ترينه ضرورة من ضرورات الحياة ، ووسيلة للتعبير عن الحب .. أسميه أنا نزوة طارئة ، وشهوة عارمة .

نعم أنت على حق .. فلقد أضعت المبادىء التي عشتها .. ونسيت المثل التي كنت متمسكاً بها .. وشغلت عن الوصايا التي زودت بهـا .. فأين وصلت ؟؟ وأين أنا الآن ؟؟ نزق ، وفسق ، وفجور .

أضعت نفسي ، وبعدت عن الهدف الذي جئت من أجله ..

في كل يوم ضلالة . . وفي كل ليلة سيئة تضاف الى سابقاتها . . واقع مؤلم . . ومصير مجهول .. نفس سادرة في غيها ، وأخلاق تفتتت . . ومشاعر تتصارع على الفضيلة والرذيلة . . وعقل يتيه بين الخير والشر . .

هذا أنا أيتها الصديقة العزيزة ..

وفي فتور وحس متبلد .. أجابت بصوت مليء بالسخرية :

ــ ولكن لماذا كل هذا الصراع والنفور من الحياة ؟؟

لماذا لاتعيش بأفكار هادئة ونفس وادعة ! ، فتنـــال حظك من التعليم ، وتمتع روحك وجسمك في الوقت نفسه..

ــ هذه ازدواجية في الحياة لا أتحملها .. أنا لاأستطيع أن أعيش بوجهين .. كما أني لا أقدر أن أواجه نفسي أو أخدع عقيدتي ..

ــ ولكنك منغمس كلية عقلاً وروحاً ، جسداً وفكراً ، فكيف تواجه نفسك وعقيدتك ..

— نعم .. انني منغمس .. ولئن تركت لأهوائي الحبل على الغارب .. وأطلقت لرغباتي العنان .. فما ذلك الا نتيجة ينتهي اليها كل انسان شاءت له الظروف ، والبيئة أن يقفا حائلاً بينه وبين مايشتهيه وما يصبو اليه ..

لاتسأليني ايضاحاً .. فأنا أعرف الداء والدواء ..

— ولكن لماذا لا أسألك ؟

لقد قلت لك .. هناك ظروف معينة تمر على الانسان ، وحياة خاصة يعيشها تكوّن شخصيته .. وترسّب في أعماقه سلوكاً وطباعاً .. ويصبح من الصعب أن يتحرر منها .. تقيده .. تدمغه .. حتى يضج منها ويضيق بها .. وفي أول فرصة يلوح منها بصيص نور يندفع وراءهـــا ويهتك ستر الحجب التي وقفت مانعاً بينه وبين الرؤية .. ويحطم القيود التي يرسف فيها ..

— على رأسي تصب اللعنات ان كنت قد فهمت شيئاً ..

— وعلى رأسي .. ان عدت لحديث عنها بعد اليوم ..

— إذاً ما رأيك في التانجو الأزرق ؟

— أفضل أن يكون بلا لون .. كالحياة التي أحياها .. بلا لون .. ولا طعم .. ولا هدف .

— اذا كان هذا شأنك فلماذا تعيش إذاً ؟

— أعيش لأستمتع بحياتي . وبحاضري .. وأنتقم من ماضيّ ، أعيش .. لكي أنعم بـــا حرمته .. فالشباب كالزهرة تتفتح ويعبق أريجها ، ثم ما يلبث أن يزول أو يذبل كما تذبل الزهرة ذاتها .. وشبابي ينفتح الآن وأنت عبيره .. فلتصف لنا الحياة فهي قلما تجود بمثل هذه اللحظات ..

— ما أحلاك .. وأنت تفلسف الأمور الطبيعية بفلسفات الشرق .. وحقاً ماقيل .. ان أحلامكم عريضة ..

- ٦٤ -

صحا الشيخ أحمد ياسين يوماً بعد فترة عصيبة مرت من عمره .. وأخذ يتأمل حياته ، ويسترجع ماضيه ، ويفكر في ولديه .. سعد .. الذي اختطفته المنون وتركت وراءه فجوة كبيرة في حياته ونقطة سوداء في ضميره ...

وخالد .. الذي لايدري من أمره شيئاً وهو في غربة بعيدة .. ناء عنه بعيد عن ناظريه ...

وفكر في ذلك الثالوث النسائي الذي مر بحياته ..

هدى .. تلك المرأة الطيبة الوقور المطيعة والتي ملأت نفسه حباً وطمأنينة ، وشعر معها بقوة الرجل وعزته ، وآماله وطموحه . وزكية .. المرأة التي تثور داخلها ثورة عارمة من الجنس فيصارعهـا ويتغلب عليها بقوته وجسده ويخور بعدها ليعاود الكرة .. تلك البئر العميقة من اللذة الحسية والتي نهل منها فلم يشبع وطلب المزيد وصار عبداً لشهواته معها ..

ونادية .. التي ؟ ؟ بعد أن تردى في هاوية الشهوات وأحس من جـديد بوقار التجربة وأبهة الشيخوخة وحنو الأبوة ..

ولم يطق صبراً ، وضاق ذرعاً بحياته ، وأحس بوحدة موحشة وفراغ هائل يداهم قلبه ، فانتفض في مكانه وأصابته رعشة الموت ...

وقرر أن يكتب لابنه خالد خطاباً ..

وفي صباح باكر من ليلة زاهرة . . تسلم خالد تلك الرسالة . كان المظروف ثخيناً .. وكانت سطوره مهزوزة .. وبيد مرتعشة فض خالد الرسالة ، وقرأ :

« ولدي الحبيب .

لا أدري من أين أبدأ .. ولا كيف أنتهي ..

فنفسي قلقة ، وأفكاري مضطربة ، وفي القلب آلام ، وفي المحاجر دمعات .. بل ان حياتي كلها أصبحت مليئة بالأحزان .. وصخرة تجلدي أصابها تصدع وشقوق .

لم يعد أبوك ذلك الرجل الذي يحتمل العذاب بصبر قوي ...

ولم يعد للهدوء والاستقرار مكان في سمائي ...

زلزلت المصائب حياتي .. وهزت النكبات مشاعري .. وضاق صدري حتى بت لا أجد من أشكو اليه أو أبثه أحزاني .. وأشرفت صحتي على الانهيار .. وصرت أتمنى الموت .. لا بل اني أراه كل يوم ، وأنتظر قدومه كل ليلة ..

وعندما يحس الانسان بدنو أجله .. فان ذلك الاحساس قلما يخيب .. وأنا يابني مؤمن بأن الآجال محتومة لايعلمها الا هو .. ومدرك أن الروح لايقبضها خالقها إلا إذا حان وقتها ..

ولكن ما حيلتي .. وقد هبت العواصف تعصف بي من كل جانب .. فتعلقت كل آمالي بك ، وبك وحدك .. فأنت ولدي وسندي ، وأنت خليفتي في أهلي ومالي .. ورجل البيت بعدي ..

لقد حاولت ياخالد جاهداً أن أبعدك عن مشكلات الأسرة ، وأن أوفر لك جواً هادئاً مريحاً .. تعيش وتنال فيه تحصيلك وتؤدي رسالتك بعدها .. ولكني أجد نفسي مدفوعاً تحت ضغط المرض والخوف من المجهول إلى مواجهتك بالحقائق واستعراض المشكلات أمامك والتخلص من أسرار ضاق صدري بحملها ..

ولثقتي في رجولتك ، ورجاحة عقلك ، وحسن تصرفك في الأمور .. سألقي اليك بثقل العبء .. فكن ذلك الرجل الذي وضعت ثقتي فيه وبنيت آمالي على سعة ادراكه وقوة تحمله ...

وسأترك لك بعد ذلك تقدير الأمور ، واتخاذ القرار الذي تراه ...

فاعلم يابني أن شقيقك الذي أصبح مصدر تعزيتي ، ومحل سلوتي .. وبعد أن هداه الله إثر المرض الذي ألم به .. قد صار عطوفاً ألوفاً .. لايلقاك الا هاشاً باشاً . الابتسامة الحلوة تعلو محياه ، والبشر يطفح من وجهه إن انت خاطبته برفق ولين .. وفرحت ، وأيقنت أن الله أراد ان يعوضه خيراً عن حياة الشقاء التي عاشها ، وأن يبدله سعادة بعد تعاسة مرغ خده فيها .. وصار لحياته معنى ، وأخذ يفكر في مستقبله .. وكثيراً مابكى أيامه الغابرة وجهالته السوداء ، وتحسر على ضياع عمره بعد أن داس برجليه فرص التعليم ...

وسارت بنا الحياة هادئة وادعة في البيت .. ولم يعد ذلك العراك الذي تعرفه ينشب عادة بين زكية وبينه ، وكان يكتفي منها بصمت يشبه صمتك عندما كانت الظروف تحتم الصدام بينك وبينها ..

ورقت له المشاعر ، وأنس به الأهل والأقارب بعد تلك الجفوة التي كبرت مع الأيام بنتيجة سوء سلوكه وتحديه ...

ولم أكن أعلم ياخالد أن وراء ذلك التغير ألماً وحسرة ، وأن ذلك التحول سيكون نذير شؤم علينا .. فكان كلما اشتد به المرض تزداد نفسه رقة ويزداد قلبي تعلقاً به . وكنت كلما أراه سابحاً في أفكاره وراء المجهول ، غائباً بحواسه عن العالم الذي يعيش فيه أحسب أنه يكتم أمراً ستفصح عنه الأيام .. ولم يدر بخلدي أنه بذلك انما يتأمل مصيره ، ويناجي ربه الذي اختاره إليه ، وما هي إلا أيام حتى حل المصاب وفجعنا فيه .. فجعنا في شبابه ونضارته وحيويته ، ولم يفد تعلقي به ، ولا تمسكي بأطراف ثوبه ، فقد انتزعه الموت وانتزع قلبي معه .. وصرت أبكي كما لم أبك من قبل .. وأدركت أني فقدت ابني الذي بدأت أشعر برائحته كلما ضممته وهو يدفن رأسه في صدري باكياً مستعطفاً سائلاً الصفح والغفران ، طالباً الرضا ...

فهل كنت أجد عذاباً . أشد من ذلك ؟ ؟

وهل يصحو ضميري كما كان يصحو عندما أحس بدموع عينيه سخية .. مدرارة تنساب في صمت وكأنه يلومني على ضياعه صغيراً وطيشه شاباً يافعاً .. أو كأنه أخذ يحس بعطف الأبوة بعد أن حُرمه .

ولم تقف الآلام عند حد .. فلقد شاهدت بعيني الى أي مدى تمتلك الغيرة والحقد قلب المرأة .. وإلى أي مدى يجرف حب الانتقام الانسان .. وإلى أي مدى تنقاد الأنثى الى شهواتها فيضيع صوت العقل ، ويفقد المرء صوابه واتزانه وحتى احترامه انفسه وللآخرين واحترامهم له ...

فبينما كانت نادية تشق ثوبها وتغيب عن وعيها بكاءً ونواحاً على الفقيد .. كانت زكية تنتقي من ثيابها أحسنها ، وتزين نفسها بأجمل زينة وكأنه يوم فرحه لا يوم موته ... فكان الطلاق لها جزاءً والفراق الأبدي مترصداً ..

وهكذا شاء لي قدري أن أفقد ابني ، وأن أفترق عن زوجتي ... ولم أجد أمامي سوى هذه الزوجة الشابة ..

مرة أخرى لاتقف آلامي عند حد ..

فبعد أن تضافرت علي الهموم ، وتصارعت في نفسي مشاعر وانفعالات متعددة ، تنوعت الأمراض الداخلية التي أعاني منها ، واشتدت نوبات القلب .. صحوت يوماً وإذا أنا عاجز عن أداء حقوق الحياة الزوجية .. ولشد ما يضيق صدري ويعتصر فؤادي عندما أرى زوجتي – الآن – وهي تفيض حيوية . . نضرة . . يانعة . فلا تجد مني قدرة على التجاوب معها . . أو أداء واجبي نحوها .

ان مرضي يزداد بشدة . . ومسؤليتي أمامها تزيد من خطورته وتفكيري في مستقبلها . . وفيك بعيداً عنا .. وعجزي عن تصريف أمور البيع والشراء . . وخوفي من ضياع حقوقي عند التجار . . . يقوي من احتمال وقوع النوبات القلبية وقوعاً متتالياً كلما أنعمت النظر ، وكلما غرقت في بحر لجي من الأوهام ..

ولقد طال شوقي اليك يابني .. وبت أنت هاجسي الوحيد .. لا أنام أو أصحو إلا على ترديد اسمك حتى شغلني عن ذكر الله ، وصرت أرى وجهك أمامي أينما كنت وحيثما حللت .

وإني لمدرك تعلقك باتمام دراستك والوصول الى أعلى الدرجات ونيل أرقى الشهادات ، ولكن ... انظر الي وفكر في حالتي ، فأبوك اليوم أحوج مايكون الى مساعدتك ومؤازرتك .. ولقد عشت عمري كله أزرع وأغرس لكم الثمار .. فحان الآن وقت حصادها ..

فارجع الينا ياخالد ..

عد الى بيتك ، وأنقذ أباك من وحدته ، وابق بجـــانبه وهو يصارع براثن المرض وأنياب المحن التي أحاطت به ، وأنا بعد هذا لا أعدك بأن تراني . . فاني أحس بدنو أجلي . . ولكن أوصيك بزوجتي نادية خيراً .. كن لها عوناً ومعيناً ، ولا تنس أن تتذكر أهلك ، وعمتيك بالخير دوماً . .

ولا تنس زكية أيضاً ، فأنت ذو قلب كبير رحيم . .

الوداع يابني . . الوداع حتى نلتقي . .

واذا ما ودعت دنياي قبل رؤيتك ، فاعلم بأن قلبي ، ومشاعري ، وكل شعرة في جسدي تدعو لك بالتوفيق والنجاح في حياتك ، فسر على الدرب المستقيم .. والله يرعانا برعايته ويكلؤنا بعنايته والسلام . .

* * *

- ٦٥ -

بينما اخذ خالد يقرأ خطاب أبيه . . . كانت كل كلمة فيه تمزق خلية من خلايا مخه ، وكل سطر يمر يطاق سهماً الى قلبه فيزيده تحطيماً ...

كان قد ألف الحياة الصاخبة ، وامتزج بما فيها من صخب ومرح وسرور .. فلم يعد يذكر مصائب الدنيـــا ، ونسي متاعب الناس ، وترك خلفه مشكلات عائلته ، ولم يفكر مطلقاً في أخيه ومواقفه المتردية .. وبعد عن الشر والنكد .. واستيقظ بعد سبات عميق . . .

وصحا بعد غيبوبة دامت سنوات . .

وصاح والألم يمزق نفسه . . مات أخي . . مات شقيقي . قتلوه . . انتزعوا منه شبابه ، وفتكوا برجولته ، وقضوا على حياته . .

راح ضحية أنانية أبيه ، وحقد زوج أبيه ..

فيا لتعب أبي المسكين .. لو درى أن زواجه من تلك المرأة الحاقدة الطاغية سيشتت شمل الأسرة ويكون سبباً في القضاء على ولده لما فكر فيها واقترن بها ..

لو علم أن وجود امرأة دخيلة سيحطم كيان المائلة ويبدد مصيرها لمـــا أقدم على الزواج مطلقاً ..

فلتذهب زكية الى الجحيم .. ولتلق عقابها الذي جاء متأخراً سنين وأعواماً .. بل كان يجب أن يقطعها اربا بدلاً من أن يرسلها الى أهلها . .

كان يجب أن يدفنها حية قبل أن تقف شامتة بموت أخي ...

لقد كنت ضعيفاً معها يا أبي . . ، كنت مثالياً في معاملتها ، كريماً مع من لاتقدر فيك الكرم . . حليماً مع من لاتفهم في الحلم واللين سوى الجبن والخنوع .

انني لا أتصور كيف كانت الصدمة على قلبك ياأبي وعلى أعصابك معاً .

والآن ! ! !

مـــاذا أفعل ؟ ؟ ؟

هل أبقى وأواصل تعليمي وأعود لنفسي وأصحو من غفلتي ؟ ؟

إن أمامي طريقاً طويلاً لابد من الوصول الى نهايته حتى أنهي دراستي ، وأنال شهادتي .. وأصبح طبيباً . . فأبني لنفسي مستقبلاً ، وأكوّن أسرة وأستقل بحياتي وذاتي : . .

أم أعـــود . . . . ؟

هل أعود الى جحيم الحياة ، وأغرس نفسي في قـاع المتاعب ، وألهث وراء الصعاب ؟ ؟

أعـــود لمن ؟ ؟

أسرة فقدت ولدها الشاب اليافع ! !

وأب طلق زوجته التي أحبها وقد أقعدته الأمراض . . . وهدته الهموم فتحطم قلبه وغاضت رجولته . .

وزوجة فتية تعاني من الوحدة ، وتقاسي من فورة شبابهـــا . . فلا تجد من يسكت صرخاتها أو يؤنس ليلتها . .

أين مقامي بينهم ؟ ؟

وكيف ستكون حياتي معهم ؟ ؟

لمن أشكو حالي ؟

لماذا أكون ضحية أخرى من ضحايا رغبات أبي ؟ ؟

ألم أقف ضد زواجه الثاني ؟ ؟

ألم أحاول منعه من الاقدام على الزواج .. ومن فتاة صغيرة في سن أولاده ؟؟

ضاع صوت العقل آنذاك . . وطغت العـــاطفة . . بل الشهوة . . وانتصرت الأنانية . .

فماذا كانت النتيجة ؟ ؟

راح أخي ضحية الزوجة الأولى . .

فهل أروح أنا ضحية الزوجة الثانية ؟ ؟

ومستقبلي . . والطريق الذي فرشته بالآمال .. وزينته بالأماني العراض .

هل أقطعه ؟ ؟ أم أسير فيه الى النهاية ؟

أواه يا أبي . . لماذا لاتفكر إلا في نفسك . . وفي رغباتك . . لماذا تركتنا وحيدين في صحراء قاحلة . . لاحب فيها ولا حنان .. لاعطف ولا رعاية ..

مات أخي .. لعله ارتاح في رقدته الأخيرة . .

فهل كتب علي الشقاء والموت تدريجاً ؟ ؟

(. . عد الى أبيك . . وإلى بيتك . فأنا أحوج ما أكون اليك . .)

« نعم . . أحوج ما تكون إلي الآن . . بعد أن شربت من كأس الحياة حتى الثمالة . . ولم يبق فيها سوى الحساب . . الحساب العسير .

لماذا أتحمل أنا – وحدي – وزر الآخرين .

مـــا ذنبي ؟

مـــا خطيئتي ؟

سوف أعـــود . .

لا . . لن أعود . .

يجب أن أنهي دراستي . . يجب أن أنال شهادتي . .

علي أن أغير نمط سلوكي . . وأن أبدأ صفحة جديدة في حياتي . . وأن اضاعف من عزمي وأشد من قوتي مهما كلفني ذلك من ثمن . .

وانكفأ على فراشه . . والدموع تملأ عينيه . . والأسى يعصر قلبه وأفكار عنيفة تتصارع في رأسه ...

وجاءته ـ سوزي ـ كعـــادتها ـ تروم سهرة ممتعة ، وقد ظهر من محاسن جسدها ما يسلب لب العاقل . .

وصدمت عندما رأت دمعات حيرى تدور في مقلتيه ، ووجهاً عصره الألم ، فبدا شاحباً مصفرا .

وما أن ضمها المكان المعهود . . حتى أخذ يتكلم في تؤدة واتزان . . ورنة كانت مخارج الحروف فيها تبدو قوية حازمة . .

ـ ان حالي لاتسمح لي بكثير من تفاصيل أو عرض مقدمات . . هي كلمات مختصرة أريدك أن تسمعيها وتقدريها وتعي مافيها . .

(مدت اليه رأساً خالياً من أي توقعات . . وفي بلاهة أو براءة) قالت :

ـ هات ماعندك . .

ـ أريد أن ننهي علاقتنا كما بدأناها . . في صمت . . دون أن تأسفي عليها أو تنتابك ساعة ندم . . أريد أن نفترق . . وقبل أن تفيق من الصدمة . . استرسل خالد في رقة وتأثر . .

هي الحياة ياصديقتي . . تعطي لتأخذ . . تدخل السرور على قلبك مرة وتنزعه منك مرات . . ويكفي أن تعلمي أنني مثلك مكلوم ، وفي قلبي جروح لا تندمل .

لم تدر بماذا تجيب .. وأرادت أن تستوضح أكثر ، أو أن تعرف سبباً لهذا القرار المفاجىء ، ولكنه لم يدع لها فرصة ، وقام يسلمها جميع حاجاتها الخصوصية وهو يقول في صوت بدا فيه الصدق والعطف :

ـ ستظل ذكراك في قلبي دائماً .. وسوف أرددها مع نفسي وأسترجع صدى أيام حلوة عشناها معاً . .

(واغرورقت عيناها بالدموع . . وأطرقت برأسها . . واشتدت ضربات قلبها . .) فواصل حديثه :

ـ أنا أدرك كم لهذا القرار من وقع أليم في نفس كلينا . . وأن ماينتج عنه سيكون قاسياً وأكبر من أن نتحمله . . ولكن علينا أن نتقبل الهزيمة في حياتنا كما نفرح بالانتصار ، وأن نحتسب الخيبة في كل خطوة من خطانا كما نتوقع النجاح . .

وأن نضحي بأنفسنا في سبيل غيرنا .

وعلينا أن نذبح القرابين على صخور الأنانية اترقص عليها تقاليد المجتمع ، علينا أن نحرق شموع سعادتنا لتضيء طريق الآخرين ...

وطواه الليل وهو يكابد النوم ويغالبه .. حتى إذا لفه الظلام رأى في منامه والده وهو في حالة شديدة من اليأس والكرب .. كان يتضور جوعاً ، ويتلوى ألماً ، .. ويشد يداً هزيلة الى ولده مستغيثاً طالبـــاً إنقاذه من الحفرة العميقة التي وقع فيها ..

ـ أنقذني .. خذ بيدي .. لاتتركني هنا يا خالد .. أخرجني من هذه الحفرة . كان الوالد يصيح والبكاء يغلب على صوته ...

ومـــد له خالد يداً ..

وعندما أفاق في الصباح .. حزم الرأي واعتزم أمراً ..

إلا أن الأيام كانت أسرع منه .. فقد تلقى نبأ فجيعته في أبيه .. وموته المفاجىء .

- ٦٦ -

عصفت بخالد موجات من شك وجحود ..

وتسربت الى نفسه ذرات من عصيان وتمرد ...

وبدا ساخطا ناقماً على نفسه .. والمجتمع .. والحياة أجمع

وتحجر الدمع في مآقيه .. وتبلدت أحاسيسه

وقضى يومه في غرفته وحيداً .. يحملق في الفضاء ، ويخترق الأفق .. ويتأمل المصير المجهول الذي ينتظره

لم تبك عيناه .. بل بكى فؤاده المكلوم

ولم تسح مآقيه دمعاً .. بقدر ما نزفت دماً

وفكر في نفسه .. ونظر الى ما حوله ..

وفجأة .. مر شريط سريع انطبعت آثاره على مخيلته ..

وتذكر أيامه الماضية التي غابت ..

والحياة المتقلبة التي عاشها ...

والجامعة .. وسير الدراسة فيها ..

ولياليه .. وأيامه .. وصديقته .. وآراءها .. ومواقفهـــا معه .. ثم فراقها المفاجيء والأفكار المتطورة التي عشقها . والنظريات الجديدة التي اتبعها .. ونهج الحياة الذي سلكه .

وقفز تفكيره الى هناك – الى مكة – حيث الحياة الرتيبة .. والأفكار التي تقف عند حد معين .. والسلوك المتحجر .. والتربية المعقدة .. والمتاعب .. والصعاب .. والمشكلات الأسرية .

وتذكر تجارة أبيه .. وما سيتكبده في سبيلها من حذاقة وغش وخداع .. وجلوس في الدكان في ضجر وضيق ، وحديث معاد مكرر ..

واشتدت ضربات قلبه .. وأحس بالاختناق .. وتحسس جبينه ومسح حبات العرق التي تتفصد واحدة تلو الأخرى ونار حامية يشتعل أوارها في نفسه .. وأخذ يناجي نفسه ..

« .. هذه هي الدنيا .. لاتدوم على حال . ولا تسر أحداً .. من أحب دنياه وتفانى في يومه ، وعشق ليله ، ووطد العزم على أن يعيش حياته .. عاجلته بضربة قاضية ، وفاجأته بمحنة تسد الطريق أمامه وتحجب النور عن عينيه ..

أما أولئك الذين يسخرون من دنياهم ، ولا يعبؤون بها ، ولا يهتمون بلحظة من لحظات عمرهم ... فانها تمد لهم ، وتزيدهم غنى وبسطة وحبورا .

.. أنا الذي قضيت عمري وحيداً ، وأفنيت حياتي عذاباً ، وعميت عيناي عن الدنيا وما فيها من ملذات وسرور ... مكتوب علي أن أعيش طيلة عمري في الحرمان وأقاسي من ذلك العذاب ..

ولقد خدعت .. وخدعت نفسي عندما ظننت أن الرضيع يستطيع الكلام ، وأن المشلول يقدر على السباحة ... خدعت عندما ابتسمت لي الدنيا ، وفتحت لي – مرة الاشارة الخضراء للعبور على جسر الأماني إلى شاطىء البهجة والسرور .. ولم أدر أنها ستعاجلني بضربة .. واثنتين .. وثلاث .. وأربع .

أفقت من الأولى . .

وقمت بعد الثانية . .

وتعثرت في الثالثة . .

وانتهيت في الرابعة . .

وقفوا عثرة في سبيل سعادتي ، وزوجوا من أحببتهـا دون رضاها ودون استشارتي فقضوا على فؤادين صغيرين ، وحكموا على قلبين بالعذاب والحرمان . .

ومات أخي .. فأصاب قلبي سهم لا زالت نصاله مكسرة فيه . . وزعزع أبي ثقته فيه وفي نفسي وجعلني أكفر بالنعم وأصل إلى مشارف الجحود . . ودفعني إلى أن أقف في وجهه غير عابىء بما سيكون ومـا سيؤول إليـه المصير ، ولم أذعن لطلب العودة . .

وهذه هي النهاية . . هي الضربة القاضية . . ومـات أبي . . وخلف لي تركة صعبة .

لمـاذا تختارني الدنيا ضحية من ضحايا نكباتها ؟

لمـاذا تتصيدني المصائب . . وأنا لازلت شاباً صغيراً لم أنعم بحياتي ، ولم أتبين طعم الحب فيها ، ولم أدرك ماهية وجودي .

هناك من الناس من هم أقل مني مستوى في المـال والجاه والعز والثقافة والتحصيل . . لم تمر بهم نكبات الزمن ولا مصائبه . . غيري من الذين يقاسون شظف العيش ، ويعانون ضيق اليد . . يعيشون حيـاة سعيدة ، لا يعرف الهم طريقه إلى نفوسهم . .

ثم مـاذا ؟

ألا يمكن للإنسان أن يعيش لنفسه .. وحيداً ، سعيداً ، هانئاً ، خالي البال ؟

لمـــاذا يرتبط مصير الفرد بالآخرين ؟

لماذا يتحتم عليه أن يعيش للناس ، ويفكر للناس ، ويتعذب لعذاب الناس إذا كانت روابط المجتمع لاتسود ولا ينتظم عقدها ولا تكتمل صورتها إلا على حساب الفرد ومد سلطانها وفرض سيطرتها عليه .. إذن فلأعد ..

لأعد الى حيث كنت

لأكون ضحية من ضحايا المجتمع . .

هكذا شاء لي قدري . .

وهكذا أرادت لي تقاليد البيئة ، ونظم المجتمع .

لأعد . مهما كانت النتائج ، ومهما كانت الصعاب ، ومهما بلغت التضحيات

لأعد . . رغم أني أرى أمامي صحراء ممتدة قاحلة . .

لا مـــاء فيها ولا شجر . .

لا فيء فيها ولا ظل . .

وا عجباً . . حتى جبالها لم تعد تظلل من تحتها

فـــلم يعد ظل تحت الجبل .

(انتهت)

* * *



نبذة عن حياة المؤلف :

- ولد ونشأ وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في مكة المكرمة .
- تخرج من كلية الآداب – جامعة القاهرة .
- تحصل على دبلوم في العلاقات العـامة من لندن .
- مارس الصحافة بعد تخرجه فعمل في مجلة الندوة وقريش بمكة المكرمة .
- أصدر أول صحيفة رياضية ١٣٨٠ – ١٣٨٤ هـ ثم توقفت بعد صدور نظام المؤسسات الصحفية .
- طاف بجميع أنحاء العالم وكتب انطباعاته ومشاهداته بجريدة عكاظ ثم الرياض .
- تنقل في عدة وظائف حكومية وعمل بجهاز التعليم ثم بوسائل الاعلام والصحافة وعمل لفترة (مدير عام الصحافة المساعد) ثم مديراً عاماً للمطبوعات انتقل بعدها الى جامعة الملك عبد العزيز بجده :
- طلب احالته الى التقاعد المبكر ليتفرغ لأعماله الخاصة .
- من مؤلفاته أيضاً – مجموعة قصص قصيرة – تحت الطبع

* * *